

محمد عبد الحي محمد شعبان

صدر الإسلام والدولة الأموية

٦٠٠ - ٧٥٠م (١٣٢)هـ



الأهلية للنشر والتوزيع

صَدرُ الإسلام والدولة الأموية

٦٠٠ - ٧٥٠م (١٣٢هـ)



محمد عبد الحي محمد شعبان

صدر الإسلام والدولة الأموية

٦٠٠ - ٧٥٠م (١٣٢هـ)

الأهلية للنشر والتوزيع

الأهلية للنشر والتوزيع
بيروت ١٩٨٧

بيروت، بناية الدورادو، الحمراء، ص ب. ١١٣٥٤٣٣ هاتف ٣٥٤١٥٧/٣٥٤١٥٦

Originally Published in English by Cambridge University Press under the title:
Islamic History
AD. 600-750 (A. H. 132)
A New Interpretation by M. A. SHABAN.
150

صفحة

شكــــر

من دواعي سروري أن أعبر عن امتناني للكثيرين من أصدقائي وزملائي الذين أسهموا في إخراج الطبعة الانكليزية من هذا الكتاب . فالسيد وليم ك. هنتر ، الطالب السابق والصديق الفاضل ، بذل بسخاء وقتاً وجهداً لاعادة كتابة جزء كبير من المسودة الأولى . والكثير من العبارات الأكثر جمالاً في هذا الكتاب هي ثمرة أسلوبه الأنيق . والاستاذ إيرا لابيدوس قرأ مسودة سابقة ، وتفضل بتقديم بعض الاقتراحات المفيدة . وسأبقى دائماً مديناً للأستاذ سي. ف. بكنجهام ، الذي كان يقرأ النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة في مختلف مراحل تطورها ، على تشجيعه المتواصل ونصائحه القيّمة . ثم إنني ممتن أيضا للأستاذ ت. م. جونستون الذي راجع المسودات مراجعة دقيقة وصحح أخطاء كثيرة ، وهذب حواشي هذا الكتاب .

وأتوجه بشكر خاص الى السيدة دون هابارد التي طبعت وأعادت طباعة مخطوطة الكتاب على الآلة الكاتبة بمهارة وصبر سهّلا عليَّ مهمة إعادة الكتابة . والشكر أيضا أزجيه للسيدة هيلغا رامزي لما أسدته من عون في إعادة طبع المخطوطة على الآلة الكاتبة . أما ما أدين به لزوجتي فهو أعظم من أن يُقدّر .

وتستحق مطبعة جامعة كمبردج الشكر على نشرها للكتاب . وما أعظم ديني للمحررين والعمال على ما أظهروه من صبر كثير وعناية فائقة في إخراجه ! .

تمهيـد

في هذا الكتاب تفسير جديد للتاريخ الاسلامي في أوائل عهده ، وهو تفسير قائم على تقصٍّ شامل للمصادر المتوافرة . ولا يقف هذا التفسير عند الافادة من المواد التي اكتشفت حديثاً بل انه ، وهو بذلك يتجاوز هذا الأمر الى درجة أكبر ، فيه محاولة لاعادة النظر في المواد المتوافرة منذ عقود كثيرة وتفسيرها . والواقع ان هذه المحاولة قد أتت أكلُهَا في دراستي عن « الثورة العباسية » . وقد اتبعت النهج ذاته في هذا الكتاب لكنني طبقته لا على ولاية خراسان وحدها بل على الدولة العربية كلها .

ومن أجل أغراض هذا الكتاب كانت ثمة محاولة منتظمة لتتبع قيام النظام الاسلامي في شبه الجزيرة العربية ثم توسعه الفجائي باتجاه امبراطورية . وقد وجهت انتباهاً خاصاً الى كيفية استقرار أبناء القبائل العربية في الولايات المختلفة ، والى علاقاتهم بالشعوب المغلوبة ، والى مصالحهم ونشاطاتهم ومنافساتهم المتعددة والى علاقاتهم بالحكومة المركزية ؛ ثم الى محاولات هذه الحكومة ترسيخ سلطتها على الولايات الواسعة . وفي الوقت ذاته بذلت جهداً لتجنيب القارىء عبء التفاصيل الدقيقة لكل حالة خاصة ولاعطائه ، بدلا من ذلك ، تحليلاً منظماً منسجماً للأحوال التي كانت تتغير باستمرار في جميع أنحاء الامبراطورية .

كثيراً ما كانت أحداث هذه الفترة تحلل على أساس المنافسات القبلية الوهمية او النزاعات الشخصية غير المعقولة . ومثل هذه التحليلات من شأنها ان تهمل مصالح العرب المنطقية كل الإهمال ، وان تسيء إساءة شديدة الى طاقتهم البشرية القابلة للتكيّف مع الأحوال الجديدة . ومن المسلم به أن هذا الأمر ليس سهلاً أبداً ، إذ أنه يستغرق زمناً ، ولكن العرب الذين استطاعوا العيش في الحياة القاسية في شبه الجزيرة العربية ، كانوا بالتأكيد قادرين على التكيف بحياة أكثر رخاء في مكان آخر . إن الفترة

التي يتناولها هذا الجزء هي في الواقع تاريخ مشاكل هذا التكيف بجميع مضامينه . لقد كان رجال الدولة العرب ، برغم ما نجد عندهم ، بين حين وآخر ، من نقاط ضعف وتقصير ، قادة مسؤولين ، معنيين بالدرجة الأولى ، بنجاح سياساتهم والمحافظة على امبراطوريتهم ، وبتحسين أحوال أنصارهم . وعلى ضوء ذلك ينبغي فهم تصرفاتهم وتغيرات سياساتهم على أنها خطوات منطقية في سبيل تحقيق أهدافهم ، لا نزوات مبنية على البغض الشخصي أو على الأوهام المترمتة .

ولا ريب في أن المصادر العربية تحوي ما يكفي من المواد الموثوقة لكتابة تاريخ لهذه الفترة يكون أكثر من عرض عام موجز لها . وقد كان همي ان أجد هذه المواد وأتفهمها وأحللها في ضوء الطابع العام لكل مصدر ، وبالنسبة للمواد المستقاة من مصادر أخرى . وفي هذا المجال كان لا بد من بذل عناية كبيرة للتأكد من المعنى الدقيق ، ولتحديد الاستعمال المضبوط للعبارات والألفاظ المهمة التي استعملها جامعو المصادر والثقات الذين نقلوا عنهم . وفي معظم الحالات أدى مثل هذا التحديد الى توضيح المصالح والنشاطات الخاصة للجماعات والشعوب المعنية . إن هذا التفهم الأساسي حيوي لاستعمال هذه المصادر استعمالاً صحيحاً . وبدون ذلك قد يلقى المرء نفسه في متاهات ظواهر عديدة غير مفهومة .

أما الهوامش فقد تعمدت الاقتصار على الحد الأدنى منها . ولم أورد غير المصادر الرئيسة دعماً للحقيقة وللتفسير . ثم انني لم أحاول مناقشة ما توصل اليه الباحثون الآخرون في هذه الفترة لأن مثل هذه المناقشة كانت ستؤدي الى خلط القضايا وإرباك سياق الحجج المعروضة في هذا المجلد . وعلى أي حال آمل ان تثير هذه الدراسة الطلاب والباحثين على السواء ، وان تشجع على مواصلة البحث حول الموضوع .

م. ع. شعبان

الفصل الأول
الثورة الاسلامية في بيئتها

تصعب الكتابة بصورة موضوعية عن ظهور الاسلام، أو عن أي دين آخر. فالمؤرخ ، ولو طرح الاعتقادات الشخصية جانباً ، يجد نفسه ، بوجه عام ، أمام غموض شديد حول أصول نشأة الدين المعني . ولئن بقيت لنا أية تفاصيل عن تطور الدين في أول عهده ، فإنها غالبا ما تكون ملونة منمقة الى حد كبير ، أو كثيراً ما يكون مبالغاً فيها بحيث يصعب التمييز بين الحقيقة والأسطورة . والاسلام ، من هذه الناحية ، أفضل حظاً من حيث أنه تتوفر لنا عنه معلومات أوفى عن صاحب الدعوة . ومع ذلك فإن المادة التي لدينا عن حال شبه الجزيرة العربية في هذا الوقت مجزأة مضللة بحيث انها لا تسمح لنا بفهم تاريخ هذه الحقبة فهماً تاماً . لقد كُتب الكثير عن حياة الرسول ومسيرته ، ودُقق في جميع التفاصيل تدقيقاً وافياً وحللت تحليلا كاملا إلى حد أننا أصبحنا الآن واثقين بوجه عام من الحقائق الأساسية لنشاطاته ؛ إلا أن هذه الحقائق بذاتها لا تعلل جميع هذه النشاطات ولا تجعل فهم دوافعه أمراً أيسر . طبعاً إن أي تعليل هو خاضع لتفسير هذه النشاطات ، ومن الطبيعي ان يختلف المؤرخون حول هذا التفسير. والمشكلة هي أنه ،بسبب ندرة المعلومات عن الأنحاء الأخرى لشبه الجزيرة العربية ، جاءت هذه التفسيرات ، في الغالب ، تخمينات أكثر منها تحليلات تاريخية مستندة الى وثائق وافية . وعليه فإن اي. أ. بليابيف كان يستند الى حجج فريدريك انجلز بدل مصادرنا حين كتب : « وهكذا نشأ الاسلام في شبه الجزيرة العربية ايديولوجية جديدة تعكس تغيرات مهمة في المجتمع العربي، أي عدم المساواة في الثروة ، والرق ، وتطور حركة المبادلات التجارية . إن نشوء هذه الايديولوجية الجديدة يعود الى تكوين نظام قائم على الرق في مجتمع بدائي مشاعي (كوموني) سائر نحو الانهيار . »[1] لا

(١) E. A. Belyaev, *Arabs, Islam, and the Arab Caliphate*, TR. Adolphe Gourevitch, Lon. M69, P. 115

شك في أنها ايديولوجية جديدة ، ولا شك في أنه كانت هنالك ايضا تغيرات واسعة في المجتمع العربي . أما القسم الآخر من هذا القول فليس له في مصادرنا ما يدعمه على الاطلاق . ومن ناحية أخرى يقول و. مونتغمري وات « ان الحالة الأساسية التي نشأ عنها الاسلام هي التباين والصراع بين تطلعات مكة البدوية ووجهات نظرها من جهة ، والبيئة المادية (او الاقتصادية) الجديدة التي وجدت نفسها فيها ، من جهة اخرى » . ثم يواصل وات القول بأن « الانهيار الخلقي الأدبي وعجز الرأي العام كانا متصلين بانحطاط في حياة أهل مكة الدينية . ان خلقية الصحراء التقليدية أصبحت غير ذات موضوع في مكة »[1]. هنالك الكثير مما يدعم حجة وات ، ولكن ما يؤسف له هو أنه حصر نفسه بصورة أساسية بدرس أوضاع مكة والمدينة ، ولم يوجه العناية الكافية لبحث أحوال شبه الجزيرة العربية كلها .

ومثل هذا البحث ضروري وأساسي لفهم أوضاع مكة ونشاطات الرسول في مكة والمدينة معاً ، ولكنه شاق عسير . ومن الانصاف انقول ان النقص في هذا المجال عائد بالدرجة الأولى الى الدراسات السابقة . على أنه من حسن الحظ أن اهتماماً أوفر يوجه الى هذه القضايا في الوقت الحاضر ، مما يتيح لنا مجال الانتفاع بكتابات لباحث مثل م . ج . كيستر[2]. لقد أخذت تبرز أمامنا في الوقت الحاضر صورة علاقات بالغة التعقيد في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام . كانت هذه العلاقات تربط سكان مكة بسكان معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية ، من بدو وحضر ، في تجارة آخذة بالاتساع ، هي تجارة دولية على نطاق واسع تشمل الامبراطوريتين الكبيرتين آنذاك ، أي الامبراطورية الساسانية والامبراطورية البيزنطية . ومن الطبيعي ان تكون لمصالحها تأثيرات بعيدة المدى في شبه الجزيرة العربية نفسها . لقد كان الساسانيون أكثر ميلاً من البيزنطيين لاستخدام القوة لحماية مصالحهم التجارية . ومع أنهم احتلوا اليمن حوالي ٥٧٠ ـ ٥٧٥م ، ووطدوا سيطرتهم على جانبي الخليج العربي ، فإن بقية أنحاء شبه الجزيرة العربية ظلت خارجة عن سيطرتهم . وحاولوا استخدام أنصارهم ، ملوك الحيرة الواقعة على حدودهم الجنوبية الغربية ، لاخضاع أبناء القبائل المقيمة في الهضبة العربية

---

١) W. Montgomery Watt, *Muhammed, Prophet and Statesman*, London, 1961, P.48-51 (محمد، رسول ورجل دولة)، لندن.

٢) نشير فيما يلي الى مقالات كيستر المبنية على وثائق كثيرة. ان تعليلاته لظاهرات لم تعلل حتى الآن وشاراته

الوسطى بالقوة ، ولكن هذه الخطة أسفرت فقط عن إظهار ضعف مملكة الحيرة وهو الأمر الذي انتهى بسقوطها . وليس من قبيل المصادفة ان يوافق سقوط الحيرة عهد بلوغ مكة مستوى جديدا من الثراء والقوة .

ولعل البيزنطيين كانوا أكثر واقعية في سياستهم العربية . فقد امتنعوا عن القيام بأنفسهم بأي مغامرات عسكرية في شبه الجزيرة العربية . لكنهم شهدوا ـ أو لعلهم شجعوا ـ محاولة الأحباش ، من اتباع مذهبهم الديني ، لفتح اليمن نحو ٥٢٥م ، ومهاجمة مكة بالذات بعد ذلك بقليل ، لتوطيد سيطرتهم على طريق اليمن ـ سورية . وبعد فشل هذه المحاولة اكتفى البيزنطيون بالمناورات الدبلوماسية الهادفة الى مد نفوذهم الى الجنوب ، لاقامة نظام تابع لهم في مكة شبيه بمملكة غسان في جنوب سورية . ولما باءت هذه المحاولة بالاخفاق كانوا سعداء بالتعامل مع مكة لضمان سير تجارتهم .

يصعب التفكير بمكة آنذاك ـ أي قبل الاسلام ـ إلا ضمن إطار التجارة التي أعطتها الكثير من مبررات وجودها . لقد أنشئت أصلاً حول معبد ديني ولغايته ، ولكنها لم تلبث بتزايد الحجيج ، وما يرافقه عادة من مُجْتَلبات أن أضحت حاضرة تجارية . وبوصفها صرحاً دينيا فقد كانت سلامة حياة الزائرين مضمونة . إنما كان يطلب من هؤلاء ان يوقفوا نزاعاتهم طوال مدة إقامتهم فيها . ولضمان سلامتهم في الطريق ، وضع نظام محكم دقيق من أشهر « حُرُمٍ » مقدسة وطقوس دينية بموافقة أبناء القبائل المجاورة . وأدى نجاح هذا النظام الى توسع تجاري آل بدوره الى إنشاء أسواق جديدة . ثم وسعت المنطقة المقدسة أيضاً لتشمل الأسواق التي كانت تقام في الأشهر الحرم بالتوافق مع الحج[1] . هكذا كان الدين في البداية متوافقا مع التجارة ، بحيث كان نجاح أحدهما يؤدي بالتالي الى ازدهار الآخر . وفي مثل هذه الحالة وبرغم وجود آلهة لكل قبيلة خاصة بها ، فقد كان لا بد للحرم المكي ان يحتل مركزاً خاصاً بالنسبة للقبائل المنتفعة بنظام مكة التجاري . وللتدليل على ذلك دأبت القبائل المشتركة في هذا النظام على وضع رموز لآلهتها في الكعبة ، معبد مكة . وكان محتوماً أيضا ان يحتل آلهة مكة مكانة متقدمة في بيت الآلهة هذا . إن « الله » كان أحد آلهة مكة ، ولعله كان أحد أقدم هذه الآلهة ، ولو

الكاملة الشاملة للمصادر، هي بعد تعديل بسيط اساس لهذا التفسير المعروض هنا.

١) اكد. ب. سارجينت على هذه الفكرة بصورة وافية في « الحرم والحوطة، او الأرض المقدسة في شبه الجزيرة العربية » R. B. Serjeant, « *Haram* and Hawtah, *The Sacred Enclave in Arabia* », *Mélanges Taha Hussain*, Cairo, 1962, PP. 41-58

أن آلهة أخرى كانت قد تجاوزته من حيث المكانة في عهد محمد(ص)[1].وفي النصف الأول من القرن السادس كانت مكة مزدهرة ، وكانت تجارتها المحلية تعتمد على مكانتها الدينية ، على أن هذه المكانة نفسها كانت جزءا من نظامها التجاري .

إن التغيير الحقيقي في مكانة مكة حدث مع تحول تجارتها من تجارة محلية الى تجارة دولية . وقد ثبت الآن ان هذا التحول تم على يدي هاشم ، الجد الأعلى للرسول (ص) ، الذي كان يعيش حوالي منتصف القرن السادس . انه أمر رائع لأن يدرك تجار مكة وجود الفراغ الناجم في التجارة الدولية في عصرهم وضرورة الانتقال السريع لملء هذا الفراغ . كان الصراع بين الدولتين الكبيرتين للسيطرة على الطرق والمراكز التجارية في شبه الجزيرة العربية يدخل مرحلة جمود . وكانت مكة ، وهي المركز التجاري الآخذ بالتوسع ، القائم على ملتقى الطرق التجارية الرئيسة ، في وضع ملائم الى أقصى حد للقيام بهذه التجارة . كانت لمكة الخبرة ، والصلات اللازمة لذلك ، كما كان لديها ، فيما يبدو ، فائض من تجارتها الداخلية لتحويله الى الأسواق الخارجية ، وبالتالي ، لتأمين رأس المال الضروري . وكان لمكة ، فوق هذا كله ، نظام قائم يمكن توسيعه بسهولة للقيام بحجم أكبر من التجارة الدولية . وكان هاشم هو الذي وفر الظروف الملائمة لهذا التوسع . فقد ضمن من الامبراطور البيزنطي سلامة مرور تجار مكة وبضاعتهم عند التوجه الى سورية . ولعل الامبراطور كان سعيداً بمنح هذه البراءة ، من غير ان يكلفه ذلك شيئاً ، مما يبشر بتوسيع نفوذه على الأقل لدى الشخصيات القيادية في شبه الجزيرة العربية . ثم حصل هاشم على براءات مماثلة من حكام فارس والحبشة أيضا[2] .

بعدها تحول هاشم الى الجانب الآخر ، الأكثر صعوبة ، وهو الجانب العربي . كانت سلامة قوافل مكة تعتمد على مواقف القبائل المختلفة ، ومنها قبائل لم تكن تسهم في نظام مكة المحلي . فعمد هاشم الى تقديم مشروع لهذه القبائل منحها بموجبه سوقا لانتاجها وكسبا على بضائعها ، دون ان يكلفها ذلك شيئا . كان تجار مكة ينقلون هذه البضائع معهم الى سورية ثم يدفعون لشركائهم عند العودة ما يوازي رأس المال والأرباح التي تستحق لهم مقابل ان يضمن أبناء هذه القبائل سلامة مرور القوافل المكية في مناطقهم. ولعل هذا هو الشكل الأصيل للأيلاف، أو لميثاق السلامة الذي

١) ذكر ابن حبيب في المحبر ص ٣١٢ في حديثه عن اللات انه (كان تلبية من نسك للات : « لبيك اللهم لبيك »).

٢) M. J. Kister, « MECCA and TAMIM », *Journal of Economic and Social History of the Orient*, 1965, PP 166-17

طبق على أوسع نطاق . وقد كانت لهذا الايلاف صيغ أخرى توجب دفع ضريبة أو بدل من قبل القبائل التي كانت تريد الاشتراك بهذه التجارة . وكان هاشم يجمع هذه الأموال ليتمكن من تنظيم قوة لحماية القوافل[١] .

أما بالنسبة للقبائل التي كانت مشتركة بتجارة مكة المحلية ، وهي بالتالي مُقرة بحرمها وأشهرها الحُرُم وملزمة بالدفاع عنها ، فقد كان الأمر أبسط . ان توسيع تجارة مكة يدفعها للمحافظة على هذه الاتفاقيات بشكل أعمق . وتلقب أبناء هذه القبائل بالحُمس وهي كلمة توحي بالشجاعة والانضباط الديني والولاء للحرم . هكذا أعلنت مكة نفسها داراً للحمس وسُميت الكعبة بالحمساء . وكان هذا التحالف او الحمس يضم قريشاً وسكان مكة جميعاً والعديد من القبائل الأخرى التي تسكن مناطق مختلفة من شبه الجزيرة العربية ، ولو لم يكن يربطها رابط النسب القبلي . وكان الأهم من ذلك ان هذه القبائل تسيطر على طرق تجارية كثيرة عبر شبه الجزيرة العربية[٢] . ثم انها كانت تشير الى نفسها على أنها « أهل الله »[٣] .

ولتعزيز أحلاف الحمس منحت قريش القبائل الأخرى نصيبا من السلطة يتناسب مع قوتها وخدماتها « للرابطة المكية » . وقد أثبت كيستر بما لا يقبل الشك اطلاقا وجود علاقة وثيقة بين قريش وعشائر تميم التي كانت « معتبرة من الجسم السياسي في مكة »[٤] . منحت قريش هذه العشائر بعض الأشراف على الاسواق في منطقتها الخاصة ، حتى سلطة القيام بطقوس الحج . وقد تقدم « كيستر » برأي معقول هو أن بعض آل تميم كانوا يسهمون في ميليشيا عسكرية مشتركة لحماية مكة وأسواقها[٥] . ومن الطبيعي ان مثل هذه المساهمة في المسؤولية لا بد ان تستتبعها المقاسمة بأرباح المشروع ككل . ومن المعقول أيضا ان نفترض ان قريشاً اشترطت ان تدفع العشائر المشاركة نصيبها من نفقات المحافظة على النظام . ان هذا التجمع القائم على التساوي تقريباً كان الأساس في بلوغ مكة مستوى جديداً من الثراء والسلطة بالاشتراك مع حلفائها .

---

١) المصدر السابق ص ١١٧ ـ ١٢٠

٢) المصدر السابق ص ١٣٢ ـ ١٣٨

٣) المصدر السابق ص١٣٩ .الأرجح انه لقب خاص بقريش.راجع ثمار القلوب للثعالبي ص ٨ ـ ١٢ (الناشر)

٤) انظر كيستر : مكة وتميم ص ١٣١ حيث المزيد من التفاصيل

٥) المصدر السابق ص ١٤٣

وفي مكة ذاتها أدخل هاشم تدبيراً ثورياً آخر ، وهو ان يعطي الفقراء نصيبا من الأرباح لقاء أعمالهم ، أو لعل ذلك كان لقاء توظيف مبالغ صغيرة من قبل الأقارب الفقراء[1] . وهكذا كان المشروع عملا مشتركا بالتعاون بين جميع المعنيين . وكان من شأن هذا التعاون ، بالاضافة الى هذه الشبكة الدقيقة من التحالفات والاتفاقيات المنظمة تنظيماً دقيقاً ممثلاً، أن أصاب نجاحاً كبيراً وحقق الازدهار لجميع الفرقاء .. والواقع ان هذا النجاح كان كبيراً جدا بحيث لا يمكنه ان يدوم ويصمد امام اشتداد التنافس على نصيب أكبر في هذه التجارة المتزايدة في اتساعها . وفي الوقت الذي برز فيه الرسول (ص) على المسرح كان هنالك في مكة اتجاه لتكديس الثروة بأيدٍ قليلة وحرمان المعوزين . وقد فسر تشكيل الأحلاف المحدودة داخل بطون قريش على أنه كان ، في الواقع ، محاولة لحصر التجارة او لاحتكارها ، هنا او هناك[2] .

وفي خارج مكة كانت البطون المشتركة في الرابطة تتزاحم ايضا على زيادة نصيبها من الأرباح او خفض ما تنوء تحته من أعباء ما تفرضه عليها قريش . ويمكن رد أسباب الكثير من الحروب ، كحرب الفجار مثلا ، الى محاولات بعض العشائر المقيمة على الطرق التجارية لبسط سيطرتها على مناطق تخص عشائر أخرى[3] . يضاف الى هذا ان توسع التجارة شجع على نمو الكثير من المدن ـ الاسواق مما زاد الثروة والسلطة للسكان المستقرين على حساب العشائر البدوية المجاورة ، ونجمت بالتالي حالة توتر بين العشائر المستقرة والعشائر البدوية برغم أنها قد تنتمي الى مجموعة قبلية واحدة[4] . ولا ريب في ان هذا التوتر المتزايد داخل النظام كان يشكل تهديداً للشبكة التجارية . ولا بد ان القرشيين البعيدي النظر أدركوا الأخطار الكامنة في مثل هذا الوضع المتفجر . ومع ذلك فان أحداً لم يتقدم بأي اقتراح لاعادة التوازن الى الحلف او للتحذير من الكارثة المحققة إلا الرسول (ص) . لقد كان هو الوحيد الذي قام بذلك .

---

١) المصدر السابق ص ١٢٣

٢) W- Montgomery Watt, *Muhammad at Mecca*, 1953, P. 15

٣) المصدر السابق ص ١٤ . وم . ج . كيستر « الحيرة » في ARABICA مجلد ١٥ ، ١٩٦٨ ، ص ١٥٤ .

٤) ن اتجاه التجمعات السكنية المستقرة للسيطرة على البدو المجاورين لما لم يكن واضحاً في مكة والمدينة والطائف وحسب ولكن في دومة الجندل والحجر ايضاً . ثم ان ذلك كان هدفا رئيسا واضحاً لمسلمة الحلفي .

لقد كان محمد مشاركاً نشيطاً في هذه التجارة . ولا بد أنه أدرك أن قريشاً ليست الوحيدة في اعتمادها في معيشتها على ازدهار هذه التجارة ، بل يشاركها في ذلك الكثيرون من غير أبناء قريش . فعمد ، تجنباً لخراب تجارة مكة ، الى اقتراح الوسائل الناجعة للمحافظة على هذه التجارة وتعزيزها . وبصفته شريكاً في حلف الحمس لا بد أنه أدرك الخطر الداهم ، فتقدم بأساس أكثر عدالة للمحافظة على هذا الحلف[1] . لقد كانت مكة تتمتع بمركز ديني ممتاز وثيق الصلة بنشاطاتها التجارية . وكل محاولة لاصلاح هذا النظام القائم او الانتقاض عليه لا بد ان يكون موجهاً ضد التجارة والدين معاً . إن اعتقادات الرسول (ص) الدينية وإيمانه المخلص بوحي رسالته السماوية أمور واضحة في ذاتها . ومن وجهة نظر المؤرخ ينبغي تفسير ثورته ومقدرته السياسية وفهمها في ضوء البيئة ، وهي تعني التجارة في مكة. والقيام بدراسة نشاطات الرسول في مكة وشبه الجزيرة العربية بدون أخذ التجارة بعين الاعتبار أشبه بدراسة الكويت أو شبه الجزيرة العربية في الوقت الحاضر بدون الاهتمام بالنفط . لم يقم الرسول في كل ما دعا اليه بتشجيع أنصاره على إهمال شؤونهم الدنيوية . لقد كان يدعوهم الى الاعتدال مذكراً إياهم بوجوب العمل للنجاح في هذه الدنيا بمقدار العمل للخلاص في الآخرة . وليس مما يحتاج الى إثبات ان الاسلام نفسه يشجع على التجارة ويعتبرها مهنة سامية المنزلة . ان الأمر الذي يحتاج الى تحليل هو مخططات الرسول لاستمرار التجارة وازدهارها في عصره .

في البداية صمم الرسول ان يقود ثورة من داخل النظام نفسه . فدعا قريشا بإلحاح الى ضرورة إصلاح أوضاعها . إن الذي يجري في مكة من سعي في سبيل الثروة المفرطة وحرمان الضعفاء وإهمال الفقراء أمور شريرة ضارة . ان خلاص أقاربه القرشيين يتحقق بالعناية بأنسبائهم الفقراء وبالاهتمام بأحوال اليتامى وبالبذل للمعوزين منهم . ان التعاون بين الأغنياء والفقراء هو الأساس في دعوة الرسول (ص) ، كما ان المحبة هي الأساس بالنسبة لدعوة المسيح . واذا ما قام هذا التعاون داخل مكة نفسها ، كان تطبيقه بين أعضاء الرابطة كلهم أمراً سهلا . غير ان هذا يتطلب من أثرياء قريش تضحية معينة لم يرضوا بها . ومع أن أنصاره الأولين كانوا يضمون في صفوفهم بعض الأغنياء ، كعثمان بن عفان مثلا ، فان القلائل في مكة كانوا على استعداد للاصغاء الى نُذُره .

---

1) كيستر : مكة وتميم ص ١٣٩ ، ولا سيما الملحوظتين ٩ و ١٠.

وهكذا كانت محاولته للثورة من داخل النظام مقضيا عليها بالاخفاق . وظل طوال ثلاث عشرة سنة يواصل دعوته لأقاربه القرشيين برغم الصعوبات الكبيرة . وأعقبت ذلك حرب اقتصادية بين مؤيديه والبقية من قريش ، وأعلن خصومه الأغنياء مقاطعة اقتصادية لأبناء عائلته[1] . وأوفد عدداً من أنصاره الى الحبشة لحمايتهم ولانشاء علاقات تجارية مستقلة هناك ، لكن قريشا بادرت الى إحباطها بسرعة .

وأخيراً بدأ الرسول (ص) يبحث عن دعم خارجي يتحدى به مكة . ومما كان له مغزاه انه توجه اول الأمر الى بني ثقيف في الطائف ، وهم شركاء ثانويون في التجارة المكية . ولا بد أنه أدرك ان تعاليمه قد تكون أكثر قبولاً في المجتمعات المستقرة . ومع ذلك فان اختياره ثقيفا كان مثارا للدهشة ، إلا اذا نظرنا اليه على انه محاولة يائسة ، إذ لا يمكن ان يكون قد توقع بصورة جدية من بني ثقيف ان يتحدوا قريشا في سبيله . وانتهت رحلته الى الطائف بأن قاومه غوغاء الناس ورجموه بالحجارة . وفي محاولة أخرى جرب أن يجد دعما له بين بطون القبائل التي قصدت مكة للتجارة أيام الحج ، ولكن تجربته هذه لم تؤتِ ثمارها إذ لم يكن هنالك من يشعر بقوة كافية لتحدي قريش وحلفائها الأقوياء .

وفي هذه الأثناء كانت أوضاع النبي (ص) في مكة تسوء بصورة سريعة حتى أن حياته نفسها باتت في خطر ، فلم يعد أمامه إلا أن يغادر مكة . لقد جاءه الخلاص من المدينة ، وهي جهة كانت غير متوقعة . ولا بد لنا أن نلاحظ ان أهل المدينة لم يكونوا شركاء نشيطين في تجارة مكة او أحلافها . يضاف الى هذا ان للمدينة مشاكلها الخاصة بها . كان سكانها غير متجانسين . وكان التوتر سائداً بين الجماعتين اليهودية وغير الهودية من سكانها . وكان هؤلاء ، أي الأوس والخزرج ، يتنافسون من أجل السيطرة على المدينة ومواردها ، التي كان القسم الأكبر منها في أيدي اليهود . وفي ضوء الصلات الوثيقة بين يهود المدينة والمجموعات اليهودية الأخرى في شبه الجزيرة العربية لا يستبعد وجود شبكة تجارية يهودية هناك في هذا الوقت[2] . ومن شأن هذا انه يفسر غياب أية عمليات كبيرة بين مكة والمدينة .

ومن المؤكد ان أهل المدينة كانوا على اطلاع على الوضع في مكة ، عارفين بوجود

---

١) كانت للمقاطعة وجه اخر وهو افناء أبناء الدعوة الجديدة (الناشر) .

٢) كانت هذه الصلات تمتد شمالا الى اذرعات في سوريا والى نجران على الأقل في الجنوب

مقاومة فيها للنبي . ومع ذلك فقد اختاروا ان يقفوا الموقف الخطر المعادي لمكة . يضاف الى هذا انهم بدعوتهم الرسول (ص) الى المدينة كانوا يبذلون الحماية لقرشي في وجه قريش بالذات . ومما زاد الوضع تعقيداً انهم منحوه مركزاً ممتازاً بقبوله حكماً فيما بينهم .

والواقع ان أقلية صغيرة من أهل المدينة كانت قد اعتنقت الدين الجديد . وقد استطاعت هذه الأقلية ان تقنع أبناء المدينة بتبني نهج يمكن ان ينزل عليهم غضب قبيلة قريش القوية . ثم انه يجب ان نذكر ايضا ان هذه المغامرة لم تقابل بحماسة من قبل اليهود كما ان آخرين قابلوها بالمقاومة العلنية . لذلك نجد أنفسنا مضطرين للبحث عن الدافع الكامن وراء مثل هذا التصرف غير المتوقع من سكان المدينة .

إن العامل الذي كان يهيمن على السياسة العربية آنذاك هو تجارة مكة . ولا مبرر للاعتقاد ان أهل المدينة لم يأخذوا ذلك بعين الاعتبار ، لا سيما ان الأمر يتعلق بمكة بالذات . ومما له مغزاه أيضا أن أهل المدينة لم يستقبلوا الرسول وحده بل قبلوا في صفوفهم نحو سبعين شخصاً من مؤيديه المكيين وتعهدوا بتقديم ما يلزمهم من نفقات . انهم بذلك كانوا يحصلون على الخبرة المكية وعلى قائد سبق له أن أسهم بنشاط في تجارة مكة خلال حقبة من حياته . وقد عرف آنذاك بالأمين . وقد أصاب في مطلع حياته نجاحاً كبيراً عوضه عن حاجته الى رأس المال[1] . يضاف الى هذا أنه كان ذا صلة شخصية بنظام الأحلاف المكية ، جيد الاطلاع على أعماله . ثم ان امكاناته التنظيمية كانت ، بالاضافة الى خبرته التجارية ، صفات لا تقدر بثمن في مكة نفسها[2] . ولا بد ان أهل المدينة قدروا فيه هذه الكفايات واتفقوا معه على انيتمتع في المدينة بسلطة كافية لتنظيم رابطة المدينة . إن المساومات الطويلة الشاقة التي سبقت انتقاله الى المدينة ، بلغت ذروتها أخيراً فيما يدعى « الصحيفة » بحيث وضعت أسس الرابطة الجديدة المعروفة لدينا « بالأمة » . وقد شملت « الأمة » كل مجموعة قبلت التعاون على أساس المشروع الجديد ، كما ان « الصحيفة » بين كل هذه المجموعات في المدينة وكل القرشيين الذين انضموا الى الرسول (ص) في المدينة . ومما له مغزاه الأهم هو أن أعضاء هذه الرابطة الجديدة لم يجبروا على اعتناق الدين الجديد . ان كل ما كان مطلوبا منهم هو القبول بسلطة الرسول . لقد كانوا يألفون قبول سلطة المحكمين كما هو معروف في

---

١) عمل لدى زوجته الأولى خديجة قبل الزواج .

٢) ان الحل الذي اعتمده لقضية نقل الحجر الأسود اشهر من ان تعاد تفاصيله هنا.

التقاليد العربية ، ولكن الرسول(ص) كان يتمتع بمسؤولية تتعدى الحكم في الخلافات الصغيرة . وعلى هذا الأساس طالب الرسول بسلطة اوسع ومنح ما طلبه . واقنع اليهود ، الذين كانوا أكثر اعضاء الأمة ثراءً ، بالانضمام الى الاتفاقية . وقد انضموا اليها ولو بشيء من التحفظ والتردد ، على الأرجح . والأمر الأهم من ذلك هو ان هذه الأمة الجديدة كانت تحتوي أصولا ذاتية للنمو المتواصل ، إذ أنها أبقت المجال مفتوحاً امام أي مجموعة ترضى بهذا الاساس للتعاون وبسلطة الرسول (ص) .

ومع أن « الصحيفة » لم تشر الى أي اتفاقية تجارية لأن ذلك كان مسلماً به من قبل المتعاقدين على الأغلب ، فإنها حددت شروطا تتناول عقد المعاهدات مع المجموعات الخارجية . إن إعلان المدينة حرماً من قبل الرسول (ص) دليل قوي على قيام مركز جديد للتجارة[1] .

كانت قريش تراقب هذه النشاطات الجارية بقرب مكة عن كثب . ولعلها كانت تقبل بها لو ان المنافسين الجدد اقتصروا على الممارسات التجارية المألوفة . كانت مهاجمة القوافل التجارية في شبه الجزيرة العربية خطراً معروفاً ، ومع ان جميع الترتيبات الممكنة كانت تتخذ لتأمين السلامة ، فإن هذا الغزو كان تقليدياً إلا إذا عقدت اتفاقية خاصة مع القبائل المقيمة على الطرق التجارية . لم تكن قد عقدت مثل هذه الاتفاقية بين مكة والمدينة قبل انتقال الرسول (ص) اليها . فكان البدء بمهاجمة القوافل المكية اعلانا منه عن رغبته بالوصول الى مثل هذا الاتفاق كما كانت المهاجمة تهديدا حقيقياً لتجارة مكة وأوضاعها برمتها . وكان المكيون يعلمون ان شروط الرسول لعقد الاتفاق لن تكون مقبولة لديهم ، وسرعان ما تدهور الصراع المحدود الى حرب فعلية . لقد صمم المكيون ان يقضوا على كل ما يهدد قوتهم الاقتصادية لا سيما بعد ان ظهر بسرعة أثر مهاجمة المدينة للطريق التي كانت تؤدي الى أهم أسواق مكة في الشمال .

وأدى هذا الوضع الجديد الى نشوء توتر جديد داخل المدينة وخارجها . واشتد هذاالتوتر داخل « الأمة » التي اقيمت حديثا . اولا : وجد الذين لم يوافقوا على المشروع من البداية ان مواقفهم تعززت باندلاع الحرب مع مكة ، وقد أنزل ذلك ضرراً شديداً بسير التجارة التي كانوا يستهدفون السيطرة عليها . ثانيا : كان الكثيرون من أهل المدينة

---

١) انظر و. مونتغومري وات Mohammad At Medina اوكسفورد ١٩٥٦ ص ٢٢١ - ٢٢٥ لترجمة هذه الشرعة .

غير مقتنعين بقدرتهم على الصمود أمام هجوم عام شامل من قبل المكيين وحلفائهم . ثالثا : رأى يهود المدينة ان انهيار العلاقات مع المكيين لا بد ان يؤثر على التجارة التي تقوم مع حلفاء مكة ، كالطائف مثلا ، حيث كان يقوم مركز تجاري نشيط لليهود[١] .

ومن ناحية أخرى رأى الرسول انه بتعطيل تجارة مكة كان يعزز شبكة التجارة اليهودية من غير عمد . والواقع انه سرعان ما أدرك ان انضمام يهود المدينة الى « الأمة » مناقض لمصالحها الأساسية ، فكان لا بد من فصلهم . ومما له مغزاه ان أول الذاهبين كانوا بني قينقاع الذين كانوا شديدي الصلة بالتجارة في المدينة[٢] . فالتحقوا برفاقهم اليهود في شمالي الحجاز . ولكن التجارة اليهودية لم تتوقف ، ثم انضم اليهود علنا الى أعداء الرسول (ص) .

وإذ شعر بغدر اليهود قام بأعنف عمل في حياته كلها لقطع علاقة هؤلاء بالمدينة نهائياً . أبيد اليهود الذين كانوا قد ظلوا في المدينة وكانت نهايتهم هذه درساً قاسياً لخصومه في المدينة وخارجها .

وفي هذه الأثناء توقفت التجارة المكية وركز المكيون جهودهم على هزيمة الرسول (ص) ليتمكنوا من معاودة تجارتهم بصورة مألوفة . فحركوا حلفاءهم ووجهوا أعظم هجوم لهم على المدينة . وكان فشل هذه المحاولة في معركة الخندق هو النصر الحقيقي للرسول (ص) . وبدأت مكانة مكة تتضاءل ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت قد قبلت بشروط الرسول . إلا أن النبي (ص) نفسه كان يدرك القيمة الكبيرة لصلات المكيين ومهارتهم الخاصة . وكان لا بد من احتلال مكة سلمياً ، وكان لا بد من عدم إذلال المكيين لاستخدام هذه الامكانات لاحياء التجارة المتوقفة . ونجحت محاولاته باستمالة خصوم الأمس بعد ان ضعفوا ثم قبلهم برحابة صدر أعضاء معززين في « الأمة » .

من الأكيد ان استسلام مكة كان نصراً كبيراً للنبي (ص) . لكن هذا النصر لم يكن نهاية مشكلاته . وسرعان ما وجد نفسه في وضع يثير الحرج إذ كان عليه ان يدافع عن

---

١) البلاذري، احمد بن يحي : فتوح البلدان، تحقيق م . ج . دي غوية، لايدن، ١٨٦٦، ص ٥٦

٢) لهذا الصرع راجع م . ج . كيستر M. J. Kister, « The Market of the Prophet », *Journal of Economic and Social History of the Orient*. 1965, PP. 272-6

قريش في وجه اولئك الذين كانوا حلفاءه الأشداء قبل ذلك . وإزاء الذعر الناجم عن سقوط مكة قرر الحلفاء ان يقوموا بجهد أخير لانقاذ أنفسهم ولكن النصر النهائي كان للرسول وللقرشيين ، حلفائه الجدد[1] . وما ان انتشرت أخبار هذا النصر في شبه الجزيرة العربية حتى أخذت الوفود من جميع القبائل القوية تفد الى المدينة لعقد الاتفاقات مع الرسول .وليس من الغريب عند هذا الحد ان نجد ان شروطه صارت أشد قسوة . لم يكن اعتناق الاسلام في البداية شرطاً لازماً للانتساب الى الأمة . اما الآن فان اعتناق الاسلام لم يعد الشرط الوحيد وإنما صار لا بد من دفع ضريبة الزكاة . ولم تكن هذه الضريبة غير إحياء للضريبة القديمة التي كان على بعض القبائل ان تدفعها لقاء الاشتراك في تجارة مكة وكانت قبيلة حنيفة هي القبيلة الهامة الوحيدة التي رفضت الشرطين معا على أنه لم يتخذ أي تدبير بحقها برغم انه كان لها متنبيها الخاص المنافس[2] .

كانت النزاعات التي جرت في شبه الجزيرة العربية قد أدت الى وقف التجارة وقفاً تاماً ، وكان الرسول يشعر انه يجب ان يتخذ التدابير اللازمة لاعادة الحياة اليها . كان عليه الآن ان يقنع الدول الأجنبية أنه يسيطر على الطرق التجارية ويستطيع حمايتها . وعلى هذا الأساس أوفد حملات عبر الطرق الشمالية للتأثير على السلطات البيزنطية وعلى القبائل العربية على الحدود السورية . على أنه لم ينجم شيء خاص عن هذه الحملات قبل وفاة الرسول . ثم ان ادعاء بعض المنافسين النبوة في المناطق الوسطى من شبه الجزيرة العربية وفي اليمن كان في الواقع دليلاً على ان الأمر لم يستقر بعد في المنطقة ، وان احتمال قيام اضطرابات أشد خطورة في المستقبل وارد . ومع أن الرسول (ص) تمكن ، في أقل من عشر سنوات ، من إنشاء الجهاز اللازم لمركز تجاري عظيم يمكن ان يفوق المراكز السابقة في شبه الجزيرة العربية ، فإنه لم يتيسر له الوقت الكافي لقطف ثمار جهوده . ان النظام الذي أوجده والطاقات الجديدة التي أطلقها في شبه الجزيرة العربية كان مقدراً لها ان تصل الى أبعاد كبيرة . فالانكفاء الاقتصادي المحتوم الناجم عن نشاطات النبي (ص) أوجب على العرب ان يستخدموا هذه الطاقات في غزو المناطق المجاورة وان ينشئوا بغير قصد امبراطورية بعد وفاته بزمن غير بعيد .

---

١) Watt, *Muhammad At Mecca*, PP. 70-7

٢) ظلت هذه المجموعة القبلية الكبيرة مصرة على مقاومتها لقريش، لا في حروب الردة وحسب بل حتى عهد ثورة ابن الزبير. انظر الفصلين الثاني والخامس.

لم يدّعِ الرسول في جميع نشاطاته بأنه يأتي بمستحدث[1]،وقد شدد على هذه النقطة تكرارا . وأصرّ على ان الدين الذي دعا اليه كان موجودا بصورة دائمة وأنه لا يختلف عن دين الانبياء السابقين ابتداء من ابراهيم . إنه لم يكن يدعو الى غير العودة الى العمل السليم بمبادىء الحقيقة السرمدية . إن مثل هذه العودة من شأنها ان تؤمن العدالة والخلاص لجميع أتباعه . فالعدالة للجميع ، اذا كانت قائمة على تعاون بين الجميع ، هي خير ضمانة للسلام والازدهار . وليس هذا بالشيء الجديد اذا نظر اليه ضمن إطار القيم البشرية . والحقيقة ان هاشماً كان قد وضع أسس الازدهار المكي على مبادىء من التعاون مماثلة ولو أنها جاءت على مستويات مختلفة بين مختلف فئات المساهمين . ولقد كان هذا الفرق بالذات هو نقطة الضعف الاساسية في الرابطة المكية ، وهو الذي فتح المجال أمام مساوىء أدت في النهاية الى تهديد النظام . ان الشيء الجديد الحقيقي الذي جاء به الرسول هو التطبيق الدقيق لمبادىء التعاون بين جميع أعضاء الرابطة الحديدة (الأمة) في جميع نشاطاتهم . لقد أسس محمد الرسول (ص) دينا يجسد التعاون في جميع معتقداته . أما محمد القائد فقد أنشأ مجتمعاً يقوم على التعاون في ميدان العلاقات البشرية جميعها . مرة أخرى انه لم يكن في هذا التنظيم الاجتماعي شيء جديد أساساً . لقد كان عربياً بكل تأكيد ، مستنداً الى تقاليد عربية ، موضوعاً في قوالب او أشكال تشريعية . ان التجديد الحقيقي في ذلك يكمن بكل بساطة في عبقرية الرسول التنظيمية . انه باستخدام القوالب او الأشكال والتقاليد العربية المقبولة نقل نقاط الثقل فيها بصورة تتيح لمبادئه في التعاون ان تعمل على خير وجه . هكذا ظلت القبيلة أساس الوحدة الاجتماعية ولو أنها كادت ان تذوب كليا ببناء الأمة الفوقي . ان مواثيق الايلاف وأحلاف الحمس بما فيها من مضامين تجارية ودينية طرحت جانباً بازدراء ليحل محلها الاسلام او « السلام الاسلامي » حيث ينتمي جميع الأعضاء الى هيئة واحدة على قدم المساواة . لقد تسلم الرسول نظاماً قائماً وأحدث فيه تعديلات على انه بحسه الرائع بالقيادة والتوجيه لم يغفل هدفه النهائي . لقد كان لتغيراته الدقيقة الدالة على مهارة وحذق تأثير تراكمي بعيد المدى . وليس من شأن هذا ان يفسر انتصار ثورته المعتدلة وحسب ، ان من شأنه ايضا ان يفسر النجاح في نشر دين عالمي ، هو الاسلام .

---

1) « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » الشورى ٤٢ : ١٣).

الفصل الثاني
ظهور أبي بكر

بالرغم من ان الرسول (ص) توفي فجأة بعد فترة مرض قصيرة نسبيا ، فإن صحته كانت قد أخذت تسوء بصورة ملحوظة في الأشهر الثلاثة الأخيرة . كان في الثالثة والستين من عمره ، وقد أصبح رجلاً مسناً بمقاييس عصره . وكان يعلم ان النهاية اصبحت قريبة .ومع ذلك فانه لم يصدر أي تصريح بشأن كيفية استمرار الأمة من بعده . وليس للمرء إلا ان يستنتج ان الرسول قصد ان يحل أتباعه بأنفسهم قضية خلافته ،اذا كان لا بد ان يأتي بعده من يخلفه . ومثل هذا القصد ينسجم تمام الانسجام مع فهمه العميق لعصره ، وهو النهج العلمي الوحيد الذي كان يمكن ان ينهجه .

ويبدو انه كان ، في عرف سكان المدينة ، رجلان يمكن لكل منها ان يتولى الخلافة وهما علي بن ابي طالب بسبب قرابته من الرسول (ص) وعمر بن الخطاب . ولكن كفة ابو بكر رجحت في الأخير .

لقد نشأت سلطة الرسول التي لا سابقة لها بصورة تدريجية . وكان نجاحه في المدينة هو العامل الأساسي في بلوغه مكانة القائد الذي لا ينازعه فيها منازع . فقد كان لدى وصوله الى المدينة أكثر قليلاً من قائد لمجموعة من مهاجرين مكيين كانوا الى حد بعيد دون أبناء المدينة عدداً . ثم إن نبوته لم تعترف بها أكثرية المدينة ، أما سلطته كحكم ومنظم فكانت مقبولة من قبل هذه الأكثرية . وإنه لمن قبيل التقدير لصفاته القيادية أنه استطاع استخدام سلطاته المحدودة في هذه الوظائف المتنوعة للوصول بها جميعها مجتمعة الى المهمة الكبرى . ولما تم أخيراً الاعتراف به نبياً من قبل الجميع تحقق الاعتراف به قائداً من قبلهم. على ان قيادته كانت، ككل شيء آخر في سيرته، عربية في طبيعتها بالرغم من عالمية الدعوة[1] . لقد كانت عميقة الجذور في التقليد العربي من

---

١) « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً » (سبأ ٣٤: ٢٨) .

حيث ان القادة كانوا يبرزون وينالون الاعتراف بهم عند إثبات إمكاناتهم . فقد برز ابو سفيان قائداً لمكة في وجه الرسول (ص) بفعل هذا التقليد ، من غير ان تكون له فيها أية وظيفة خاصة . ومن الخطأ ان تنسب للقادة العرب في ذلك العصر أية سلطة حقيقية على اتباعهم . ان المجتمع العربي آنذاك لم يكن قائماً على الخضوع لسلطة اوتوقراطية ، بل على العكس من ذلك ، كان فردياً في طبيعته الى درجة عالية . في مثل هذه الاوضاع كانت سلطة القائد تستند الى الاقناع الى الأمر والسلطة . وطبيعي ان تدعم الصلاحيات الدينية سلطة محمد القائد الى حد كبير . لقد أوضح النبي دون أدنى ريب انه لن يكون له خلف كنبي ، لكنه ترك الباب مفتوحاً أمام بروز قائد جديد بحسب التقليد العربي السليم . ومن شأن هذا ان يثبت بعد نظره ، وأن يدعم أيضا حقيقة فهم اتباعه لدرس تطبيق التقليد العربي على ظروفهم الجديدة . اننا لا نعلم ما إذا كان القادة قد بحثوا ما ينبغي ان يفعلوه بعدوفاة النبي (ص) . اما اذا كانوا قد فعلوا ذلك ، وهو أمر محتمل ، فان قرارهم لا يمكن ان يكون غير التأكيد على إيمانهم بتقليدهم وعلى الاقتناع بأن القضية ستجد لها حلا عندما تأتي اللحظة الحرجة . ومن ناحية أخرى لا بد للمرء إلا ان يذكر ان الاسلام كان لا يزال حديثاً جداً ، بعيداً عن ان يكون قد ترسخ . إن زعماء هذه الفترة جميعاً يستطيعون ان يتذكروا العصر السابق للاسلام . ثم ان العودة الى النظم السابقة كانت لا تزال محتملة جدا . ان شبكة السلطة السابقة للاسلام في المدينة وفي الأمكنة الأخرى لم تكن قد أزيلت . والذي حدث هو ان سلطة ناشئة جديدة ، فوق السلطة القبلية ، قد أضيفت اليها . في هذا الوقت كانت قد ظهرت دلائل تشير الى ان بعض القبائل الداخلة في رابطة المدينة قد أخذت تتململ وتحاول استعادة حريتها في التصرف . كذلك لم يكن هنالك أي سبب يمنع ان تحكم مكة ثانية من قبل ملأها أو مجلس قادة بطونها القبلية . وفوق هذا فإنه كان يمكن للمدينة نفسها ان تعود الى حال الحرب القبلية الداخلية التي تمكّن الرسول من السيطرة عليها .

من الواضح ان بطون الخزرج في المدينة كانت تعي هذا الاحتمال اذ انها عقدت بعد التأكد من وفاة الرسول اجتماعاً لتقرير أمر القيادة . ولعلها كانت تريد ترشيح زعيمها سعد بن عبادة[1] قائدا لنظام تتزعمه المدينة . كان هذا الاجتماع يشكل تهديدا

---

1) كان سعد هذا هو القائد الوحيد الذي رفض باصرار قيادة ابي بكر وعمر بن الخطاب ثم غادر المدينة في اول مناسبة سنحت له الى سورية حيث قضى نحبه . ومما له مغزاه ان ابنه قيسا كان آخر من ترك القتال في سبيل علي بعد مرور اكثر من ربع قرن .

خطيراً لوحدة المدينة نفسها إذ أنه كان يمكن ان يثير النزاعات من جديد بين الخزرج والأوس ، زملائهم في المدينة . زد على هذا انه جاء دليلاً على ريبة طبيعية معقولة من قبل أهل المدينة بالقرشيين ، مما قد يشكل خطراً على تماسك الأمة أيضاً .

وأثار هذا الوضع ذعراً في صفوف الأمة الاسلامية في المدينة حتى أن قضية الخلافة سويت يوم وفاة الرسول (ص) بالذات وأعطيت الأسبقية حتى على دفنه . لقد جاء اجتماع الخزرج السريع إنذارا واضحاً الى ما يمكن ان تؤول اليه الأمة لو انها فقدت تلك القوة القيادية فوق القبلية التي منحها إياها الرسول . وقد أدى هذا على الفور الى تقرير قضية طبيعة الخلافة ولم يبق غير تحديد اسم الشخص الذي يخلفه ، إذ انحصرت القضية في إيجاد الشخص الذي يكون مقبولا لدى جميع الفرقاء . ومن الواضح ان القائد الجديد للأمة لا يمكن ان يكون من القبائل المتحالفة ولا من المدينة ، بسبب التنافس بين الأوس والخزرج . كذلك لا يمكن اعتماد العادة العربية المألوفة القائمة على القبول ببروز أهم فرد في أهم بيت كقائد للأمة لأن ذلك منافٍ لطبيعة فكرة القيادة فوق القبلية . والى جانب هذا ، من كان يستطيع تسمية البيت القائد في هذا الوقت ؟ كان من السابق لأوانه تطبيق مبدأ البيت الأهم على عائلة الرسول (ص) . يضاف اليه ان علياً (رض) وهو في أوائل الثلاثينات ، كان لا يزال صغير السن لحمل المسؤولية . أما العضو الوحيد الآخر المحتمل فهو العباس عم الرسول ، لكنه كان قريب العهد باعتناق لاسلام . ان تطبيق مبدأ البيت القرشي الأول لا بد ان يعني اختيار ابي سفيان وهو الذي كان الى عهد قريب العدو الأول .

وأخيراً برز ابو بكر مرشحاً مقبولا بصورة عامة . لقد كان هذا الاختيار هو الأمثل لعدة أسباب . فقد كان قرشياً لكن البطن الذي ينتمي اليه في قريش غير بارز . والأهم من كل شيء آخر هو أنه كان أقرب الصحابة الى الرسول وأدرى الناس جميعاً بنمط تفكيره . يضاف الى ذلك انه كان نسابة خبيرا وهي معرفة ستكون مفيدة سياسيا في فترة الردة حين كانت معرفة الصلات القبلية المتشابكة أمراً حيوياً . كان جازماً وحاسماً ولكنه كان ، الى جانب ذلك ، ليناً وصادقاً في طريقته . ويدل على ذلك انه كان يعرف بكنيته (الصديق) بصورة دائمة . وقد أثبت اختياره للقيادة ما كانت الأمة تتمتع به من حاسة سياسية رائعة . كما ان السرعةالتي تم بها هذا الاختيار دليل قوي على العزم على التماسك ومواصلة العمل الذي بدأ به الرسول (ص) . لقد وقع عليه الاختيار

للمحافظة على وضع قائم ، وللاحتفاظ بالمكاسب التي حققها الرسول والسير بها حتى تحقيق النتيجة المرجوة .

ينبغي أن لا نبالغ بصلاحيات أبي بكر بصفته خليفة لرسول الله . ان هذا اللقب بالذات هو من الغموض بحيث ان تحديده يستعصي على اللغويين الاختصاصيين . وهذا هو بالضبط سبب اعتماده[1] . ليس بوسع أي انسان ان يحدد بالضبط موجزاً للصلاحيات التي تعطى لحامل هذا المنصب ليتمكن من القيام بمسؤولياته . كان الشعور السائد ان التجربة وحدها هي التي يمكن ان تقرر مداها . على انه لا بد من التوضيح بأنه لم يكن من المعقول ان يتمتع أي انسان عادي بصلاحيات كصلاحيات الرسول (ص) . وهكذا فانه لا يمكن ان يكون للرسول خليفة حقيقي لأنه لا يمكن لأي رجل آخر ان يحظى بالموافقة السماوية ذاتها على كل عمل وقرار . لذلك لم يكن ابو بكر يتمتع بأي سلطة دينية . ثم ان سلطته الزمنية كقائد بقيت ، وفقاً للتقليد العربي الصحيح ، محصورة في حدها الأدنى . فهو لم يكن يملك من الصلاحيات إلا ما كان ضرورياً للمحافظة على الأمة . كما ان أعماله لم تكن تكتسب الشرعية إلا باتباع الأصول القرآنية ونهج السنة ، اي القدوة التي وضعها الرسول في حياته . وعلى هذا الأساس يمكن للمرء ان يدرك مدى حدود سلطة أبي بكر الخليفة . إن بروزه كقائد جاء قراراً اتخذته الأمة في هذه المناسبة بالذات امام أزمة كبرى في ضوء التقليد العربي المقبول . ان هذا القرار ينبغي ألا يعتبر على انه تأسيس للخلافة كمؤسسة دائمة . الواقع ان أبا بكر ظل طوال ستة اشهر خليفة لبعض وقته فقط بينما استمر يقوم بالأعمال التجارية الى جانب ذلك . لقد كان عليه ان يحلب شياه جيرانه لتوفير دخل كافٍ له قبل ان أدركت الأمة انها بحاجة الى قائد يصرف وقته كله لشؤونها . عند ذاك فقط صرف له من بيت مال الأمة مبلغ كافٍ لمعيشته ومعيشة عائلته فقط[2] . وليس أدلّ من هذا على سلطته الزمنية المحدودة .

والواقع ان الأمة كانت بحاجة الى جميع الطاقات التي تستطيع ان تحشدها ، لا الى

---

١) ان اوضح تعريف للخليفة هو « ذلك الذي يخلف انساناً آخر في قضية ما » انظر: و. مونتغومري وات *Islamic Political Thought* (الفكر السياسي الاسلامي) ادنبره، ١٩٦٨ ص ٣٢.

٢) محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق م. ج. دي غويه وغيره، لايدن، ١٨٧٩ - ١٩٠١، جزء ١، ص ٢١٤٢ - ٠٣ وعز الدين بن الأثير: الكامل في التاريخ تحقيق سي. ج. تورينبرغ، لايدن، ١٨٦٦ - ٧١، جزء ٢، ص ٣٢٥.

طاقات قائدها وحسب ، لمواجهة خطر رئيسي كان يتهدد النظام . لم تكن الجزيرة العربية كلها قد توحدت بصورة فعالة ضمن إطار الأمة عند وفاة الرسول (ص) . ولم يكن سراً أن أنبياء منافقين كانوا قد ظهروا أثناء السنوات الأخيرة من حياة النبي في أنحاء الجزيرة الجنوبية والوسطى . وقد رأوا في وفاة الرسول إيذاناً بنهاية نظامه . وسواء كانت قبائلهم متحالفة مع المدينة أم غير متحالفة معها ، فان هذا الوقت هو وقت الانتفاض على ما اعتبروه سيادة المدينة أو خطرها . لقد كان الأثر المباشر لنشاطات النبي تعطيلاً تاماً لتجارتهم وحرماناً لهم من مصدر دخل هام . وأما بالنسبة للقبائل المتحالفة مع المدينة فان الوضع كان يشكل عبئاً اضافياً عليها لأنها كانت ملزمة بدفع الزكاة الصدقة من غير ان تحصل بالمقابل على شيء .

لذلك انضمت الغالبية العظمى من أبناء القبائل في شبه الجزيرة العربية الى الأنبياء المنافقين المتعددين لمقاومة الاسلام ، وانفصلت عن حلف المدينة . وفي قلب شبه الجزيرة العربية قامت حنيفة ، وهي مجموعة قبلية كبيرة لم تنضم أبداً الى حلف المدينة ، بقيادة البطون المجاورة لها . وكان لها نبيها مسيلمة المدعو بالكذاب وهو الذي استهدف فيما يبدو ان ينشىء رابطة في اليمامة[1] . لقد كانت الانتاجية الزراعية لهذه المنطقة مرتفعة ، كما أن سوقها الرئيسية كانت مكة قبل ان خضعت هذه لسيطرة الرسول (ص) . ثم ان موقعها متوسط بين الشرق والغرب ولذلك أصيبت بخسارة كبيرة من جراء وقف النشاطات التجارية . وكانت قوة مسيلمة الرئيسة ـ او لعلها نقطة الضعف الرئيسة عنده ايضا ـ انه حاول إنشاء رابطة[2] بقيادة المجتمعات الحضرية المستقرة في أنحاء شبه الجزيرة العربية الوسطى للسيطرة على البدو الرحل الذين يحيطون بها . لكن هذا الخصم الماثل من البدو كان يعيش في رقعة شديدة الاتساع ، كما كان كثير التشابك بالسياسات القبلية العربية ، شرقاً وغرباً ، مما حال دون سيطرته عليهم . ان الكثير من هذه القبائل كان يتردد في إظهار التأييد العلني لمسيلمة في وجه قوة ابي بكر ، ذات الطاقة الكامنة التي كانت أكبر من ان تطيق مواجهتها ، او كان لا يرى فائدة في ذلك[3] . ثم

---

١) الطبري ، ١ ص ١٩٣٠ ـ ٢٠ ووات: محمد في المدينة، ص ١٣٦ . ودايل ف. ايكلمان « مسيلمة »، Journal of Economic and Social History of the Orient، ١٩٦٧، ص ١٧ ـ ٥٢، حيث يعالج الكاتب هذه الحركة من وجهة نظر انثروبولوجية اجتماعية ومن وجهة نظر المؤرخ ايضا.

٢) الطبري، ١، ١٩٣٠ ـ ٤ وايكلمان، مسيلمة، ص ٤٢ .

٣) الطبري، ١ ص ١٨٧١، ١٨٨٩، ١٩١١، ١٩٦٣، ١٩٧٠ وابن الأثير الكامل، جزء ٢ ص ٢٥٩، ٢٦٤

ان بعض هذه القبائل المتنقلة كان لها أنبياؤها كطليحة الأسدي . والظاهر أنها لم تجد مصلحة مشتركة بينها وبين حنيفة ، كما يتضح ذلك من عدم التنسيق فيما بينها لمواجهة المدينة برغم التجاور في المساكن .

أما في اليمن وفي جنوب شبه الجزيرة العربية فكانت الاوضاع ، على خطورتها ، أفضل حالاً من المدينة . ولهذا مغزاه أيضا . فقد قامت في اليمن ذات الحضارة القديمة ، ما يمكن وصفه بنهضة وطنية تقريباً . وكانت هذه النهضة بقيادة نبي آخر كذاب ، هو الأسود العنسي الذي بدأ حركته بالفعل في السنوات الأخيرة من حياة النبي . ولعله فكر انه ليس ما يحول دون ان تستعيد اليمن استقلالها الكامل بعد خروجها من منطقة النفوذ الفارسي . ولا بد ان انصاره كانوا ينتمون الى مجتمعات اليمن الزراعية ، ولكن كان هنالك انشقاق أكيد في البلاد . فقد وقف عدد كبير من بطون القبائل يعارض حركة الأسود علناً ويؤيد نظام المدينة بقوة . ولا يمكن ان يكون هؤلاء إلا من القبائل اليمنية التي تهتم بالتجارة بالدرجة الأولى . وقد كانوا على استعداد لمحاربة أبناء بلادهم لفتح الطريق التجارية مجدداً مع الشمال . ولا بد أنهم أدركوا ان إعادة الحياة الى الشريان التجاري غير ممكنة بدون تأييد المدينة . ثم ان كلفة ذلك لن تكون كبيرة حقاً . ومما له دلالته ان الأشعث بن قيس الكندي ، أحد قادة العصاة كان يملك أرضاً زراعية واسعة في حضرموت في حين أن أبا موسى الأشعري الذي اعتنق الاسلام منذ عهد باكر وظل على ولائه له ، كان بكل تأكيد تقريباً وكيلاً يمينياً مقيماً في مكة قبل الاسلام، وواصل اشتغاله بالتجارة فيما بعد اثناء الفتوح حين كان قائداً وحاكماً نشيطاً في البصرة[1] .

وفي المدينة نفسها كان ابو بكر قد صمم على تنفيذ مخطط الرسول (ص) لنجاح دولة المدينة في النهاية . ووقف أهل المدينة الى جانبه موحدين . ومما يثير الدهشة انه كان يحظى بدعم ثابت من مكة والطائف ايضا[2] . إن أشرس أعداء الرسول (ص) لم يحاولوا استغلال الوضع الناجم بعد وفاته وإنما تحولوا الى أشد المؤيدين لنظام المدينة . طبعا لقد كان جميع هؤلاء ممن أسلموا حديثا ، ولا يمكن للمرء ان ينكر وجود حالات

---

١) الطبري، ١، ص ١٩٩٤، ١٩٩٦، ٢٠٠٤ . انظر ايضا ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة تحقيق ت. ج. جونبول وب. ف. ماتيس، لايدن، ١٨٥١، جزء ١، ص ١٤٢. وانظر وات، محمد في المدينة، ص ١١٧ - ١٣٠ لأجل تفاصيل تفسير آخر.

٢) ابن الأثير، الكامل، جزء ٢ ص ٢٥٩.

فردية يكون فيها اندفاع المؤمن الجديد هو الباعث الأول على الدفاع عن الدين الذي اعتنقه . ولكن الأمر الأكثر احتمالا هو انهم منحوا تأييدهم الاجماعي الصادق دعما لمصالحهم الخاصة . لقد أدركوا بعد ضياع شبكتهم التجارية الخاصة بهم انهم أصبحوا مرتبطين أوثق الارتباط بنظام المدينة . فهم اذا شاؤوا استعادة ازدهارهم فلاخيار لهم إلا القتال في سبيل نجاحه النهائي الذي كاد ان يكون قاب قوسين أو أدنى .

في هذه المرحلة كان سكان المدينة ومكة والطائف وبعض أبناء القبائل البدوية بجوارها خاضعين لقيادة أبي بكر . أما بقية أبناء قبائل الحجاز فكانت منقسمة بين اولئك الذين يتربصون منتظرين وأولئك الذين يعارضون علنا[1] . وكانت هذه المواقف تمثل الى حد ما ، أقصى حالات التوتر بين العناصر الحضرية المستقرة والعناصر البدوية في شبه الجزيرة العربية . لقد رأى البدو ان نظام المدينة ليس غير محاولة جديدة للسيطرة عليهم من قبل المجتمعات المستقرة ، ولذلك حاولوا التخلص من هذا النظام في أول فرصة . ولم يكونوا يكتفون بالانفصال عنه وحسب ولكنهم كانوا يهدفون الى تحطيمه كلياً . لقد حاول البدو الذين يحيطون بالمدينة ان يهاجموا أهل المدينة أنفسهم ، ولم يتمكن هؤلاء من صدهم إلا بعد مشقة[2] . والواقع ان أهل المدينة كانوا في وضع خطر جداً لأن غالبية قواتهم كانت تقوم بحملة في الشمال . لقد كان أبو بكر مصمما على تنفيذ مخططات الرسول (ص) حتى النهاية ، ولذلك بادر الى إرسال حملة كان الرسول قد أعدها وخطط لها قبل وفاته عبر الطريق الشمالية لتنفيذ سياسته الهادفة الى التأثير على القبائل المقيمة على الحدود البيزنطية وعلى أسيادهم . وقد نفذ ابو بكر ذلك رغم معارضة مستشاريه ، متجاهلا ، بشجاعة ، الأخطار المحدقة ، مصرّاً على إرسال الحملة عام ٦٣٣م/١١هـ . لقد كانت هذه الخطوة مغامرة كبيرة إلا أنها كانت ذات أهمية سياسية لا تحد . لقد كانت تعبيرا قوياً على ان نظام المدينة له من القوة أكثر مما يكفيه لمواجهة أعدائه جميعاً . يضاف الى ذلك أنها أكدت لجميع المعنيين بأن السعي لاستئناف التجارة هو أحد الأسس الأولية الملحة في سياسة أبي بكر . فقد كان هذا التدبير في هذه الحالة مغامرة مدروسة إلا أنه كان يعبر عن حكمة سياسية كبيرة . اما من الناحية العسكرية فلم تكن له أية قيمة وقد عادت الحملة الى المدينة بعد فترة تفوق الشهر قليلا .

---

١) الطبري، ١، ص ١٨٧١، ١٨٨٧، ١٩٠٥.
٢) المصدر السابق ص ١٨٧٢ ـ ٤

إن هذاالتصميم الذي لا مثيل له من جانب ابي بكر هو الذي حول الوضع الخطر في المدينة الى نصر سريع . ثم انه استفاد ايضا من ان العصاة لم يحاولوا القيام بعمل مشترك مركز ضد المدينة . وبعد النجاح في الدفاع عن المدينة لم يُضِعْ أبو بكر وقتا في اتخاذ المبادرة لمهاجمة خصومه . فعبأ كل قواته ووجهها في حملات في جميع الاتجاهات . وكانت هذه القوات مشكلة بالأساس من أبناء مكة والمدينة والطائف بالاضافة الى بعض القبائل المجاورة[١] . وليس من قبيل الاتفاق ان نجد في مصادرنا الأولى إشارات الى هذه القوات على أنها من أهل القرى ، أي سكان القرى ، او المجتمعات المستقرة ، وأن بعض خصومها من حنيفة يشار اليهم بتعبير مماثل في المصادر نفسها[٢] . وتشير التقاليد اللاحقة الى أهل القرى هؤلاء على أنهم « قراء » وهي اشتقاق آخر من جذر « قري »[٣] . وقد أدى هذا الفرق الصرفي البسيط الى الكثير من سوء فهم طبيعة المجموعات المعنية لأن كلمة « قراء » فسرت خطأ على أنها تعني قارئي القرآن[٤] . في هذه الحالة جاء التأكيد في مصادرنا على « أهل القرى » يستهدف لفت انتباهنا الى ان هجوم المدينة على حنيفة كان هجوماً من نوع آخر ، من حيث انه كان صراعاً بين مجموعتين حضريتين مستقرتين . وبكلام آخر كان هذا القتال في الحقيقة قائما بين جامعة المدينة ومنافستها الجامعة الأخرى التي كانت محاولة لتكوينها تجري في اليمامة . اما التوتر الطاغي بين العناصر المستقرة والبدوية فكان في الدرجة الثانية من الأهمية في هذه الحالة الخاصة .

أصيبت حملات الردة المشهورة ببعض الهزائم الصغيرة لكنها سرعان ما حققت نجاحاً كبيراً بعيد المدى ، وأدى نجاحها الى إمالة الكفة لصالح نظام المدينة . ثم ان القبائل التي بقيت متربصة ولم تؤيد المرتدين علنا ، انضمت الى صفوف أهل النظام ، وسرعان ما جندت لقتال العصاة[٥] . اما أولئك الذين أخضعوا بالقتال فلم يكونوا مأمونين الى درجة كافية لاستخدامهم في محاربة بقية العصاة[٦] . وقبل مرور سنة على

١) المصدر السابق ص ١٨٨٧ ، ١٩٢٣ ، ١٩٣٠
٢) المصدر السابق ص ١٩٤٦ ، ١٩٤٧
٣) البلاذري ، الفتوح ، ص ٨٨
٤) انظر الفصل التالي .
٥) الطبري ، ١ ، ١٩٦٢ ـ ٨٠
٦) المصدر السابق ص ٢٥ ، ٢٢

وفاة الرسول كانت غالبية القبائل المرتدة قد هزمت . وبسرعة أيضا أخضعت المدينه تلك القبائل التي لم تكن قد أسلمت من قبل ، وأهمها قبيلة حنيفة في بلاد العرب الوسطى بعد ان هزمت في معركة عقرباء عام ٦٣٣م/١١هـ . من المؤكد ان ذلك كان تجاوزاً لمهمة المحافظة على الوضع الراهن غير انه لم يكن يسهل على أبي بكر ان يتجاهل الخطر الذي تمثله حنيفة على مخططات رابطة المدينة التجارية . يضاف الى ذلك انه كانت لخالد بن الوليد علاقته بالموضوع .

كان خالد الذي حقق النصر في معركة عقرباء هو القائد الرئيسي في حروب الردة في بلاد العرب الوسطى . وهو الذي استطاع بعبقريته العسكرية ان يحقق لقريش نصرها الوحيد على النبي في معركة الأحد عام ٦٢٥م/٣ هـ . ثم انه صاحب مكانة هامة في مكة وعضو بارز في بني مخزوم ، أحد أقوى بطون قريش . إن أعماله كلها تشير الى استقلال قوي في التفكير والى اندفاع كبير الى حد التهور . فهو لم يتقيد بدقة بتعليمات أبي بكر في حملته على المرتدين وإنما عمد الى هزيمة كل من واجهه[١] ، وفي مصادرنا ذكر للعديد من بطون من بني أسد وغطفان وغزارة وطيء وتميم ومعظمها من القبائل الرحل . ثم تحول بعد ذلك الى بني حنيفة واحتل ديارهم . لقد جعلته معركة عقرباء قائداً كبيراً على رأس جيش ظافر على مقربة كبيرة من امبراطورية الساسانيين الغنية . وكان يعلم ان بني شيبان المسلمين الذين لم يشتركوا في حروب الردة كانوا يقومون بغارات على المناطق المتاخمة في العراق الخاضع للساسانيين. لقد كانوا يقومون بهذه الغارات من تلقاء أنفسهم بدون أوامر من المدينة[٢] . وهنا كان الاغراء شديداً لخالد لينضم اليهم . وليس من الواضح ما اذا كان قد حصل على موافقة أبي بكر ، على ان رجلا كخالد لم يكن يهتم بطلب الموافقة ، او لعله تجاهل أي اعتراض من جانب أبي بكر[٣] . وعلى كل حال فان القائد الكبير خالد المخزومي لم يكن ليبدي في هذه الحالة اي احترام كبير لأبي بكر وهو من بني تميم . ليس أبو بكر غير خليفة في المدينة ، وهو فوق ذلك من بطن أقل منزلة . ودعا خالد رجاله للانضمام اليه في هذه الحملة غير انه سمح لمن لم يرد الانضمام اليه ، بالعودة الى المنزل. ولا ريب ان الذين انضموا كانوا

---

١) المصدر السابق ص ١٩٢٢

٢) البلاذري، الفتوح، ص ٢٤١

٣) المصدر السابق ص ٢٤٢ والطبري، ١ ص ٢٠١٦ .

مدفوعين برغبتهم بالحصول على غنائم يستولون عليها في دولة بني ساسان . ومثل هذه الغارات العربية على الأراضي الساسانية كانت مألوفة قبل الاسلام وقد استمرت بعده . والواقع انها صارت الآن ضرورة اقتصادية لا بسبب التزايد السكاني في شبه الجزيرة العربية ولكن لأن التجارة توقفت بعد حروب الردة .

ومن المؤكد ان أبا بكر القائد كان واعياً لهذه الحقيقة وللركود الاقتصادي العام . فلم يكن أمامه على كل حال غير التسليم بالحل الاندفاعي الذي يعتمده خالد بانتظار ما يجد[1] . وسرعان ما أخذ أبو بكر يدرك ان ذلك هو الحل المثالي ، إن لم يكن الحل الوحيد . فبعد حروب استمرت عقدا في شبه الجزيرة العربية توقفت التجارة كليا ولم تكن هنالك أية دلائل تشير الى قرب استئنافها . واذا كان نظام المدينة يريد ابقاء وتعزيز سيطرته على مؤيديه ، فلا بد له من إيجاد مصدر جديد للدخل للتعويض به عن خسارة التجارة ، لا سيما وقد كان هو نفسه المسؤول عن هذه الخسارة . وعلى سبيل المكافأة تقريبا أعدت في عام ٦٣٤م . /١٣هـ حملة من الذين وقفوا بحزم بجانب النظام في أحرج اوقاته ، مكونة من أبناء مكة والمدينة والطائف . وانضم الى الحملة ايضا أبناء البطون اليمانية التي دافعت عن النظام في وجه خصومه من أبناء اليمن[2] . واستثني أعداء المدينة في هذه الحروب وحرموا من المكاسب المنتظرة . وكانت هذه الحملة بقيادة قرشيين كعمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان اللذين كانا يعرفان ميدان القتال بسبب نشاطاتهما التجارية السالفة . وخلافاً للحملة السابقة في هذا الاتجاه ، كانت الحملة الجديدة تستهدف البيزنطيين في جنوب فلسطين . ولما كانت هذه الحملة مؤلفة من أربع فصائل منفصلة تعمل كل واحدة منها في اتجاه معين ، فقد دل ذلك على أنها لم تكن تستهدف مواجهة عسكرية رئيسة مع القوات البيزنطية بل الحصول على القدر الأكبر من الغنائم[3] .

ولا بد ان العرب أخطأوا الحكم على حقيقة الأوضاع في الامبراطورية البيزنطية ، أو لا بد انهم ظنوها ، على الأقل ، لا تختلف عنها في الامبراطورية الساسانية المنهارة . غير ان البيزنطيين كانوا افضل اطلاعا على الأحداث الجارية في شبه الجزيرة العربية ولا

---

١) الطبري، ١، ص ٢٠٣٦، ٢٠٤١ ـ ٢
٢) المصدر السابق ص ٢٠٠٤ ـ ٥ والبلاذري، الفتوح، ص ١٠٧
٣) الطبري، ص، ٢٠٨٥ ـ ٧و ٢١٠٧ ـ ١٨ والبلاذري، الفتوح، ص ١٠٨ .

بد ان خسارتهم التجارية زادت إدراكهم للخطر الناجم عن تصاعد قوة المدينة . ثم ان الحملات الاسلامية المتتالية على الحدود كانت تهديداً واضحاً متزايداً لسلامة امبراطوريتهم . إن حكومة جيدة التنظيم ، كحكومتهم التي خاضت حربا شرسة ضد الساسانيين (٦١٤ ـ ٢٨ ب.م.) لا يمكنها ان تهمل شأناً كسلامة الحدود . ومن المؤكد ان خبر وفاة الرسول وانتشار الحرب في شبه الجزيرة العربية بالتالي عزّزا مخاوفهم . ثم ان هذا الوضع لا بدّ ان شجعهم على توقع بعض النفع فيما لو تدخلوا . ولذلك فان الجيش العربي عند وصوله الى فلسطين كان يواجه عدوا يقظا على استعداد للمعركة .

ومع ان العرب حققوا انتصارا ثانوياً على قوة بيزنطية صغيرة فانهم سرعان ما وجدوا انهم لا بد لهم من بخوض معركة حامية ضد جيش نظامي منظم . وعلى الفور طلبوا نجدات من أبي بكر . ولكنه لم تكن لديه قوات جاهزة لأنه كان لا يزال مصرا على سياسة استثناء القبائل التي كانت قد ارتدت . وكان البديل الوحيد لذلك هو اعتماد خالد وقواته التي كانت لا تزال تواصل حملاتها الخاطفة في العراق . لم تكن هذه الغارات تواجه أي مقاومة ولم يكن لها أي مغزى سياسي . اما منافعها المادية فكانت ذات أهمية للمساهمين بها ولأبي بكر الذي كان يتلقى خمس الغنائم حين الحصول عليها (لبيت المال) . على أن الحالة الطارئة في فلسطين فرضت على أبي بكر ان يأمر خالدا بالتوجه الى رفاقه المسلمين المحاصرين في فلسطين على رأس أكبر عدد ممكن من رجاله . وقام خالد بذلك ، في زحفه الشهير الشاق عبر الصحراء السورية خلال خمسة أيام[١] . وفي هذه الاثناء كانت القوات العربية قد تجمعت معا حتى ان خالدا لما التحق بها تسلم قيادة جيش موحد . ومما هو طريف ان هذا التعيين لم يكن بموافقة ابي بكر وإنما فرضته قدرة خالد العسكرية[٢] . كان عدد قواته الموحدة نحو ٢٤,٠٠٠ جندي هم كل ما يملكه نظام المدينة في هذه المرحلة . والمحتمل ، فيما يظهر ، ان القوات البيزنطية في فلسطين ، وهي من المرتزقة العرب والأرمن في الغالب ، لم تكن تزيد على القوات المواجهة لها زيادة كبيرة . وليس غريبا في هذه الحالة ان يحقق العرب نصرا حاسما في معركة أجنادين (٦٣٤م. /١٣هـ) .

توفي أبو بكر قبل ان يعرف بنبأ هذه المعركة العظيمة . ولا بد أنه توفي وهو يشعر

---

١) الطبري، ١، ٢١٠٩، الفتوح، ص ١١٠

٢) البلاذري، الفتوح، ص ١١٣.

بالرضى والارتياح لأنه تمكن خلال عهده القصير الذي دام سنتين ان يحقق المهمة الرئيسة التي كانت تواجهه . لقد أعاد توطيد نظام المدينة المهدد بالخطر . فهو لم يقم بإعادة القبائل المرتدة الى الحظيرة وحسب ، لكنه نجح ايضا في حمل القبائل التي قاومت الاسلام على اعتناقه . وفرض من خلال حروب الردة نوعاً من الوحدة على شبه الجزيرة العربية . ومع ان هذه الوحدة كانت تشترط إبعاد القبائل التي ارتدت كي لا تكون فاعلة في الأمة ، فان الباب بات مفتوحاً على مصراعيه أمام توحيد صحيح للعرب . إن القبائل التي لم تكن تجتمع من قبل على مصلحة مشتركة او على عمل مشترك ، صارت لأول مرة تسهم في مثل هذه النشاطات . وهكذا صرنا نرى المكيين يحاربون في العراق الى جانب قبائل من شرق شبه الجزيرة العربية ، كما صرنا نرى ايضا يمنيين من الجنوب الى جانب أبناء مكة والمدينة في فلسطين في الشمال .

على ان ابا بكر فشل في شيء واحد هو انه لم يتمكن من وقف الانحلال الذي منيت به التجارة . ومما يثير الغرابة في هذا المجال ان ذلك دفع بالاسلام الى عتبة عهد من الفتح والسيطرة . لم يواجه العرب مقاومة لغاراتهم في العراق ثم انهم نجحوا في معركتهم الشاملة مع البيزنطيين . ولعلهم دهشوا إزاء هذا النجاح لكنه شجعهم على متابعة الفتوح . لقد أتاحت هذه الحروب لأبي بكر المجال لتوجيه الأمور العامة ، ولو بصورة محدودة ، إلا انه ظل بعيدا عن ان يكون الحاكم المطلق . وقد ذكرنا من قبل انه كان خليفة لبعض وقته فقط في الأشهر الستة الأولى من استلام منصب الخلافة . ثم ان هذا ، بالاضافة الى علاقته بخالد ، يبينان حدود صلاحياته بشكل واضح جدا . ومع ذلك فانه لا يمكنه ان يكون قد رأى في ذلك فشلا . ان تاريخ عهده واستمرار الأمة في تجربة الخلافة في عهد عمر بن الخطاب من بعده يدلان على ان حكومته حققت نجاحاً كبيراً .

ومن المؤكد ان أبا بكر واجه خلافات مع قادة الأمة الآخرين في المدينة . وأهم هذه الخلافات ما كان يتعلق بمعاملة المرتدين . لقد كانوا كلهم متفقين على وجوب إخضاعهم ، لكن آراءهم كانت تتباين حول كيفية معاملتهم . كان خالد يمثل رأيا متطرفاً آنذاك . فقد أنزل عقوبات قاسية بالمرتدين في اكثر من مناسبة حتى ان تصرفه أثار نقداً واسعاً في المدينة ، ولا سيما من قبل شخصية كعمر بن الخطاب[1] . ولهذا الأمر

---

١) الطبري، ١، ص ١٩٢٨

مغزاه . أما أبو بكر نفسه فقد اتخذ القليل من التدابير الصارمة ضد العصاة ، إلا في حالة واحدة فقط على الأرجح . فهو لم يكتفِ بإنقاذ حياة الأشعث بن قيس الكندي ، أحد كبار المتمردين في اليمن مثلا ، بل اطلق سراحه وزوجه من أخته . إلا أنه كان موافقا على جوهر سياسة خالد ، وهو ان المرتدين الذين أعيدوا الى الحظيرة ينبغي ألا يوثق بهم وألا يعاملوا على قدم المساواة مع الذين وقفوا بثبات بجانب نظام المدينة في ساعاته العصيبة . لذلك أبقى أبو بكر الأشعث تحت مراقبة دقيقة في المدينة وأدار أذنا صماء لتوسلات أبناء قبيلة شيبان لتجنيد المتمردين السابقين في الغارات التي كانوا يقومون بها في العراق[1] . ان موقف ابي بكر وخالد يمكن فهمه إذا اعتبرنا مدى انهماكهما العميق في حروب الردة . ومع ذلك فانهما إذا حرما القبائل المرتدة من المكاسب التي يمكن ان تنجم عن اشتراكهم في الغزوات ، كانا يحرمان نفسيهما ايضا من مصدر هام للجنود . ولا يمكن لأبي بكر على كل حال أن يرى ذلك أمراً ذا أهمية شعورا منه بأن القوات الموالية التي خاضت حروب الردة كانت فيه لتوفير السيطرة والهدوء في شبه الجزيرة العربية . هذا صحيح طالما امتنع نظام المدينة عن القيام بحملات تدوم طويلا خارج شبه الجزيرة العربية . على انه لا يمكن لأبي بكر ان يكون قد نظر الى الحملات التي شنت على الأراضي البيزنطية والساسانية إلا أنها حملات عرضية وموقتة .

---

١)المصدر السابق ص ٢١٢٠.

الفصل الثالث
عمر بن الخطاب والفتوحات

عمد أبو بكر ، قبل وفاته في عام ٦٣٤م/١٣هـ ، الى تسمية عمر بن الخطاب خليفة له . ومع ان ذلك كان عملا لا سابقة له ، فقد بدا ان ما يقوم به أمر طبيعي الى أبعد الحدود . ثم ان قبول الأمة به بوجه عام دليل على ان الأمة قررت متابعة التجربة التي بدأت بأبي بكر . ولعلها شعرت ان فترة سنتين ليست كافية للوصول الى استنتاجات ناضجة مدروسة حول هذا النظام من الحكم برغم ان هذه التجربة كانت قد أثبتت نجاحها حتى الآن . لقد كانت تسمية أبي بكر لعمر أمراً جديداً حقاً ، ولكن ينبغي أن نلاحظ ان التسمية جاءت على شكل توصية خاضعة لموافقة الأمة . والواقع ان التسمية لم تكن ملزمة على الاطلاق . لقد كان بوسع الأمة ان ترفضها لو أنها شاءت ذلك . إلا أن عمراً كان يتحلى بصفات قيادية عظيمة ، كما ان مكانته اثناء عهد أبي بكر كانت قد نمت بسرعة . ومن المؤكد انه لعب دوراً حاسماً في حمل أهل المدينة على القبول بأبي بكر خليفة في لحظة كانت في منتهى التأزم . ولا بد للمرء ان يستنتج بالتالي انهم كانوا يثقون به . لقد رضي القرشيون بأبي بكر ، وليس ما يبرر معارضتهم لعمر . وبحسب التقليد العربي ، برز عمر رجلا ذا قدرة مجربة مثبتة ، فكان اختياره قائداً أمراً محتوما تقريبا . وهكذا فان أبا بكر لم يكن في الحقيقة يوصي بفرد بمقدار ما كان يوصي باستمرار منصب الخلافة .

وكان أول ما قام به عمر هو نقض سياسة ابي بكر نحو الذين كانوا قد ارتدوا . فهو لم يكتف بالسماح لهم بالاشتراك بالغارات على الأراضي الساسانية وحسب ، ولكنه عمل على تشجيعهم على ذلك ايضا . وعين ابا عبيد الثقفي قائدا على هذه الجبهة ، وأمره بان يجند في طريقه أكبر عدد مستطاع من أبناء القبائل بصرف النظر عن نشاطاتهم

خلال حروب الردة[1] . لقد كان هذا القرار خطيرا جدا يستتبع تغييرات عميقة في شبه الجزيرة العربية . لقد كان خطوة لها الأثر الأكبر في توحيد العرب . إن أي فرد لن يستثنى بعد الآن من الاشتراك بنشاطات الأمة الاسلامية عامة . وسواء كان أفراد هذه الأمة من أهل القرى ، او من أهل الوبر ، من الحضر او من البدو الرحل ، فان لهم جميعاً مصلحة مشتركة وحصصاً متعادلة في مكاسب نظام المدينة . وبقرار واحد بسيط ، عفى عن الآثمين ، وأفسح في المجال امام طاقاتهم المكبوتة . لقد أعيد توطيد التضامن الاسلامي بين جميع المسلمين بعد ان كان محصورا بصورة موقتة بأقلية منهم . وبذلك اتسع نظام المدينة ليشمل العرب جميعا . ولولا هذا القرار لما كانت هنالك امبراطورية عربية .

إن خلو مصادرنا من أية اشارة الى أدنى اعتراض على هذه السياسة الجديدة دليل على انها حظيت بموافقة جميع المعنيين ، إن لم يكن بدعمهم التام الصادق . ولا بد أنهم أدركوا ان قيام رابطة المدينة على أساس التجارة الدولية كان يتزايد صعوبة ، لا سيما بعد الصراع المكشوف مع بيزنطية . ان سلبية الساسانيين حتى الآن وهزيمة البيزنطيين في أجنادين ، اقنعتا العرب بإمكان الحصول على أرباح كبيرة من الغارات ، في حين ان مواصلة تجارة غير مضمونة المنافع ليست ذات جدوى . وإزاء هذا التشجيع قرر العرب استخدام قواتهم كلها في السعي وراء تحقيق أقصى الأرباح الممكنة . والواقع انها تجاوزت توقعاتهم الى حد بعيد .

وكانت أراضي الامبراطورية الساسانية أكبر نفعا في هذا المجال . ولا يعود ذلك في الغالب الى انها أكثر اسلاباً وغنائم وحسب ، وإنما الى أنها كانت لا تبدي مقاومة أيضا . على أنه لم يكن متوقعا من الامبراطورية الساسانية ان تستمر في تجاهل هذه الغارات مدة طويلة . لقد كانت الامبراطورية واثقة من قوتها ، ولذلك تجاهلت غارات خالد العنيفة معتبرة انها مجازفة لا بد منها حيال وجود هؤلاء الجيران الذين يغتبطون لهذه الغارات . غير ان قدوم ابي عبيد مصحوبا بأعداد كبيرة وخطرة من رجال القبائل كان دلالة على هجوم جديد على الحدود . عند ذاك نظر الساسانيون الى الوضع بصورة أكثر جدية ، وباشروا تعبئة قواتهم ، وأرسلوا جيشا لصد العرب المغيرين . وأدى منظر الفيلة في

---

١) البلاذري، فتوح، ص ٢٥٠ والطبري، ١، ص ٢١٦٥ و٢١٨٣ و٢٢٢٥

الجيش الساساني الى إرباك العرب حتى ان شجاعة ابي عبيد نفسه لم تكن تجدي . وقتل هو وأخوه وابنه ، ومنيت قواته بالهزيمة في معركة الجسر عام ١٣/٦٣٤[1] .

كذلك كانت حالة العرب على الجبهة البيزنطية تنتقل الى مرحلة جدية ايضا . لقد أدت هزيمة اجنادين الى إثارة الذعر في صفوف البيزنطيين فعمدوا الى تعبئة قوات جديدة لمواجهة التهديد العربي . وحيال تعبئة القوات الكاملة للامبراطوريتين العالميتين الكبيرتين في وقت واحد كان على عمر ان يجند قواه كلها . وليس من الصعب ان نتخيل الصعوبات الهائلة التي واجهها في تعبئة العرب كلهم ، بالاضافة الى تنظيمهم لمحاربة جيشي الامبراطوريتين على جبهتين . وفي تنفيذ هذه المهام ، كانت الكفاءات التنظيمية لرجال الأعمال المجربين من بني قريش ذات فائدة قصوى . لقد كانت علاقتهم التجارية قبل الاسلام ، وصلاتهم القبلية ومكانتهم التي حفظها لهم الاسلام ، لا بل دفعها الى الامام في شبه الجزيرة العربية ، ذات فاعلية قصوى في مواجهة الوضع الجديد . وعين سعدبن ابي وقاص ، القرشي الذي لا يتمتع بتفوق عسكري خاص ، قائدا على الجبهة الساسانية . وكان سعد رجلا سريع الغضب ، وإداريا ضعيف المقدرة ، كما دلت سيرته فيما بعد ، ولكنه عين لهذا المنصب برغم ذلك بسبب علاقاته الواسعة في انحاء شبه الجزيرة العربية الوسطى واستعداده للتعاون التام مع الذين كانوا قد ارتدوا[2] .

انطلق سعد بن ابي وقاص من المدينة على رأس جيش صغير من الفي رجل تقريبا ، نصفهم من ابناء اليمن الذين استجابوا لنداء عمر بسرعة . وفي طريقه الى الجبهة جنّد ٧٠٠٠ رجل على الأقل حتى أن جيشه صار في النهاية يضم بعض المتمردين السابقين المعروفين كالأشعث ، وطليحة مدعي بني أسد سابقا[3] . وعند بلوغ الحدود الساسانية انضم الى هذا الجيش المتنامي بسرعة ، أبناء قبائل أنحاء شبه الجزيرة العربية الشرقية وهم الذين سبق لهم ان قاموا بغارات على الساسانيين من قبل . وفي المعارك اللاحقة تغلب العرب على خوفهم من الفيلة ثم تعلموا فيما يبدو بعض أساليب خصومهم العسكرية . إلا أن الساسانيين الذين داخلهم الذعر ، لم يعتبروا العرب في

---

١) البلاذري، فتوح، ص ٢٥١ ـ ٢

٢) الطبري، ١، ص ٢٢٠٢ و ٢٢١٥ ـ ١٦ و ٢٢٢١

٣) البلاذري، فتوح، ص ٢٥٧ ـ ٦٠ والطبري، ١، ص ٢٢٢٢

الواقع خطراً رئيسا على امبراطوريتهم ، ولم يحاولوا بالتالي ان ينزلوا جميع قواتهم العسكرية الى الميدان ، ولا سيما في الاشتباكات الأولى . ولما أخذوا يدركون النتيجة الممكنة لمثل هذه الحالة كان الوقت قد أصبح متأخراً جداً . كان العرب قد قاموا بعدد من الغزوات الهامة في الأراضي الساسانية ، وأنزلوا بأعدائهم بعض الهزائم الهامة . يضاف الى ذلك انهم استطاعوا الاحتفاظ بمكاسبهم أكثر من سنتين وهم يعيشون على الأسلاب الكثيرة التي استولوا عليها من أرياف العراق الغنية . وفي حين ان معنويات العرب كانت ترتفع ، كانت معنويات الساسانيين تتدهور . ولما أنزل هؤلاء في النهاية قوات كبيرة الى الميدان كانت النتيجة نصراً واضحا للعرب في معركة القادسية عام ١٦/٦٣٧ . وكانت تلك المعركة النذير الأول الواضح بانهيار الامبراطورية الساسانية .

سادت حالة مماثلة على الجبهة البيزنطية . فقد استمر العرب بعد معركة أجنادين (١٣/٦٣٤) صامدين في فلسطين . ثم تعززت قواتهم في الوقت المناسب بوصول إمدادات جديدة معظمها من اليمن . ولم يكن في صفوف هذه الامدادات عدد كبير من أبناء قبائل الردة ولو أنها كانت تضم قائداً بارزاً هو قيس بن المكشوح المرادي[١] . ومع ذلك فان عمر بن الخطاب رأى ان الحكمة تقضي باستبدال خالد بن الوليد الشديد العداء للمتمردين بأبي عبيدة الجراح كقائد عام مسؤول عن الجبهة البيزنطية بكاملها ، وذلك لضمان الانسجام في صفوف قواته في بلاد العدو . لا ريب أن خالداً كان أشد منه قدرة من الناحية العسكرية الى حد بعيد لكن الوضع القائم كان يفرض رجلا كأبي عبيدة أقل منه شدة وقسوة ، قادرا على التعاون بسهولة مع رجال كقيس بن المكشوح . ولم يكن العداء الشخصي بين خالد وعمر وراء هذا التغيير في القيادة ، ولكنه كان تدبيرا يدل على حنكة سياسية . وقد أدرك خالد ذلك وعمل بموجبه ، وواصل الخدمة في ظل ابي عبيدة . والظاهر ان أبا عبيدة كان منسقا اكثر منه قائدا اعلى . وبفضل هذا التنسيق بين نشاطات قادته تمكن من توجيه ضربات عديدة متلاحقة في عمق سورية، ومن الاحتفاظ بوحدة قواته . ولما صمم البيزنطيون على شنّ هجوم رئيسي على الغزاة استطاع ابو عبيدة ان يواجههم بقواته الكاملة في معركة اليرموك (١٦/٦٣٧) . وهنا حقق العرب نصراً حاسماً حمل البيزنطيين على التخلي عن سورية كليا بحيث ان افتتاحها بكاملها تم بعد ذلك بدون صعوبة كبيرة .

---

١) البلاذري، فتوح، ص ٢٥٦

وكان فتح مصر بعد سقوط سورية أمراً محتوماً . ومع ذلك فان هذا الفتح الجديد مثل كلاسيكي على الأسلوب العفوي القائم على المصادفة في الفتوحات العربية . كان عمرو بن العاص ، فاتح مصر ، احد القادة القرشيين في الحملة الأولى في عهد ابي بكر ثم وضعه عمر بعد ذلك تحت قيادة ابي عبيدة . وكان عمرو يعرف مصر معرفة جيدة وقد زارها مرات عديدة قبل الاسلام . وبعد سقوط سورية بصورة نهائية بقي في فلسطين على رأس جيش صغير . ولا تترك مصادرنا مجالاً للشك في أنه انطلق نحو مصر بمبادرة منه على رأس ٣٥٠٠ جندي كانوا تحت قيادته[1] . لم يكن عمرو رجلاً مندفعاً او متهوراً على الاطلاق ، فالعكس هو الصحيح ، إذ أنه كان داهية شديد التروي والاحتراس . ولذلك فإن تصرفه في هذه المناسبة ، ينبغي ان يؤخذ على انه التصرف العادي للقائد العربي آنذاك حيال حكومة المدينة . ان هؤلاء القادة المستقلين في تفكيرهم لم يكونوا يفكرون على أساس وجود تسلسل متدرج في سلطة منبثقة من خليفة يجب ان يطيعوه والأصح انهم كانوا لا يعتبرون أنفسهم دونه . فهم قادة لهم الحق باعتماد وجهة نظرهم واتخاذ القرارات بدون العودة الى سلطة أعلى في المدينة . ولا يعود هذا الى عدم احترام الخليفة او الى رغبة بالاعتداد الذاتي ، خصوصاً وان عمرو كان على رأس ٣٥٠٠ جندي فقط من ابناء القبائل وهو لا يملك أية سلطة الزامية عليهم . وإنما تلك هي الطريقة التي بها كانوا ينظرون الى صلاحياتهم كقادة بالنسبة لصلاحيات الخليفة في المدينة . ولا بد ان عمرا كان يدرك ذلك لأنه استجاب لعملية عمرو بأن أرسل له إمدادات من ٨٠٠٠ رجل على الأقل بقيادة قرشي آخر هو الزبير بن العوّام . هنا ينبغي ان نلاحظ انه لم يكن في جيشي عمرو والزبير أي قائد من قادة الردة مما يؤكد تقريبا انه لم يشترك في احتلال مصر (١٩/٦٤٠) أحد من ابناء قبائل الردة .

من المهم ان نتوقف وننظر في تكوين الجيوش التي اشتركت في الفتوحات الأولى . وليس هذا بالأمر السهل لأن تجنيد هذه القوات كان يتم بطريقة غير منتظمة تقوم على المصادفة والاتفاق في الاساس . ينبغي ألا ننسى ان ذلك كان يجري في القرن السابع في شبه الجزيرة العربية الخارجة من فوضى حروب الردة وهي تواجه بصورة تلقائية أوضاعاً

---

١) المصدر السابق ص ٢١٢ والطبري، ١، ص ٢٥٨٤، كذلك: Ibn Abdilhakam, *Futuh Misr*, ed. C. C. Torrey , New HAVEN, 1922, P. 57; AL - KINDI, *Governors and Judge of Egypt*, ed. R. Guest, Gibb Memorial Series , vol XIX, London, 1912 P.8

خارج حدودها لم تكن تتصورها . ان مصادرنا تبذل جهودا ملحوظة لايضاح تركيب هذه الجيوش ، ولكن المؤسف ان العبارات التي تستخدمها لوصف المجموعات المختلفة تؤدي الى التشويش لا الى التوضيح . وقد أدخلت هذه العبارات آنذاك لوصف أوضاع جديدة سرعان ما زالت ، ثم أنها كانت تختلف بين مكان وآخر وتتصل بمدى الفخر الذي كان بعض هذه المجموعات يحاول ان يدعيه لنفسه . وهذا عائد بالدرجة الأولى الى ان الاسهام في الفتوح الأولى كان يستتبع امتيازات محددة ومكانة مرموقة ، صارت بدورها بعد وقت قصير مجال تنافس بين العرب في البلدان المحتلة . ويكاد يستحيل فهم التطورات اللاحقة هناك من غير ان نعرف اولا العرب الذين أسهموا فيها والأساس الذي قامت عليه مطالبيهم .

ويجب ان نوضح هنا ان رجال القبائل العربية الذين حققوا بالفعل هذه الفتوحات الأولى كانوا ينظرون الى هذه الأراضي المحتلة على انها ملك لهم وحدهم . لم يكونوا ينظرون الى هذه الفتوحات على انها تتم باسم ملك او خليفة . انها فتوحات خاصة بهم ، ثم ان جميع المكاسب الناجمة عنها كانت لهم أيضا . ولقد كان التقليد القديم يمنح قادتهم ربع هذه المكاسب او الأسلاب ، غير أن القائد المسلم لم يعد يحق له في ظل الاسلام غير خمس هذه المغانم . وكان هذا التدبير الجديد لصالحهم ، وكانوا على استعداد للعمل بموجبه . ثم مقادير الغنائم الضخمة التي تم الاستيلاء عليها في هذه المرحلة كانت كافية لإشباع رغبات الجميع ، ولحل اية اختلافات محتملة . غير ان صراعاً جديداً كان في طور النمو ، ومرده بالدرجة الأولى الى ان الفاتحين الأولين كانوا في منتهى التردد بالسماح لأبناء القبائل الذين انضموا اليهم في وقت لاحق بمقاسمة ما كانوا يعتبرونه ملكا لهم بحق الفتح .

وعند مناقشة قضية تكوين الجيوش العربية الخاصة ، لا بد ان نناقش ايضا قضية أكثر شمولا ، تتناول الأوضاع والتنظيم في ولايات العراق وسورية ومصر المحتلة . لقد كانت الأحوال السائدة في هذه الولايات قبل الفتح مختلفة ، حتى ان ظروف الفتح نفسها كانت متباينة ايضا . ونجم بالتالي أنه كانت لكل ولاية مشاكلها بحيث لم يكن لأي حل واحد ان ينطبق عليها جميعا . وقد أدت هذه الفروقات الى إثارة قضايا صعبة امام المؤرخين ، حتى ان الباحثين القلائل الذين حاولوا القيام بدراسات مفصلة للفتوح

خلطوا في دراساتهم بين الاوضاع والحلول في الولايات الثلاث[1] . على انه لا بد لنا ، بانتظار أبحاث جديدة ضرورية جدا حول هذا الموضوع ، ان نقدم عرضا للوضع لأن التطورات اللاحقة في الامبراطورية العربية تصبح غير مفهومة بدون هذا العرض .

ستتناول مصر أولاً لأن حل قضاياها التاريخية هو الأقل صعوبة ولأن مصادرنا واضحة الى درجة غير مألوفة بالنسبة لبعض النواحي المتعلقة بافتتاحها . فنحن نملك معلومات مفصلة عن تركيب الجيش الفاتح . وقد لاحظنا من قبل ان ٣٥٠٠ جندي ساروا من فلسطين الى مصر بقيادة عمرو بن العاص ، وان ٨٠٠٠ جندي أرسلوا من المدينة بقيادة الزبير[2] . ولقد كانت الميزة البارزة للمجموعتين انهما خاليتان من أبناء قبائل الردة . ثم ان عدد أبناء مكة والمدينة فيهما كان قليلا ايضا مع ان سعد بن ابي وقاص ، قائد معركة القادسية ، كان بين رجال الزبير[3] ، كما ان عددا من أبناء بطون الحجاز المختلفة التحق بجيش الزبير . غير أن هؤلاء كانوا يمثلون عدداً كبيراً من البطون حتى انهم جمعوا كلهم في وحدة واحدة ، وأشير اليهم بأنهم أهل الراية ، بينما جرت العادة ان يجمع أبناء كل قبيلة في وحدة منفصلة حين يكون عددهم كافياً لتشكيل مثل هذه الوحدة[4] . ان أكثرية قوات الزبير كانت من ابناء اليمن حتى المهرة شرقاً ، وهم أبناء قبائل اعتنقت الاسلام في مرحلة لاحقة لكنهم لم يشتركوا فعلا في حروب الردة . كانوا يدعون بالمدديين ، وكانوا ذوي مكانة متدنية قليلا ، لكنهم سرعان ما بلغوا مرتبة مساوية لرفاقهم الفاتحين الآخرين[5] .

كذلك كانت قوات عمرو ذات تركيب طريف مماثل . لقد كانت مؤلفة من أبناء قبائل قاتلت على الجبهة البيزنطية منذ عهد ابي بكر . ولذلك كان الاعتراف بخدماتهم الباكرة المخلصة للاسلام امرا سهلا . على أنهم كانوا برغم ذلك يمثلون قبائل صغيرة اشتركت في هذه الحملة الباكرة ، أي أبناء قبائل في أقصى شمالي الحجاز في مناطق

---

١) انظر بحثا «أوليا موقتا» لكلود كاهين: «الجزية» في الموسوعة الاسلامية، ٢، طبعة جديدة، لايدن، ١٩٥٤.

٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٦١

٣) المصدر السابق ص ٩٣ و ١١٤ ـ ١٥

٤) المصدر السابق ص ٩٨، و ١١٦ ـ ١١٧

٥) المصدر السابق ص ١١٨ ـ ١١٩ و ١٢٢ ـ ٨

متاخمة للصحراء السورية . وكانت بليّ القضاعية الممثل الأفضل لها جميعا . أما قبائل كلب ، وهي من قضاعة ايضا ، وابناؤها هم سكان الصحراء السورية الأصليون الذين لم يعتنقوا الاسلام إلا بعد فتح فلسطين ، فانها لم تكن ممثلة في مصر على الاطلاق[1] وكان في قوات عمرو ايضا رجال من أبناء القبائل التي نزحت من اليمن في موجة النزوح الأولى ووقفت الموقف الصحيح في حروب الردة . وافضل ممثل لهذه القبائل هو فرع تجيب بقيادة معاوية بن حديج الذي كان له من السلطة والمقام في مصر ما يدل على سمو مكانته في الأصل[2] . ومما له دلالته هو ان فروعا أخرى من تجيب ، منتمية بكاملها الى قبيلة سكون ، ظلت في سورية حيث شكلت وحدة بارزة في الجيش العربي . ان عدم اشتراكها بالحملة الأولى دليل على أنها جاءت في وقت لاحق . وهكذا نشأت في فلسطين ، حيث كان رجال عمرو يقيمون منذ أربع سنوات على الأقل ، اوضاع جديدة تبين فيها لرجال القبائل الصغيرة الذين حققوا النصر الأول فعلاً ، انهم يضيعون بين أبناء قبائل أخرى كانت أكثر عدداً ، وذات مكانة أدنى في الاسلام . ومن المؤكد ان هذا الوضع أوجد بعض التوتر بين الجانبين . فقرر الطرف الأضعف ان من مصلحته في محاولة فتح مصر حيث تكون له ولاية بكاملها . ومع ان عمرا كان مرغما على قبول هذا التحرك فإنه أدرك ان خسارة هؤلاء الرجال أو فشل هذه المجازفة سيكون لها أثر سيء على النظام بكليته . ولم يكن امام عمر اي خيار غير دعمهم . وفي هذه الحالة أقصي أبناء قبائل الردة عمداً عن الانخراط في صفوف الامدادات التي وجهت بقيادة الزبير .

ولما تم فتح مصر ، جمع كل أبناء القبائل في معسكر مدينة الفسطاط التي بنيت آنذاك ، وهي تدعى حالياً بالقاهرة القديمة . ومنح العرب قطعاً صغيرة من أرض غير زراعية لبناء مساكنهم فيها . ومن ناحية استراتيجية كان موقع الفسطاط بين دلتا النيل المزدحمة بالسكان والوادي الطويل الضيق باتجاه الجنوب ، يجعل سيطرة العرب على البلاد بكاملها أمراً ممكناً . ولم يكن في مصر غير مركزين عسكريين آخرين يجري فيهما نشاط عسكري ، وأهمها الاسكندرية. وحيال الخطر الكبير من هجوم بحري بيزنطي أنشأ العرب[3] هناقاعدة رابطت فيها قوات كانت ترسل من الفسطاط بالتناوب كل ستة

---

١) المصدر السابق ص ١١٦ ـ ١٩

٢) المصدر السابق ص ١٢٣، ١٤٣

٣)المصدر السابق ص ١٣٠ و ١٩٢

أشهر . وكان المركز الآخر في خربتا وهي قرية على الحدود الصحراوية الغربية للدلتا، حيث أنشئت قاعدة أخرى مماثلة لصد أية هجمات بيزنطية من الصحراء الغربية[١]. ومنع أبناء القبائل من الذهاب الى الأرياف إلا في الربيع حين كان يسمح لهم برعي حيواناتهم[٢]. واحتفظ سكان مصر بالسيطرة التامة على أراضيهم، ولم يحدث أي تغيير يذكر في ملكية الأرض. ولا ريب انه كانت في مصر قبل الفتح العربي جالية بيزنطية ولكن الظاهر هو انها كانت اكثر انصرافا الى التجارة مع بيزنطية بالذات منها الى الزراعة. ومع ان الكثيرين من أبناء هذه الجالية تركوا مصر مع القوات البيزنطية البرية والبحرية المنسحبة، فإن مشكلة الأراضي المهجورة التي كانوا يملكونها لم تنشأ، بخلاف ما جرى في سورية والعراق. والظاهر ان المشكلة الاقتصادية الوحيدة التي نشأت بخروجهم من مصر كانت النقص في القطع النقدية الذهبية وقد حملوا معظمها معهم[٣].

وباستثناء بعض التعديلات الطفيفة واستبدال الحكام الروم بالحكام العرب فقد استمر الحكم والنظام الاجتماعي في مصر كما كانا عليه قبل الفتح تماما . كانت الكنيسة القبطية تتمتع بقوة كافية ، وكان الموظفون المحليون متعاونين الى حد كافٍ بحيث أمكن الاعتماد عليهم لتسيير الشؤ ون اليومية في الحكومة المحلية . اما بالنسبة للضريبة ، فقد كانت نية العرب ، بوجه عام ، المحافظة على النظام البيزنطي . ولكن النقص المفاجىء بالقطع النقدية نسف هذه الخطة . كان عمرو ، وهو الوالي على مصر ، يدرك تمام الادراك ان ازدهار الزراعة المصرية يعتمد على ترميم فعال يتطلب نفقات عالية لشبكة الري الدقيقة ، وعلى التدابير الوقائية السنوية حيال فيضان النيل[٤] . ومن ناحية اخرى كان عمرو يدرك مدى عجز الفلاحين عن دفع أية ضريبة نقداً . لذلك كان لا بد من تعديل النظام البيزنطي للتغلب على هذه الأزمة الخطيرة .

كان نظام الضرائب البيزنطي بالنسبة للاقتصاد الزراعي في مصر قائماً على فرض ضريبة محددة على الأرض تدفع نقداً. وكان النظام يفسح في المجال امام إجراء تعديلات سنوية لمبلغ الضريبة تكون مناسبة للظروف المحلية ومبنية على

---

١) المصدر السابق ص ١٤٢ والكندي، الولاة ص ٢١
٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٣٩ ـ ٤٢ و ١٦٢
٣) المصدر السابق ص ٨٢، ٨٧
٤) المصدر السابق ص ١٦١

تقديرات موظفي الضرائب وزعماء السكان المحليين . ففي كل سنة كان زعماء القرى في كل منطقة يجتمعون لمناقشة توزيع الضرائب وتحديدها . وكانت كل قرية تشكل وحدة قائمة بذاتها بالنسبة لتحديد قيمة الضريبة وجمعها . وكان زعماء القرية مسؤولين عن توزيع الضريبة على أساس المساحات المزروعة في قراهم بحيث يدفع كل مزارع مبلغاً من المال مناسباً لمساحة الأرض التي يحوزته . كذلك كانوا مسؤولين عن تقدير الضرائب التي يجب ان يدفعها كل حرفي او عامل على أساس الامكانات المالية . ثم انه كان على هؤلاء الزعماء ان ينظروا في تقدير الضرائب على المغتربين أو أبناء الجاليات المدونة اسماؤهم في القرية ، وفي عملية جمعها منهم . وهؤلاء هم في الغالب موظفون موقتون في مصلحة عامة او عاملون بصورة دائمة في مكان آخر من البلاد انتقلوا اليه تاركين عائلاتهم في قراهم الخاصة[1] . وبعد جمع هذه الضرائب يقطتع هؤلاء الزعماء المقادير اللازمة لصيانة كنائسهم وحماماتهم العامة والقوارب التي تقوم بالنقل عبر نهر النيل ، بالاضافة الى نفقات الادارة المحلية . ثم ترسل المبالغ المتبقية الى مركز المنطقة المعنية ومنه بالتالي الى الاسكندرية العاصمة[2] .

وترك عمرو تحديد الضرائب وجمعها في أيدي الموظفين المحليين . وبمعاونتهم أدخل على النظام بعض تغييرات ضمنت له المال اللازم لادارته . فقد سمح لجباة الضرائب ان يقبلوا الدفع من الفلاحين عيناً بأي نوع من المحاصيل . اما الأرض التي تزرع بالبرسيم فكانت تعفى من الضريبة على ان يسمح للعرب بالمقابل برعي ماشيتهم فترة قصيرة اثناء الربيع[3] . وكان الشيء الجديد الأهم الذي أمّن له في الواقع مالاً كان بأمسّ الحاجة اليه هو التعديل الذي أدخله على ضريبة الأعناق أو الجزية ، وهي ضريبة كانت تفرض

---

١) ان اعتبار ابناء الجاليات هؤلاء فارين غير صحيح في هذه الحالة لأن ذلك يتضمن فرار الفلاحين من الأرض. انظر كاهين: « الجزية ». والأقرب للصحة انها محاولة للتهرب من دفع الضريبة وقد مارسها اولئك الذين كانوا ينتقلون من قراهم التي يسجلون فيها لدفع ضريبة الأعناق أو الجزية الى مكان آخر للقيام باعمال اكثر ربحاً. فاما ان تقدر الضرائب عليهم بنسبة منخفضة اذا كانت لهم علاقة متينة بقراهم، او ان يكونوا افضل حظاً فيتجنبوا دفع اي ضريبة على الاطلاق. ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٥٣؛ واحمد بن على المقريزي، الخطط، تحقيق ج. فيت، القاهرة، ١٩١١ ـ ٢٢، مجلد ٢، ص ٩٤.

٢) ان المصدر الأفضل في هذا المجال هو مقطع وارد في ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٥٢ ـ ٠٣ وقد فهمه المقريزي بوضوح في الخطط، مجلد ١ قسم ١، ص ٣٢٣ ـ ٤.

٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٤١، ١٥٣.

في الأساس على الحرفيين . إلا أن كميتها زيدت وصارت تجمع بدقة متناهية . كان واضحاً انه لم يكن بين المصريين من اعتنق الاسلام في هذا الوقت . واستغل عمرو هذا الوضع ، وفرض على كل من لم يعتنق الاسلام ، باستثناء بعض الاعفاءات المدروسة ، ان يدفع ضريبة مقدارها ديناران كل سنة . وشملت الضريبة جميع حرفيي القرى والعدد الأكبر من سكان المدن ولا سيما سكان الاسكندرية والمدن الأخرى على ساحل البحر الأبيض المتوسط . ومن المسلم به ان مبلغ دينارين كمية كبيرة بالنسبة لذلك الوقت ، لكن الحصول على الاعفاء كان ميسوراً . لم تكن هذه الضريبة تفرض على غير الذكور البالغين ، أما رجال الدين والمسنون والنساء والفقراء فكانوا معفيين بصورة تلقائية . ثم ان الفلاحين الذين كانوا يدفعون خراجاً أو ضريبة على أراضيهم كانوا بالطبع معفيين أيضا[١] .

والمرجح ان هذه التعديلات الضريبية أدخلت على مراحل ، لا دفعة واحدة ، وبناء على نصيحة الزعماء المصريين . ولا بد أن السكان كانوا بوجه عام راضين عن هذه التدابير لأننا لا نسمع بحدوث اي اعتراض عليها اطلاقاً . كذلك كان أبناء القبائل العربية راضين ، ولو انهم حصلوا على القليل من النقد . كان قادتهم يقبضون مخصصات قدرها ٢٠٠ دينار سنويا[٢] ، أما رجال القبيلة أنفسهم فكانوا يعطون كميات وافية من المواد الغذائية والملابس[٣] . وليست لدينا أية روايات تشير الى أنهم كانوا يتلقون مخصصات منتظمة في هذه المرحلة . إن ما لدينا من مثل هذه الروايات يشير الى تطورات لاحقة حدثت في عهد بني أمية . ثم ان عمر بن الخطاب طلب إرسال الحبوب الى المدينة ، وكان له ما أراد[٤] ، بحيث ان مصر تحولت ، طوال حقبة لاحقة الى اهراء الحجاز بكامله كما كانت من قبل بالنسبة لبيزنطية .

---

١) المصدر السابق ص ١٧٠؛ والمقريزي، الخطط، مجلد ١ قسم ١، ص ٣٢٤ و ٣٣١ ومجلد ٢، قسم ١، ص ٤٦١؛ والبلاذري، فتوح، ص ٢١٨

٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٤٥

٣) المصدر السابق ص ١٥٢ و ١٩٢. كانت كمية المواد الغذائية الموزعة كافية بحيث تنتفي الحاجة معها الى مدفوعات نقدية. وكان يشار الى هذه المواد ايضا على انها ارزاق وهي مؤونة غذائية توزع كل شهر عادة

٤) المصدر السابق ص ١٥٨ـ ٦٥ والبلاذري، فتوح، ص ٢١٦

ومع أن سورية كانت جزءا من الامبراطورية البيزنطية ايضا فان وضعها كان يختلف اختلافاً كبيراً . هنا كان تركيب الجيش العربي الذي افتتح سورية معقداً بعض التعقيد . إننا نذكر ان الجيش الأول الذي أرسله أبو بكر الى فلسطين سنة ٦٣٤م/١٣هـ كان مؤلفاً من أبناء القبائل التي وقفت بثبات الى جانب نظام المدينة في وجه المرتدين لقد كان اختيار هؤلاء الموالين لهذه الحملة الخاصة أقرب في طبيعته الى المكافأة . وكان قوام هذا الجيش مؤلفا من نحو ٧٠٠٠ رجل من مكة والمدينة والطائف وما جاورها من بطون قيس في الحجاز كعبس وسليم[١] . وكان يضم ايضا رجالاً من الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية من بطون من أصول يمنية قديمة كبلي وهم أقرباء لعمرو بن العاص وموالون له . وبلغ الجيش في مجموعه نحو ٢٠٠٠٠ جندي من اليمن صمدوا الى جانب المدينة في ساعاتها الحرجة[٢] . إنهم أبطال معركة أجنادين (٦٣٤م/١٣هـ) ، وقد تمكنوا في السنوات الثلاث التالية من التوغل في عمق سورية . وفي عام ٦٣٧م/١٦هـ انزلوا بالبيزنطيين ضربة حاسمة اخرى في معركة اليرموك . وجاءت هذه المعركة نقطة تحول رئيسة في فتح العرب لسورية واستقرارهم فيها . وحيال التصميم على التخلي عن سورية بكاملها ، انسحب البيزنطيون مصحوبين بقسم كبير من السكان ، ومنهم كثيرون من سكان سورية العرب أصلا[٣] . وقرر القسم الأكبر من العرب الذين ظلوا في سورية ان يعتنقوا الاسلام ، ثم انضموا الى القوات العربية[٤] . وقد كان هؤلاء من أبناء القبائل التي لم تشترك في حروب الردة ولو أنها اعتنقت الاسلام في وقت متأخر ، وأبرزهم أبناء قبائل تنتسب الى بني كلب .

ومع ان عمرو سمح لأبناء قبائل الردة ان ينضموا الى الجيش في الجبهة السورية فاننا نعرف ان ٧٠٠ رجل منهم فقط بقيادة قيس بن المكشوح المرادي انضموا الى الجيش العربي في سورية . ثم نقلت هذه المجموعة الى العراق بعد معركة اليرموك بوقت قصير ، ووصلته في الوقت المناسب للاشتراك في معركة القادسية[٥] . وينقل هذه

---

١) الطبري، ١، ص ٢٠٧٩ و٢٠٨٣ - ١٤ والبلاذري، فتوح، ص ١٧٢
٢) الطبري، ١، ص ٢٠٨٢ - ٧
٣) البلاذري، فتوح، ص ١٣٦
٤) المصدر السابق ص ١٤٥ و ١٥٠ ؛ والطبري، ١، ص ٢٠٨١
٥) البلاذري، فتوح، ص ٢٥٦ ؛ والطبري، ١، ص ٢٣٥٠

المجموعة الى العراق لم يبق في سورية أحد من ابناء قبائل الردة . ثم لم يؤت اليها بآخرين منهم في أي وقت لاحق . ولا يمكن لهذا التدبير إلا ان يكون مدروساً لتجنيب سورية أي مصدر للاضطراب . والواقع انه لا بد من ان بعض المشاكل الخطيرة نشأت هنا برغم ان مصادرنا تعرض لنا صورة من الانسجام التام . وادى إدراك عمر لهذه المشاكل الى انتقاله بنفسه الى سورية بعد معركة اليرموك ، او تقريبا في نهاية عام ٦٣٨م/١٧هـ للعمل على تسوية هذه المشاكل[١] .

وكان التخطيط الأصلي للاستيطان العربي في سوريا يقوم على انشاء معسكر في الجابية في مرتفعات الجولان وعلى السيطرة على المنطقة كلها من هناك[٢] . لكن الوضع في سورية فرض تغييراً جذرياً في هذا المخطط بعد معركة اليرموك . ان سورية المأهولة تغطي مساحة أكبر من وادي النيل الى حد كبير . ثم ان هذه المنطقة اكثر تعرضا للهجمات البيزنطية من البر شمالاً وعلى الساحل السوري من البحر الأبيض المتوسط . ولذلك كان ضروريا من الناحية العسكرية أن تقام دفاعات رئيسة على كلتا الجبهتين . ثم ان هنالك عاملاً آخر أكثر أهمية وهو أن الروم والعرب الذين غادروا سورية تركوا بعض المدن والمساحات الواسعة من الأراضي الزراعية مهجورة مما دعا الباقين الطامعين بها الى الاستيلاء عليها بسرعة . وكان أول من استغل هذا الوضع هم عرب سورية المحليون[٣] . وبعد اعتناق الاسلام ،وحصر القبائل التي قامت بالفتح في الجابية ، لم يجد السكان المحليون سبباً لتفويت مثل هذه الفرصة . هذا أمر مفهوم ، على انه كان يعني في الحقيقة حرمان الفاتحين من ثمار فتوحاتهم . ولما كان السوريون العرب المحليون اكثر عدداً من زملائهم الفاتحين المسلمين فقد كان الوضع دقيقا ويستدعي أقصى المهارة الممكنة في مواجهته . وهذا هو بالضبط السبب الذي من أجله قصد عمر سورية للحكم في هذه القضية والاسهام في إيجاد حل لها . لقد كان خطر الهجوم البيزنطي المعاكس يفرض على العرب في سوريا ان يكونوا في وضع قوي ومستقر الى أقصى حد مستطاع . إن أي

---

١) البلاذري، فتوح، ص ١٣٦

٢) المصدر السابق، ص ١٣٩ و ١٥١

٣) المصدر السابق ص ١١٣ و ١١٦ و١٢٢ و١٢٦ و١٣٨ و١٣٩ و١٤٢ و١٤٤ و١٥٠ و١٥١ و١٥٢؛ والطبري، ١، ص ٢١٥٩ و ٢٣٩٢

تصدع لا يمكن إلا أن يؤدي الى كارثة تصيب جميع المعنيين . ومن ناحية أخرى كان النزوح من سورية واسعاً بحيث انه كان لا بد من اتخاذ تدابير فعالة لاعادة إسكان المدن الخالية والأراضي المهجورة ولو لضمان استمرار ازدهار الحياة التجارية وتأمين زراعة الأرض . وكان التدبير النهائي الذي وافق عليه عمر بن الخطاب يقضي بإعادة توزيع المساكن والأراضي المتوفرة بين جميع المسلمين العرب من سكان محليين ومن فاتحين على السواء .

قسمت الولاية الى أربع مناطق عسكرية دعيت بالأجناد، مماثلة للأقسام البيزنطية قبل الفتح ، وهي حمص ودمشق والاردن وفلسطين . ووطن في كل جند من هذه الأجناد عدداً مناسباً من أبناء القبائل التي تربط بينها صلة قربى، وسمح لها بالقيام بدور عادي في الحياة الاقتصادية للمنطقة. لكن حُمِّلت في الوقت ذاته مسؤولية الدفاع عن المنطقة وعن الولاية بكاملها[1].

وبعد ذلك بقليل قام بعض أبناء القبائل الفاتحين ، بمبادرة التوجه الى فتح مصر إحساسا منهم بالغبن . ثم ان قسماً آخر من الفاتحين الأوائل الذين نقموا على هذه التسوية فيما يبدو ، اختار كذلك التوجه للقيام بفتح جديد مماثل ، أو لعله كوفىء بذلك . وكان هذا القسم قوام الجيش الفاتح المؤلف من ٧٠٠٠ جندي من أبناء مكة والمدينةوالطائف ومن بطون قيس المجاورة في الحجاز . كانت مكافأتهم الفتح السهل لجزيرة الواسعة الغنية ، وهي البلاد التي تقع ما بين النهرين . وسرعان ما احتلوها وجعلوا منها ولاية منفصلة[2] . وكانت لهذا الفتح فائدة إضافية هي حماية الجانب الأيمن لسورية من أية هجمات بيزنطية محتملة على الفرات .

أسهمت جميع هذه الاجراءات في توفير السلامة والانسجام بين العرب في سورية ، وأعطي الفاتحون من أبناء القبائل اليمانية، وعددهم نحو ٢٠٠٠٠ رجل ، منازل وممتلكات ، بعضها في دمشق ومعظمها في حمص . هنا كانت تتوفر لهم فرصة أفضل للعمل في التجارة ولتكوين خط دفاعي قوي على الحدود الشمالية . وفي حمص كان

---

١) البلاذري، فتوح، ص ١٢٩ و ١٥١؛ والطبري، ١ ، ٢٣٤٧ ـ ٨و٢٤٠٣ و٢٤٠٧ و ٢٥٢١ و٢٥٢٣؛ وابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٥١، مجلد ١، ص ٥٥٣ و ٥٥٦

٢) البلاذري، فتوح، ص ١٧٢ ـ ٧؛ والطبري، ١، ٢٥٠٧

قائدهم هو السمط بن الأسود الكندي ، ثم شرحبيل ابنه ، من بعده ، وهو الذي وقف بجانب المدينة في حروب الردة في اليمن[1] . ومنح العرب السوريون أراضٍ على الساحل الخصب بصورة خاصة حيث نشطوا بالدفاع عنه ضد الهجمات البحرية البيزنطية[2] . وجمعت بين هاتين المجموعتين القويتين مصلحة واحدة مشتركة مبنية على المحافظة على هذه الترتيبات المرضية وصارت المجموعتان تعرفان باليمنية بصورة عامة ، بحكم الهجرة من اليمن (بالنسبة للمجموعة الأولى) وبحكم الادعاء بالتحدر من أصول يمانية (بالنسبة للمجموعة الثانية) . غير أن صلة القربى الضعيفة الغامضة هذه كانت العامل الأقل أهمية في هذا التآلف الجديد .

صارت المحافظة ، الى حد كبير ، على هذا الانسجام مسؤولية عائلة أبي سفيان ، ولا سيما معاوية بصورة خاصة . والمعروف انه كانت لأبي سفيان تجارة واسعة مع سورية قبل الاسلام ، حتى انه كان يملك مزرعة بجوار دمشق ، ثم إن ابنه يزيد كان أحد القادة الأوائل الذين أرسلهم أبو بكر في حملة فلسطين ، وصار بعد وفاة ابي عبيدة الجراح في عام ٦٣٩م/١٨هـ الوالي الثاني على سورية . وعند وفاته في عام ٦٤١م/٢٠هـ عين أخوه معاوية واليا بعده ، وظل في هذا المنصب طوال السنوات العشرين التالية . وكان حجر الزاوية في سياسته هو استمرار الاستقرار في الولاية بالمحافظة على إجراءات هذه التسوية . لقد كان هذا الاستقرار ضرورة مطلقة للدفاع عن الولاية بوجه الخطر البيزنطي الذي لم يكن من الممكن تجاهله . ولم يكن مسموحاً لأي شيء أن يعكر صفو ولاء العرب في سورية ، ولا أن يحول اهتمامهم عن مسؤوليتهم الأولى في الدفاع عن الولاية . ومن أجل تنفيذ هذه السياسة حقق معاوية بصورة تدريجية سيطرة تامة على الهجرة الى سورية . فقد عمد ، بعد المراحل الأولى للتسوية ، الى ان استخدام صلاحياته بصفته والياً ، للحد من قدوم ابناء القبائل ذات القربى واستبدالها بالقبائل الموجودة في سورية[3] . ومن حسن الحظ ان هذه الخطة كانت تتلاقى الى حد ما بسياسة

---

١) البلاذري، فتوح، ص ١٢٢ و ١٣١؛ والطبري، ١، ٢٢٥٠؛ وابن عساكر، تاريخ دمشق، مجلد ١، ص ٥٩١

٢) البلاذري، فتوح، ص ١٢٨و١٣٣، و١٤٤ و ١٥٠

٣) ابو الفرج الأصفهاني، الأغاني، القاهرة، ١٢٨٥ هـ، جزء ١٨، ص ٦٩ ـ ١٧٠ والطبري، ١، ص ٢١٨٧ ـ ٨ و ٢٢١٨

المدينة القائمة على إبعاد قبائل الردة عن سورية . وكانت النتيجة ان الولاية تجنبت الانتفاضة والصراعات الاجتماعية التي نجمت عن موجات متتالية من تدفق القبائل الى الولايات الأخرى .

أما بالنسبة للتنظيم المالي الذي أدخله العرب الى سورية فقد كان بسيطاً كتنظيم استيطانهم فيها ، متلائماً معه . كان المسلمون يدفعون العشور على الأراضي التي بحوزتهم[1] ، وظل غير المسلمين يدفعون الضرائب على أساس التنظيم البيزنطي . ولهذه الغاية أبقي الكثيرون من موظفي الضرائب السابقين في خدمة أسيادهم الجدد . ومع أننا لسنا متأكدين من نقاط عديدة في النظام البيزنطي في سورية ، فالظاهر « أن ضريبتي الأرض والأعناق كانتا تفرضان ، في ظل الظروف المختلفة ، على القسم الأكبر من الفلاحين ، بينما كان نظام الضريبة الواحدة سائداً في المدن السورية من ناحية أخرى »[2] . وفرض العرب على الفلاحين دينارا واحداً وجريبا واحدا من الحنطة على كل شخص ، وربما كان ذلك على أساس الأراضي التي بحوزتهم . اما السكان غير المسلمين فظل العرب يجمعون منهم ضريبة الأعناق أو ما يعرف بالجزية بمعدل دينار واحد ، أو دينارين ، أو أربعة دنانير ، بالنسبة لثروة المكلف ، على ان الحصول على الاعفاء كان ميسوراً[3] .

ويبدو انه لم يكن قد وضع في هذه المرحلة الباكرة نظام لتوزيع مخصصات للعرب مع ان القادة كانوا على الأرجح يتناولون مبلغ ٢٠٠ دينار في السنة[4] . كان قسم من الضرائب يغطي النفقات الادارية العادية التي لم تكن كبيرة جداً ، بينما كان المتبقي من هذه الضرائب يستخدم لانشاء التحصينات على الساحل ، ولبناء أسطول عربي قبل أي شيء آخر[5] . والأرجح ان الحبوب التي تجمع كانت لا توزع إلا على العرب الذين استقروا في المدن ولم يعطوا أراضٍ زراعية[6] . وأما الذين استقروا في الأرياف فكان

---

١) البلاذري، فتوح، ص ١٥١ و ١٥٢ و ١٧٣ و١٧٧ و ١٨٠ ؛ وابو عبيد القاسم بن سلّام، الأموال، القاهرة، ١٣٥٣ هـ ص ٥٠٠

٢) Cahen, « DJIZYA »

٣) البلاذري، فتوح، ص ١٢٤

٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ ١ ، ص ٥٥٦

٥) البلاذري، فتوح ص ١٢٨

٦) المصدر السابق ص ١٢٤، و ١٢٥ و ١٥٢

عليهم ان يكتفوا بمحاصيلهم الخاصة . وهنالك نقطة مالية أخيرة طريفة هي ان سورية لم تكن تبعث أي جزء من مداخيلها الى المدينة على الاطلاق باستثناء الخمس المألوف من الغنائم .

وفي العراق نشأت مشاكل تاريخية هي في منتهى الصعوبة والأهمية بالنسبة لمشاكل الأقطار الثلاثة . وكما كان العراق مسرحاً لصراع مرير الى درجة غير عادية كذلك كانت المصادر متحيزة الى حد غير مألوف أيضا ، ومبالغة في إرباك تاريخ فترة هي بذاتها مضطربة . وقام الباحثون الحديثون بتقليد مصادرهم وجعلوا الغموض كاملاً تقريباً . وإزاء العجز عن تفسير الأصول ، راحوا يطبقون على وضع سابق أصولا فقهية لعصور تالية ليست بذات صلة بالموضوع . يضاف الى ذلك أنهم ، أمام عجزهم عن القيام بدراسة منتظمة لظروف فتح المناطق المعنية ، طبقوا هذه المعطيات الغامضة على مناطق مظلومة[1] . والأمل هنا ان يؤدي التفسير التالي على الأقل الى جلاء بعض الارتباك والى حمل الباحثين على مواصلة درس هذه المشاكل .

كان تركيب الجيش العربي الذي افتتح العراق هو العامل الرئيسي في المشاكل التي حلت بهذه الولاية خلال فترة طويلة بعد الفتح . وتظهر رغبة مصادرنا بالتأكيد على هذه النقطة بوضوح من المصطلحات المفصلة الدقيقة التي تستعملها للدلالة على مجموعات مختلفة أسهمت في الفتح ثم استقرت في العراق . وهنا نذكر ان الغارات على الممتلكات الساسانية كانت قد بوشرت في عهد ابي بكر وقامت بها قبائل معظمها من بطون شيبان في شرقي شبه الجزيرة العربية . ومما يؤثر عن هذه القبائل انها لم تشترك في تمرد المرتدين ولذلك يشار اليها بدقة في مصادرنا على أنها من أهل البلاء اعترافا ببسالتها في محاربة الساسانيين[2] .

ولما اشترك خالد بهذه الغارات على العراق كان جنوده ، باستثناء من بقي معه من أبناء مكة والمدينة ، ينتسبون في الغالب الى قبائل قليلة الأهمية[3] . ولكنهم مع ذلك

---

1) F. LOKKEGAARD, *Islamic Taxation in the Classic Period*, Copenhagen, 1950; D. C. DENNET, *Conversion and the PoLL - tax in Early Islam*, Cambridge, Mass, 1950.

2) الطبري، ١، ص ٢٠٢٨ و ٢٤٥١ وابن الأثير، الكامل، جـ٢، ص ٣٧٥ ـ ٦

3) الطبري، ١، ص ١٨٨٧ و ١٩٠٥ و ١٩١١ و ١٩٣٠ و ٢٠٢١ و ٢٠٢٨

أبطال العقرباء والمعارك الأخرى ضد المرتدين . ثم ان ولاءهم للاسلام لا يرقى اليه أي شك . يضاف الى ذلك ان توغلهم في أراضي الساسانيين أضفى على غاراتهم ميزة النصر العسكري . وجاء هذا النصر ، على رغم كونه ثانويا ، ذا أهمية في سلسلة الفتوحات الأخرى ذات الأهمية الكبرى . إن المعارك التي خاضها هؤلاء الرجال وكسبوها كانت ذات فائدة قصوى للاسلام ، كما كانت إثباتا رئيسا على صدق إيمانهم . لقد كان أبناء مكة والمدينة من بينهم يتميزون بأنهم من الأنصار او المهاجرين ، او من القرشيين على الأقل ، أما أبناء هذه القبائل غير المميزة فكانوا يعرفون بأهل الأيام ، أي الذين خاضوا هذه المعارك[1] .

لم تشتد الحملات على الامبراطورية الساسانية إلا بعد أن سمح لأهل الردة في عام ٦٣٣م/١٢هـ بالانضمام اليها بعد مجيء عمر الى الحكم . ثم كان الاعتراف لهم بدورهم الرئيس في معركة القادسية ٦٣٧ م /١٦هـ ، كما استبدل اسم أهل الردة الذي كان يدل على ازدراء بهم ، باسم أهل القادسية وهو اسم أدعى الى الاحترام والتقدير . وقد أطلق هذا الاسم الأخير على جميع الذين اشتركوا في المعركة ، من أبناء قبائل الردة او غيرها على السواء[2] . ثم ان الذين ظلوا يتدفقون الى العراق بعد معركة القادسية دعوا بالروادف، أي الذين جاؤوا فيما بعد . وكانت كل مجموعة من هؤلاء الرادفة تنعت بالأولى او الثانية أو الثالثة بحسب موعد وصولها[3] .

ليست هذه التسميات تعابير فارغة موضوعة لمجرد المفاخرة . انها تعابير ذات معنى . وقد استعملت آنذاك لهدف معين هو تحديد فضل كل مجموعة وخدماتها بدقة للقضية . وتقرير المكافأة المناسبة على هذا الأساس . لقد تعمد أبو بكر إقصاء أبناء قبائل الردة عن الغزوات الأولى ، وحرمهم من مثل هذه المكاسب السهلة . ولما سمح لهم عمر بالانضمام الى الحملة على العراق ، لم تكن نيته ان يعاملهم على قدم المساواة مع أبناء القبائل الأخرى الموثوق بها . لقد كانت سياسته تقضي باستخدام هؤلاء المتمردين السابقين دون ان يعين قادتهم في أي مركز مسؤول سواء في الجيش نفسه او في

---

١) المصدر السابق ص٢١١٠ و٢٢٠١ و ٢٨٥٣ و ٢٩٠٧
٢) المصدر السابق ص ٢١٦٥ و ٢١٨٣ و ٢٢١٧ـ٢٢و ٢٦٣٣ و ٢٨٥٢ ـ ٣ و ٢٩٠٧
٣) المصدر السابق ص ٢٤١٣ و ٢٤٩٦ و ٢٨٣٥

البلاد المحتلة[1] . وبكلام آخر ، أبقى نفوذهم في عملية اتخاذ المقررات في أدنى مستوى . والواقع انه أخضعهم الى مقررات قادة لم يكونوا ينظرون اليهم بعطف . وبالطبع ظهر هذا التمييز على أشده في معاملتهم عند توزيع المكافآت الناجمة عن الفتح . فكان نصيبهم ، كما سنبين بعد قليل ، أقل من نصيب أبناء القبائل غير المرتدة . وبالنسبة للذين جاؤوا في وقت لاحق ، وهم من أبناء قبائل الردة في الغالب ، فقد كان هذا الفارق كبيراً بحيث أنه كان لا بد أن يثير مشاكل جدية . ولفهم طبيعة هذه المشاكل لا بد للمرء أن يأخذ بعين الاعتبار ظروف الفتح ومعاملة السكان الأصليين وتنظيم العرب وعلاقتهم بالمدينة .

إن الانهيار النهائي للأمبراطورية الساسانية في العراق (حوالي نهاية عام ٦٣٧م/١٦هـ) أدى الى سيطرة الفاتحين العرب سيطرة كاملة على جزء من الامبراطورية هو أكثرها خصباً وكثافة سكان . وتعرف هذه البقعة في مصادرنا بالسواد ، وهي تمتد من رأس خليج العرب الى الموصل شمالا ، ومن حدود الصحراء السورية العراقية الى حلوان شرقاً . واذا كان العرب في سورية محظوظين بمعنى ان الكثيرين من السكان المحليين فروا الى بيزنطية وتركوا وراءهم من المنازل والأراضي ما يكفي لايواء الفاتحين ، فان هذا المشكل في العراق لم يحل بهذه السهولة . حقاً إن الملك الساساني والكثيرين من رجال البلاط وموظفي الحكومة فروا الى الشرق آملين أن يتمكنوا من استعادة مراكزهم في وقت لاحق ، لكن الأغلبية الساحقة من السكان والنبلاء المحليين ظلوا في أراضيهم . لذلك كان على العرب ان يقرروا مصير هؤلاء الأشخاص وممتلكاتهم معا . وقد يقال أن الأصول التي تنطبق على الغنائم المكتسبة في ميدان المعركة يمكن الاسترشاد بها ، إلا أن أحكام القرآن والسنة ، أي أحكام الرسول ، كانت شديدة التنوع والتعدد بحيث أنها لم تقدم نمطاً واحداً يسترشد به بالنسبة لقضية الغنائم والأسلاب في مثل هذه الأحوال غير المتوقعة إلا فيما يتعلق بوجوب إرسال خمسها الى المدينة . وكانت الصعوبة الأساسية هي ما اذا كانت الغنائم والأسلاب المكتسبة في ميدان المعركة ينبغي ان تشمل الناس والممتلكات في المنطقة المغلوبة أيا كانت الظروف . لقد كان الممارسة العربية المألوفة هي اعتبار كل شيء مكتسب ملكاً خاصاً للفاتحين

---

١) المصدر السابق ص ٢٢٢٥ و ٢٣٢٧

أنفسهم ، أما التمييز اللاحق بين الغنيمة والفيء فلم يكن قد وضع بعد ، إذ كانت الغنيمة تشمل كل ما يكتسب في ميدان المعركة ، بينما كان الفيء يشمل جميع المكاسب الأخرى .

والحقيقة ان هذه القضية حلت بطريقة عملية قائمة على الملاحظة والاختبار . فالرعايا الساسانيون الذين اعتنقوا الاسلام لم يخلقوا مشكلة ، والكثيرون من رجال الجيش الساساني أسلموا وانضموا الى الجيوش العربية واستقبلوا بترحيب حار وأعطوا أجوراً عالية[1] . ثم ان عددا صغيراً من الدهاقين، أي النبلاء المحليين ، اعتنق الاسلام وسمح له بالاحتفاظ بممتلكاته . اما المشكلة الأساسية فكانت تتناول الغالبية الساحقة التي لم تعتنق الاسلام . لقد استرق بعضهم في البداية وأرسلوا الى المدينة كجزء من الغنائم[2] . ومن الواضح ان مجموعة أبناء قبائل بجيلة أخذت رقيقاً أيضا كجزء من ربع الغنائم التي وعدوا بها لتشجيعهم على الذهاب الى الجبهة الساسانية . على انهم سرعان ما منحوا ٨٠ دينارا ، او ٤٠٠ دينار كما جاء في روايات أخرى ، للتنازل عن هذا الحق . وفسر بعض الباحثين هذا الحق بأنه اشارة الى ربع الأرض . ومن المسلم به ان مصادرنا تقول في بعض الأحيان « ربع السواد »[3] ، لكن هذا خطأ كلي لأن التقاليد المعنية تشير بوضوح الى الناس لا الى الأرض[4] . ان كلمة السواد هنا ينبغي ان يفهم منها أهل السواد أي ساكنو هذه البقعة . إن فكرة استرقاق شعب بكامله غير عملية الى درجة السخف . أولا : ان العرب لا يمكن ان يفيدوا من مثل هذا العدد الكبير من الأرقاء . ثانيا : ان الفاتحين هنا كما في مصر سرعان ما ادركوا أهمية الاقتصاد الزراعي كمصدر للدخل ، وقرروا ان مصلحتهم تقضي بالمحافظة على مثل هذا النظام[5] . وبما ان العرب كانوا قليلي العدد نسبيا فان الضرورة الاقتصادية فرضت أن يكون السكان

---

١) البلاذري، فتوح، ص ٢٨٠ و ٣٧٣ ـ ٤؛ والطبري، ١، ص ٢٤٩٩ و ٢٥٦٣

٢) الطبري، ١، ص ٢٠٢٦ و ٢٠٢٨ و ٢٠٣١ و ٢٠٣٦ و ٢٠٣٧ و ٢٠٧٧ و ٢٢٨٩

٣) المصدر السابق، ص ٢١٩٧ ـ ٨؛ والبلاذري، فتوح، ص ٢٦٧ ـ ٨

٤) البلاذري، فتوح، ص ٢٦٦ و ٢٦٨؛ والطبري، ١، ٢٣٦٩ ـ ٧٥؛ وابن سلام، الأموال، ص ٥٩؛ وابو يوسف، كتاب الخراج، القاهرة، ١٣٠٢ هـ ص ١٦ و ٢١

٥) فكر بعض الفاتحين في مصر في البداية بوجوب استرقاق السكان المحليين واقتسامهم بين الفاتحين، لكن هذا الرأي سرعان ما الغي حتى ان بعض الذين كانوا قد استرقوا اطلق سراحهم. انظر ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٨٢ ـ ٨

المغلوبون أحراراً لتأمين حراثة الأرض .

والأهم من ذلك ، من وجهة نظر تاريخية هو أن الأرض أيضا لم توزع . هذه هي النقطة الأساسية في هذا التفسير المقدم هنا . ان المصادر ورجال الشرع والمؤرخين والباحثين الحديثين على خلاف كبير حول توزيع الأرض ودخلها في العراق مما أدى الى شروح للوضع مرتبكة أيما ارتباك . ومرد بعض هذه الصعوبة الى محاولة التمييز الدقيق بين الخراج كضريبة على الأرض والجزية كضريبة على الأعناق . وفي هذه المرحلة كان تحديد هاتين الكلمتين يختلف من مكان الى مكان ومن وقت الى آخر ، ثم انهما كانتا تعنيان الضريبة او الدخل فقط بصورة عامة جدا . ومرد القسم الآخر من الصعوبة هو اعتبار التدابير البدائية التي اتخذها الفاتحون الأولون مبنية على مبادىء قانونية مصوغة بصورة محددة بدقة . إن أي جهد لجعل الشواذ او الاستثناءات في هذه الفترة تبدو وكأنها أوضاع منظمة تنظيماً جيداً بموجب أصول فقهية شرعية ، خاطىء بكل تأكيد . لقد كانت التدابير تتخذ بما يناسب مقتضى الحال مصادفة واتفاقاً لمعالجة أوضاع غير متوقعة . والحقيقة الأساسية هنا هي ان القسم الأكبر من الأرض بقي في أيدي السكان الأصليين شرط ان يدفعوا الضرائب المستحقة. ان عائدات هذه الضرائب هي التي كانت توزع بين الفاتحين . ان خالداً بالذات هو الذي قرر هذه السابقة في العراق . ففي غزواته الأولى استسلمت له ثلاثة مواقع أو أربعة بدون قتال وعقدت صلحاً حفظ لها حريتها وأملاكها مقابل ضريبة صغيرة . وبعد اقتطاع خمس هذه الضريبة لارساله الى المدينة كان القسم المتبقي منها يوزع بين جنود خالد[1] . والحقيقة هي أن أهالي هذه المواقع ظلوا حتى بعد فتح العراق نهائيا يتمسكون بقوة باتفاقيات الصلح المعقودة وواصلوا دفع هذه الضريبة القليلة ذاتها للفاتحين . وما هذه الحالة إلا واحدة من الأمثلة الشاذة في التسوية التي جرت في العراق . ومع ذلك فان هذه الحادثة الثانوية بذاتها هامة في انها وضعت نموذجاً لتوزيع الدخل . وعلى اثر هذه السابقة غير المقصودة كان القسم الأكبر من المداخيل العراقية يعتبر غنيمة ويقتطع منها خمسها ويبعث الى المدينة ، ثم يوزع الباقي منها بين الجنود الفاتحين .

وكانت هذه المداخيل تتألف من مجموع ضرائب محددة فرضت على أمكنة معينة

---

(١) الطبري، ١، ص ٢٠٢٦ و ٢٠٢٨ و ٢٠٣١

قررت الاستسلام من دون صراع طويل ، ومن ضرائب تجبى من مناطق أخرى . وليس من الصعب ان نتصور ان الضريبة المقررة كانت على الأرجح دون الضريبة التي كان الساسانيون يتقاضونها من هذه المناطق ذاتها . ومن الواضح ايضا ان عملية تحديد هذه الضرائب وجبايتها كانت متروكة للنبلاء المحليين او الدهاقنة كما أنه كان من غير المحتمل ان يكون في هذه المناطق سكان اعتنقوا الاسلام . وهكذا فقد ظل نظام الضرائب الساساني معمولا به غير أن قيمة الضرائب صارت أقل مما كانت عليه من قبل[١] . وفي المناطق الأخرى التي لم تعقد فيها اتفاقيات صلح ظل نظام الضرائب الساساني مطبقاً بواسطة الموظفين أنفسهم . لقد كان ذلك وفق الممارسة العربية المألوفة القاضية بإحداث أقل ما يمكن من التغيير لا سيما في مثل هذه القضايا المعقدة كالضرائب . وكان النظام الساساني يقوم على نوعين من الضرائب هما ضريبة الأعناق وضريبة الأرض . وكانت ضريبة الأعناق تفرض على كل فرد ، فلاح او ساكن مدينة ، بين العشرين والخمسين من سنه ، وكانت تحدد على أساس الدخل . وكان النبلاء والمحاربون ورجال الدين والموظفون المدنيون معفيين من هذه الضريبة[٢] . ومن الواضح ان المعنيين بهذه الضريبة هم المهنيون والحرفيون بالدرجة الأولى . اما الضريبة على الأرض فكانت محددة المعدل عينا او نقداً بالنسبة لمساحة الأرض ولنوع الانتاج فيها . وأبقى العرب ضريبة الأرض على نفس المستوى والأساس كالساسانيين بالضبط[٣] . كذلك أبقيت ضريبة الأعناق لكن حدها الأقصى كان ٤٨ درهماً وهو على الأرجح دون ما كان يفرضه الساسانيون . ثم ان الحد الأدنى كان ١٢ درهما . وهنا ايضا يرجح ان مجال الاعفاء كان أوسع مما كان عليه في ظل النظام الساساني[٤] .

وواجهت التسوية في العراق مشكلة أشد تعقيداً هي مشكلة الأراضي المهجورة ، والممتلكات الشاسعة التي كانت تخص العائلة الساسانية المالكة ، وأقاربها الأدنين ، وكبار النبلاء الذين فروا معها ، بالاضافة الى الممتلكات الضخمة التي كانت تخص

---

١) المصدر السابق ص ٢٠٤٩ ـ ٥١

٢) A. Christensen,L'Iransous *les Sassanides*,Copenhagen. 1936, PP. 118 - 24, 315 - 16و362

٣) الطبري، ١، ص ٢٤٦٧ ـ ٨؛ والبلاذري، فتوح، ص ٢٦٩ ـ ٧٠

٤) البلاذري، فتوح، ص ٢٧١

معابد النار[١] . ليست لدينا معلومات كافية عن الترتيبات التي كان الفلاحون يعملون بموجبها في هذه الأراضي ، ولكنه من المعقول ان نفترض أن الترتيبات كانت في صالح الاقطاعيين البارزين . كذلك يمكن ان نفترض ان الفلاحين ظلوا مرتبطين بهذه الأراضي على أساس التنظيمات الادارية الساسانية بعد ادخال بعض التحوير عليها . وهكذا توفرت اليد العاملة اللازمة للعمل في هذه الأراضي ولكنها صارت أراضٍ بلا مالكين . ولما كان العرب قد أرادوا أن تبقى هذه الأراضي الشديدة الخصب محروثة ومزروعة فقد عمدوا الى إبقاء الفلاحين على الارض لمواصلة العمل فيها . لقد كان تقسيم هذه الأراضي بين القبائل العربية التي اعتبرت نفسها مالكة للأرض بحق الفتح مستحيلا من ناحية عملية ، إذ أن هذا النظام كان لا بد من أن ينهار برمته بسبب انتشار هذه الممتلكات في السواد بأكمله[٢] . يضاف الى ذلك ان مثل هذا التدبير لا بد ان ينتج عنه توزيع الجيوش العربية نفسها في مساحة واسعة . ولذلك كان الحل الوحيد الممكن هو الاحتفاظ بالأراضي في ظل ملكية جماعية واطلاق اسم جديد على هؤلاء المالكين هو أهل الفيء[٣] . ولعل هؤلاء المالكين الجدد كانوا أكثر من الساسانيين تساهلا مع الفلاحين لأن العرب لم يفرضوا عليهم فيما يبدو أجراً معيناً لقاء زراعة هذه الأراضي . ويكاد يكون من المؤكد تقريبا ان معدلات الضرائب الساسانية على الأرض طبقت ايضا بحيث ان ذلك أدخل بكل تأكيد تحسيناً كبيراً على اوضاع الفلاحين المعنيين[٤] .

ثم أنشىء نظام أمانة عامة لادارة الأراضي ولجباية المداخيل وتوزيعها[٥] . وبالطبع كان الأمناء يختارون من اهل الفيء ومنهم أبناء قبائل ردة وقبائل أخرى لم تكن قد ارتدت . ولما كان مثل هذا المركز المسؤول لا يمكن ان يعهد به لأبناء قبائل الردة ، فانه كان يعطى بصورة تلقائية الى أبناء القبائل التي بقيت موالية للمدينة اثناء حروب الردة وأسهمت بجميع مراحل فتح العراق وظلت فيه بعد القادسية ، أي الى أهل الأيام

---

١) المصدر السابق ص ٢٧٢ ـ ٣ ؛ وابن سلّام، الأموال، ص ٢٨٣ ؛ والطبري، ١، ص ٢٣٧١ و ٢٤٦٧ .
٢) الطبري، ١، ص ٢٤٦٨
٣) المصدر السابق، ص ٢٣٧١ و ٢٤٦٨
٤) البلاذري، فتوح، ص ٢٦٩ ـ ٧١ ؛ والطبري، ١، ص ٢٤٦٧ ـ ٨
٥) الطبري، ١، ٢٤٦٩ و ٢٤٩٦

لا سيما وقد عاد أبناء مكة والمدينة بوجه عام الى الحجاز[١] . لقد غطت المعارك الكبرى التي أسهمت فيها هذه القبائل على معاركها السابقة . فالاكتفاء اذا بتسميتها بأهل القادسية يعني في الواقع اعتبارها مساوية لأهل الردة[٢] . ومن شأن ذلك ان يهدد مكانتها التي بلغتها بعد جهد شاق ، وان يهدد بالتالي مكاسبها التي حصلت عليها حديثاً . واصراراً منها على ميزتها هذه ، وحيال مسؤولياتها في الأمانة العامة ، فقد اكتسبت في النهاية اسماً جديداً هو القراء .

وقد فسرت هذه الكلمة على أنها تعني قارئي القرآن ، حتى من قبل بعض المؤرخين الأوائل نسبياً . ومع ان ذلك مقبول من حيث الاشتقاق اللغوي فانه يصعب القبول بفكرة وجود ألوف قراء القرآن ، منظمين في فصائل مستقلة ، يحاربون جميعا في صفين بعد سنوات قليلة من ذلك . واذا كان هؤلاء يشكلون صنفا من رجال الدين ، كما يراهم بعض المؤرخين ، فان المرء لا يتمالك إلا ان يعجب لوجود هذا العدد الكبير منهم ، ولا سيما في هذه المرحلة الباكرة[٣] . لا ريب ان تاريخهم يدل على أنهم شديدوالميل للقتال ، موحدون سياسياً ، ذوو مصالح مشتركة عديدة ، ينتسبون جميعا الى قبائل ظلت موالية للمدينة اثناء حروب الردة . ان هذه الدلائل جميعها تشير بصورة جلية الى المجموعة التي كانت تعرف من قبل بأهل الأيام . ان كلمة « قرّاء » يجب ان تفهم بأنها اشتقاق آخر من جذر قرى ، وهي تعني أهل القرى ، مما يدل على مجال عملهم المميز كأمناء[٤] . ولعل هذا الالتباس بشأن قراء القرآن أدخل من قبل إخباريي

---

١) المصدر السابق، ص ٢٤٥٦ و ٢٥٩٦

٢) المصدر السابق، ص ٢١١٠

٣) H. A. R. Gibb, « an Interpretation of Islamic History », *Studies on the Civilization of Islam*, London, 1962, PP 7 - 8 حيث يوصفون بانهم « جماعة دينية ».

٤) الواقع ان الفرزدق استعمل « اهل القرى » اشارة منه الى « القراء » الذين قتلوا في ثورة ابن الأشعث (انظر الفصل السادس ادناه). (ديوان الفرزدق، تحقيق ر. بوشيه، باريس، ١٨٧٠، جـ ١، ص ١٥١). ثم ان معنى القراء هذا اكده احد المثيقي في « شرح اليميني على تاريخ العتبي »، القاهرة، ١٢٨٦ هـ، جـ ٢، ص ٢٠٧ ، حيث يشرح المؤلف استعمال هذه اللفظة في سجستان ويستشهد باللغويين دعماً لشرحه . ومما له مغزاه ايضا ان نجد المسعودي يستعمل اهل القراء والأشراف بدلا من قراء. (علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب، تحقيق سي . باربييه دي مابنار وبي دي كورتاي، باريس، ١٨٦١ - ٧٧، جـ ٥، ص ٤٦٩). انظر ايضاً الفصل الثاني اعلاه حيث اعطيت الكلمة معنى آخر يختلف قليلاً.

القرن العاشر المسلمين الذين التبس عليهم أيضا أمر القراء السابقين في العقرباء . ثم انه يحتمل ان القراء أنفسهم شجعوا على ذلك لتعزيز مكانتهم التي كانت آخذة بالانهيار .

اما بالنسبة لتنظيم العرب في العراق فقد كانت هنالك سياسة مقررة هي الاحتفاظ بهم مجتمعين معا ، منفصلين عن السكان المحليين . لقد سكنوا في البداية في المدائن ، عاصمة الساسانيين ، في منازل المدينة المهجورة[1] . ولكنهم سرعان ما انتقلوا الى الكوفة عام ٦٣٩م/١٨هـ . وسبب ذلك ، إذا وثقنا بالمصادر ، هو ان المناخ لم يكن ملائماً لهم . على أن السبب الأكثر احتمالاً هو ان هذا القرار اتخذ بسبب موقع المدينة الاستراتيجي لارسال النجدة الى سورية اذا اقتضى الأمر[2] . ومن ناحية عسكرية أيضا ، كان عزل المدائن سهلا بهجوم يقوم به اقليم فارس القوي الذي لم يكن قد احتل بعد . يضاف الى ذلك أن السيطرة الفعالة على ابناء القبائل في مدينة كبيرة كالمدائن أصعب منها في معسكر الكوفة .

وسرعان ما أنشئت بلدة أخرى كانت معسكرا ايضا هي البصرة ، للتخفيف من ضغوط الهجرة المتواصلة الى العراق ، ونتيجة لفتح جبهة جديدة من قبل عرب البحرين في الخليج العربي . لقد استغل رجال هذه القبائل انهيار السلطة الساسانية وعبروا الخليج وغزوا اقليم فارس بمبادرة منهم[3] . ولم يكن الخليج عائقا امام هذه الغارات ، والأصح انه كان طريقاً رئيسة . اما العائق الحقيقي فكانت المقاومة الشرسة غير المتوقعة في الاقليم . وحيال الفشل في انشاء قاعدة مأمونة لهم في فارس فقد انسحب رجال القبائل الى منطقة البصرة وهي أكثر أماناً ، حيث انضم اليهم زملاؤهم من رجال القبائل في شرقي شبه الجزيرة العربية[4] . وبالمقارنة مع الكوفة ، فقد كان القليلون من مؤسسي البصرة من أبناء القبائل الذين اشتركوا بالغزوات الأولى او بفتح العراق بالفعل . إن غالبية عرب البصرة كانت تنتسب الى قبائل لم يقم أبناؤها بدور نشيط في

---

١) الطبري، ١، ص ٢٤٤٣ و ٢٤٤٤ و ٢٤٥١

٢) المصدر السابق، ص ٢٤٨٣ ـ ٦ و ٢٥١٥ ؛ والبلاذري، فتوح، ص ٢٧٥

٣) الطبري، ١، ص ٢٥٤٦ ؛ والبلاذري، فتوح، ص ٣٨٦

٤) الطبري، ١، ص ٢٥٤٨

حروب الردة لا في دعم المدينة ولا في محاربتها . ولعل بعضهم لم يعتنق الاسلام قبل نهاية هذه الحروب . وكان هؤلاء من قبائل تميم وبكر وعبد القيس والأزد[1] . وكان التجانس النسبي بين العرب في البصرة سبباً رئيساً في تجنبيها الكثير من الصراع الذي ساد الكوفة .

وكانت التجمعات التي انتظمت فيها القبائل في الكوفة والبصرة معقدة بعض التعقيد . ولئن كان تنظيم الجيوش العربية اثناء الفتح بدائياً جداً ، كما يمكن ان يتوقع ، فإنه كان لا بد من التفكير الجدي عند تخطيط المدن الجديدة التي استقرت فيها وتنظيمها . وكانت هذه القضية صعبة بصورة خاصة لأن القبيلة أي الوحدة العادية في المجتمع العربي ، لم تكن متلائمة مع الوضع الجديد . هنالك حالات قليلة انضمت فيها القبيلة كلها الى الجيش العربي ، أما في معظم الحالات فقد كانت أقسام من هذه القبائل ، أو فئات صغيرة جدا منها ، هي التي انضمت الى الجيش . ثم زاد الوضع خطورة انتقال المهاجرين المتأخرين الى العراق بطريقة غير منظمة أيضا . ومن الطريف أن نلاحظ أن تسميات مختلفة استعملت للاشارة الى هذه المجموعات . فاذا انضمت القبيلة بكاملها دعي أبناؤها بالبررة ، أي الذين أثبتوا ولاءهم وطاعتهم ، أما اذا التحق قسم من القبيلة فقط فكان أفراده يدعون بالخيرة أي النخبة . وهكذا تفاوتت القبائل في الكوفة تفاوتاً كبيراً من حيث أعداد أبنائها[2] . ومن أجل أغراض الاسكان والتنظيم الاجتماعي في المدينة الجديدة ، جمع أبناء القبائل ذات القربى في سبعة أقسام رئيسة . وكان كل قسم يحمل اسم القبيلة الرئيسة او اسم المجموعة القبلية الرئيسة كما كان كل قسم يمنح قطعة أرض كبيرة مهجورة حيث يبني أفراده منازلهم وجامعهم . وكان يؤخذ بعين الاعتبار أيضاً احتمال وصول نازحين جدد لدمجهم بالقبائل التي ينتمون اليها أو بالفئات الأخرى ذات القربى بهم[3] . وللأغراض العسكرية والادارية وزعت القبائل في الكوفة الى وحدات صغيرة متساوية تقريباً بصرف النظر عن الانتماءات القبلية . وكان عدد كل وحدة يعتمد على نصيب أعضائها من الدخل ، إذ أن كل وحدة كانت تعطى

---

١) البلاذري، فتوح، ص ٣٨٦. وللحصول على تفاصيل اضافية عن البصرة انظر: صالح العلي، « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة »، بغداد، ١٩٥٣

٢) الطبري، ١، ص ٢٤٩٥؛ وابن الأثير، الكامل، جـ٢، ص ٣٠٤

٣) البلاذري، فتوح، ص ٢٧٦ ـ ٧؛ والطبري، ١، ص ٢٤٩٥

١٠٠٠٠٠ درهم . وكانت كل وحدة ، او عَرافة ، بإشراف عريف مسؤول عن توزيع المخصصات على أعضائها ، وأعدادهم وتحضيرهم للخدمة العسكرية . واتبع هذا التنظيم الاجتماعي العسكري في البصرة أيضاً . إلا ان الفارق الوحيد هو انتفاء الحاجة لانشاء وحدات جديدة هنا[١] بسبب وجود تجمعات قبلية واضحة تم الاعتراف بها في الوقت المناسب لخدمة الأغراض ذاتها كالتقسيمات التي أحدثت في الكوفة . ثم ان البصرة كانت أفضل حالا إذ أنها جنبت صراعات التقسيمات المصطنعة . وحين أعيد تنظيم المدينتين بعد ٢٥ عاماً ، أدخلت تعديلات جذرية في الكوفة بينما بقيت التقسيمات في البصرة على حالها بصورة أساسية .

وبينما كان على أهل البصرة ان يوطدوا سلطتهم في المناطق المفتتحة حديثاً ، كان أهل الكوفة قد رسخوا سلطتهم في السواد . وعلى كل حال فقد ندر أن قام أحد من الكوفيين خارج موقع الحامية بصورة دائمة . إلا أن بعض أبناء القبائل كانوا يرسلون في حملات صغيرة لترسيخ السلطة العربية في صفوف العامة ، أو لاقامة حاميات صغيرة تدعى مسالح في الأرياف . وفي أحيان أخرى كان ولاة الكوفة العرب يكلفون أشخاصاً معينين لتحصيل المداخيل في مناطق خاصة . وقد رأينا من قبل ان مهمة جباية الضرائب ورعاية شؤون الحكومة المحلية بقيتا بأيدي الدهاقين ، أي النبلاء المحليين ورؤساء القرى . لذلك كانت هذه التعيينات تمثل الصلة بين الحكومة العربية في الكوفة والحكومات المحلية . ومن الطبيعي ان تشمل واجبات هؤلاء الأشخاص المعينين استلام الضرائب التي يجمعها الدهاقين ونقلها الى بيت المال . ولعلها كانت تشمل أيضا مراقبة عملية تحديد ضريبة الأعناق وجمعها . إن هذه الصلة الحيوية والمسؤولية الهامة لا يمكن ان يعهد بها الى أبناء قبائل الردة . والحقيقة هي انه لم يعهد بها الى أمثال هؤلاء . ومرة أخرى كان واضحاً ان القراء الذين كانوا يقومون بإدارة الأراضي المهجورة هم الذين عهد اليهم بمثل هذه المسؤولية . وتؤيد مصادرنا هذا الرأي بصورة واضحة إذ أن أبناء القبائل الذين وردت أسماؤهم في جميع النشاطات الجارية خارج الكوفة آنذاك ، كانوا كلهم تقريبا من القراء[٢] . وبينما كان أبناء قبائل الردة محصورين بالكوفة كان

---

١) الطبري، ١، ص ٢٤٩٦

٢) الطبري ، ١، ص ٢٤٥٥ – ٦ و ٢٤٦٣ و ٢٤٧٤ و ٢٤٧٨ و ٢٤٩٧ و ٢٥٩٦ و ٢٥٩٧و ٢٦٢٨ و ٢٦٣٧ و ٢٦٤٥

القراء يتنقلون مغتبطين في الأرياف حيث كانوا يتمتعون خلال جولاتهم التفتيشية بخيرات الأرض الكثيرة لأنه كان مفروضا على السكان المحليين ان يتسضيفوا كل عربي عابر ثلاثة أيام على الأقل[1] .

وكان طبيعيا ان ينقم أبناء قبائل الردة في الكوفة على هذه المكانةالخاصة الممنوحة للقراء في حكومة السواد . وهنا يجب ان نذكر ان هؤلاء المرتدين السابقين كانوا بصورة عامة ينتسبون الى قبائل ذات مكانة سامية في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام ، بالمقارنة مع القراء الذين كانوا ينتمون الى قبائل غير هامة نسبياً . فالأشعث بن قيس الكندي ، قائد الردة المشهور ، لم يكن زعيما عادياً لقبيلة عادية . لقد كان قبل الاسلام ملكا على حضرموت . ولا يمكن لأنصاره ان ينسوا مركزه هذا بسهولة . ولما كان الكثيرون من القادمين الى الكوفة في وقت لاحق من ابناء قبائل الردة فإن ارتفاع قادتهم السابقين الى مراكز القوة والنفوذ كان أمراً محتماً . وقد كان ذلك سهلاً لأن الأقسام الأساسية السبعة في المجتمع الكوفي كانت لا تزال تملك حق اختيار قادتها . وفي مثل هذا الوضع كان التفوق العددي على القراء يتم بصورة تدريجية كما كانت مكانتهم المكتسبة حديثاً تتعرض الى الخطر الشديد . فلا غربة ان يشعروا بالحرص الشديد على أوضاعهم في هذا المجتمع الجديد السريع التغير .

ومع أن هذا التوتر كان يتزايد بصورة تدريجية الى حد الانفجار فإنه ظل متزنا في البداية أمام فورة الفتح الكبير . وقد بلغت الغنائم المكتسبة في ميدان المعركة حداً كبيراً لا يمكن تصوره ، بحيث ان جميع الفرقاء كانوا راضين ولو بصورة موقتة . وكانت نقطة الالتقاء الوحيدة بينهم هي ان المتبقي من هذه الغنائم ، بعد اقتطاع خمسها لارساله الى المدينة ، كان يوزع بالتساوي بين الفاتحين . وكانت هذه القسمة المتساوية والأحجام الكبيرة للحصص تسهم في التغلب على مشاكل منها استرقاق أهل السواد وادارة الأراضي المهجورة . اما الآن ، وقد انتهت المعارك الكبيرة وانعدم عملياً وجود أي غنائم من ميادين المعارك ، فقد صار تحديد توزيع المداخيل المجموعة من السواد أمراً هاماً . ولما كان أبناء القبائل الذين اشتركوا في الفتح يعتبرون هذه المنطقة ملكاً لهم بحق الفتح ، فقد كان طبيعياً في الواقع ان توزع مداخيلها فيا بينهم . ثم نشأ بعض الشك حول ما اذا كان يحق للمدينة ان تنال خمس المداخيل ، كما كان لها الحق بنصيبها من

---

١) المصدر السابق، ص ٢٤٧٠

الغنائم المكتسبة في ميدان المعركة[١] . غير ان هذه القضية سويت لصالح المدينة فيما يبدو ، ولو ببعض التردد على الأرجح . وكان المتبقي من المداخيل المجموعة من الضريبة على الأراضي ، ومن ضريبة الأعناق ، ومن الأراضي المهجورة ، ومن أي مبالغ مدفوعة بناء على عقود صلح ، يوزع بين الفاتحين على شكل مخصصات سنوية . ومنحت مخصصات ضئيلة للذين جاؤوا في وقت لاحق . ولذلك كانت المخصصات التي تدفع في الكوفة تتراوح بين ٢٥٠ و ٣٠٠٠ درهم في السنة. ففي القمة كان مؤسسو الكوفة، أي فاتحو العراق الأولون ، يتناولون مخصصات تتراوح بين ٢٠٠٠ و٣٠٠٠ درهم . ومن الواضح ان قسماً كبيراً من هذا كان يمثل نصيبهم من إنتاج الأراضي المهجورة . وكان المبلغ الأكبر من المخصصات يعطى لأهل الأيام أي القراء . وقد كان ذلك ولا شك اعترافاً بمكانتهم الرفيعة وبخدماتهم الخاصة في حكومة السواد . أما القادمون الجدد الذين لم يكن لهم حق بالأراضي المهجورة فكانوا ينالون دون ذلك . كانت قلة منهم فقط ، هي مجموعة القادمين الأوائل بين القادمين المتأخرين تعطى نحو ١٥٠٠ درهم للفرد ، أما الغالبية من القادمين الجدد فكان نصيب الفرد منهم يتراوح بين ٢٥٠ و٣٠٠ درهم[٢] .

وفي البصرة كان القادة المعروفون فقط يتناولون ٢٥٠٠ درهم . وقد عرف هذا بشرف العطاء ، أي بمخصصات القيادة . وكان الآخرون أبناء القبائل يتناولون ما يتراوح بين ٢٥٠ و ٣٠٠ درهم كالعادة[٣]. ومع ان هذا المبلغ لم يكن كبيراً فقد كان الوضع يتحسن عند توزيع المواد الغذائية كل شهر من ضريبة الأراضي المتراكمة التي تدفع عيناً[٤] . ولا بد من الملاحظة على كل حال ان المخصصات المرتفعة هنا كانت استثنائية مما أدّى بلا شك الى تعزيز الانسجام ، والتجانس في البصرة . وخلافا لذلك كانت الفروقات في المخصصات في الكوفة سبباً آخر للتوتر بين الفاتحين الأولين من قبائل الردة ومن القبائل الأخرى ، من جهة ، والقادمين المتأخرين من جهة ثانية . إن الظروف غير العادية للحياة في موقع حامية عسكرية ، بالاضافة الى الشواذ التي تقع

---

١) المصدر السابق ص ٢٤١٨
٢) المصدر السابق، ص ٢٤١١ ـ ١٨؛ والبلاذري، فتوح، ص ٤٤٨ ـ ٦١
٣) الطبري، ١، ص ٢٤١٣ و ٢٤٩٦ و ٢٥٣٨ ـ ٩
٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٦٠

في تنظيم اجتماعي عسكري ، كانت تسهم في زيادة حدة التوتر في الكوفة بحيث ان الانفجار كان لا بد ان يحدث آجلا أو عاجلاً .

وننتقل الى بحث الوضع في المدينة التي كانت مركز الامبراطورية العربية الآخذة بالتوسع بسرعة . ولا بد إلا أن نشير هنا الى ان المدينة لم تكن تمارس أي سيطرة فعلية على الولايات المفتوحة حديثاً ، باستثناء اتخاذ المقررات التي تتناول السياسة العامة للنظام ككل . إن الحكم المركزي ، كما هو معروف ، لم يكن له أي وجود لأن مثل هذه المؤسسة تتطلب بيروقراطية واسعة في حين ان المدينة لم تكن تملك من ذلك شيئاً . وحده كان عمر ، خليفة الرسول ، يقف في خضم أحداث من شأنها ان تربك أكثر الحكومات الحديثة تنظيماً ومقدرة . ولم يكن بوسعه ان يعتمد إلا على المساعدة والاستشارة اللتين يقدمها قادة آخرون في المدينة طوعا واختيارا . إن مصادرنا تصف عمرا وهو في منصبه ، يتنقل في الشمس المحرقة ، يعد الجمال التي جمعت صدقة (حسنات أو ضرائب كانت تجمع من المسلمين آنذاك) . ولم تكن تتوفر له للقيام بهذه المهمة غير مساعدة طوعية من علي وعثمان لتدوين عدد الجمال ، شياتها وعيوبها[1] . واذا صحّ انه كان يتمتع بصلاحية تعيين قادة الجيوش والولاة ، أو أنه كان في بعض الأحيان يصدر إليهم التوجيهات المفصلة بالنسبة لمسؤولياتهم ، فإن وسائل تنفيذ هذه التوجيهات لم تكن متوفرة لديه . وما إن يغادر هؤلاء القادة المدينة حتى يصيروا وحدهم في مواجهة الظروف الجديدة غير المتوقعة ويشعروا أنهم أحرار في ان يتصرفوا وفق ما يقررون . ولعلهم كانوا أكثر تقيداً برغبات أنصارهم منهم بأية تعليمات من عمر . ولما زحف عمرو بن العاص لفتح مصر ، فإنه فعل ذلك بمبادرة منه بدون أمر من عمر .

وبرغم التزايد الكبير في المشاكل والمسؤوليات التي كانت تواجه عمرا ، وبرغم قوة شخصيته المهيبة ، فانه لم يكن يملك في الواقع أي سلطة تفوق سلطة سلفه المعتدل الذي كان يشرف على شؤون منصبه جزءا من الوقت وحسب . ولعل الفارق الوحيد هو ان عمرا استخدم حيويته الكبيرة وقوة شخصيته لدعم صلاحيات منصبه المحدودة . ومع ذلك فان جميع أعماله وأقواله المدونة توضح انه كان يعي حدود صلاحياته وعياً جيداً . فهو كأي قائد عربي سابق لا يملك إلا أن يقدم النصح ويحاول الاقناع ، لا أن يأمر . إن

---

١) الطبري، ١، ص ٢٧٣٦ ـ ٧

لقب عمر في الأصل هو خليفة خليفة رسول الله . ثم ان الذي قلناه عن لقب الخليفة بالنسبة لأبي بكر يصح ايضا بالنسبة لعمر . غير انه من الواضح ان اللقب بدأ يصبح طويلاً ولذلك استعمل لقب أقصر منه هو لقب أمير المؤمنين ، واعتمد مكانه بصورة عامة[1] .

ومن الخطأ الكبير ان نحسب ان هذا التحول الى استخدام لقب أشد بساطة يعني أي تغيير في صلاحيات صاحب هذا المنصب . ان ترجمة هذا اللقب الى اللغة الانكليزية على انه القائد الذي يقود المؤمنين خطأ فادح . إن أكثر القواميس شمولاً تعطي لكلمة الأمير معاني منها المعنى الظاهر المألوف لها ، والقائد العسكري ، ودليل العميان ، والزوج ، والمستشار او الناصح . ان هذا التفسير الأخير للكلمة ، أي الناصح ، هو الذي يمثل الحقائق الأساسية لمكانة عمر خير تمثيل . ومما له مغزاه ان تيوفانس المؤرخ البيرنطي في القرن التاسع ، ترجم عبارة أمير المؤمنين بكلمة تعني الناصح او المستشار الأول ، حتى انه أطلق هذه الترجمة على أمير المؤمنين في عهد بني أمية حين كان أكثر قوة وتسلطاً . ثم أطلق مؤرخون بيزنطيون لاحقون هذه الترجمة على أمراء المؤمنين العباسيين[2] . ولم يكن أمير المؤمنين بالنسبة للعرب قائداً آمراً . لقد كان أقرب شيء الى الناصح ، على غرار القيادة العربية التقليدية منه الى أي شيء آخر . على ان الأمر الذي لا بد من الاشارة اليه هنا هو ان الشعوب المغلوبة كانت أكثر اعتيادا على الحكم الديكتاتوري من الفاتحين . لقد كانت تنظر الى أمير المؤمنين على انه السلطة الأخيرة لرفع الظلم ، ولعلها كانت بصورة مؤكدة تقريبا تعتبره ملكاً .

ثم أن القسم الثاني من هذا اللقب ، أي كلمة المؤمنين ، يستوجب نقاشاً لقد بذل الكثيرون جهداً للتمييز بين « المسلمين » و« المؤمنين » فقالوا ان كلمة « المؤمنين » تعني الاطار الداخلي في الأمة الاسلامية في حين ان كلمة « المسلمين » تعني الأمة بكاملها . على انه يصعب ان نجد حلاً حاسماً لذلك في القرآن او في أي مصدر آخر من مصادرنا[3] . ومن حسن الحظ اننا لسنا بحاجة الى اللجوء الى دقائق تفصيلية فقهية إذ

---

١) المصدر السابق ، ص ٢٧٣٥ ـ ٦

٢) J. Wellhausen, *The arab Kingdom and its fall* tr. M. G. Weir, Calcutta, 1927, P. 138

٣) Gibb, « Interperation », P.P. 5-6; Watt, *Muhammad at Medina*, P. 226; serjeant, «The Constitu-tion of Medina », *Islamic Quarterly* vol 8, 1964, PP3 - 16

أن هنالك شرحاً مقبولاً لذلك هو ان أمير المؤمنين لقب سياسي لا ديني ، وأن كلمة « المؤمنين » أفضل لباقة وحكمة من كلمة « المسلمين » أي الذين استسلموا ولا يمكن لأحد ان يعترض على تسميته بالمؤمن لكن التسمية بالمستسلم لا بد ان تسيء الى كبرياء العصاة المرتدين ، وقد كان بين قادتهم ، ولا سيما في اليمن ، من عرف بالملك . لذلك لا يجوز إضفاء أي مغزى سياسي خاص على لقب أمير المؤمنين الذي اتخذه عمر لأنه لم يكن يعني أي صلاحيات جديدة . وكل ما في الأمر أنه تعبير مناسب لتجنب عبارة طويلة مزعجة هي خليفة خليفة رسول الله .

إن انعدام أي وسيلة للسيطرة الفعالة على الامبراطورية المترامية الأطراف ، وسلطة منصب أمير المؤمنين المحدودة ، هما الميزتان الرئيستان للعلاقة بين المدينة والولايات . ان الديوان الذي أنشأه عمر في العراق مثلا ، لتنظيم توزيع العطاءات ينبغي ألا ينظر اليه كتأكيد للسلطة المركزية بل كاعتراف رسمي بما أقره أبناء القبائل أنفسهم في العراق . ولعل ذلك كان محاولة يائسة من جهته لضبط أطماع الفاتحين واحتوائها . لقد كانت المدينة أول الأمر قانعة بخمس الغنائم الذي كان يرسل اليها من الولايات نظراً الى كمّيته الكبيرة . اما وقد أخذ تدفق هذه الغنائم من الفتوح يخف شيئاً فشيئاً . فقد وجدت المدينة نفسها مضطرة للبحث عن موارد دخل جديدة من الولايات .

في هذه الأثناء كانت المداخيل الناجمة عن الخمس والعشور في شبه الجزيرة العربية كافية لابقاء المدينة غنية . والواقع أنها كانت تسمح للحكومة أن تمنح عطاءات سخية تتراوح بين ۲۰۰۰ و۱۲۰۰۰ درهم لسكان المدينة ومكة . كان المكي الذي اعتنق الاسلام بعد فتح مكة يعطى ۲۰۰۰ درهم فقط ، أما أهل المدينة والمكيون الذين أسلموا في البداية فكانوا يتلقون ما يتراوح بين ۳۰۰۰ و٥٠٠٠ درهم ، يضاف الى ذلك علاوات خاصة للنساء والأطفال . وهكذا كان علي يحصل على ٥٠٠٠ درهم ، يضاف اليها عطاء خاص قيمته ٥٠٠٠ درهم لكل من ابنيه الحسن والحسين بسبب عاطفة النبي نحوهما . وكانت العطاءات الوحيدة التي تفوق ٥٠٠٠ درهم هي تلك التي تعطى لأرامل الرسول وقد كان عطاء الواحدة منهن ۱۲۰۰۰ درهم[١] . ولكن مثل هذه الحالة السعيدة لا يمكن ان تستمر الى الأبد ، وسرعان ما أخذت المدينة تطلب المزيد من

---

١) الطبري ، ١ ، ص ٢٤١٢ ـ ١٣ ؛ والبلاذري ، فتوح ، ص ٤٥٠ ـ ٧

الدخل . ثم سرعان ما صارت الأراضي المهجورة الشديدة الخصب في العراق مثلا سبب نزاع بين عثمان وأبناء القبائل في العراق . واذا كان عمر قد واجه صعوبة في توطيد سيطرته على عمال الولايات فقد كان صعبا الى الحد ذاته ايضا على هؤلاء الولاة ان يفرضوا سلطتهم . وقد حاول عمر ان يوطد سلطته وسلطة الوالي معاً بإحداث ما يمكن ان يوصف بالقيادة الاسلامية . كان هذا يعني تعيين رجال قام تميزهم على ولائهم للاسلام ، كعمار بن ياسر الذي عينه عمر والياً على الكوفة . ولكن التجربة فشلت لأن عمار كان جديداً في فن الحكم كما هو واضح ، مما اضطر عمر الى العودة الى سياسيين متمرسين كالمغيرة بن شعبة الثقفي برغم سمعته المشبوهة في ممارساته للدين الاسلامي[1] .

وكان عمر عند اغتياله المفاجىء يعي بصورة مؤلمة مشاكل الامبراطورية وعجزه عن حلها . كانت الأحداث تتحرك بسرعة كبيرة ، وكانت الامبراطورية تتسع بسرعة كبيرة أيضاً ، كما كان أبناء القبائل يمارسون استقلاليتهم بشراسة ، وينزعون بقوة الى اعتبار الولايات المحتلة ملكاً خاصاً بهم . يضاف الى ذلك ان التوتر الاجتماعي كان عميقاً جداً ، في حين ان الولاة كانوا أبعد شيء عن الخضوع لإشراف أو مراقبة . ان النظام الذي أنشىء في المدينة كان في طبيعته غير مناسب لتطوير القدرة للسيطرة على دوامة السياسات الامبراطورية كما انه لم يكن يستهدف ذلك أيضا . لقد كان سلاح عمر الوحيد لمواجهة هذه الدوامة العصية من الأحداث ، وللسيطرة عليها ، هو وضعه كناصح مرشد . وقد كان يتضح بصورة متزايدة ان هذا السلاح بعيد عن ان يكون وافياً بالحاجة .

---

١) الطبري، ١، ص ٢٦٤٥ ؛ والبلاذري، فتوح، ص ٢٧٩

الفصل الرابع

انهيار حكومة المدينة

ليس أفضل من عمر بن الخطاب بالذات للحكم على النظام الذي ترأسه عشر سنوات. ثم ان كون عمر لم يعمد الى تعيين خليفة له قضية لم تعط بوجه عام ما تستحقه من الأهمية. وليس هنالك أي سبب لعدم قيامه بذلك. فيما يبدو كان طبيعيا لأبي بكر، أن يعين خلفاً له وكذلك كانت لعمر سلطة معنوية مماثلة، ان لم نقل اقوى، ليقوم بالشيء ذاته. وبما انه لم يفعل ذلك حين كان يوجد الكثيرون من القادة من ذوي المكانة السامية لاختيار احدهم، فقد جاء اهماله امر التعيين دليلاً واضحاً على انه لم يكن مقتنعا بان منصب امير المؤمنين يستطيع ان يواجه المقتضيات التي تتطلبها الامبراطورية بصورة وافية، وعلى انه لم يكن مستعدا للتوصية باستمراره.

ومع أن الأمة خرجت حتى الآن سليمة من آلام المخاض التي رافقت حروب الردة، ومن المتاعب المتفاقمة حيال اتساع الفتوح، فقد كانت هنالك دلائل واضحة على قرب حدوث الانفجار. لقد كان المكيون سريعين في اغتنام الفرصة لجمع ثروات طائلة في انحاء الامبراطورية، وكذلك كان حكام الولايات أيضاً[1]، حتى أن قرار عمر بارغام الولاة على تسليم بيت المال في المدينة نصف ثرواتهم عند انتهاء مدة وظيفتهم لم يكف لوقف هذا الاتجاه. ثم أن أبناء القبائل كانوا مستائين من اثراء المكيين والولاة، وان كانوا هم ايضا حريصين على اوضاعهم الاقتصادية، ناقمين على القادمين الجدد لمقاسمتهم

---

١) كانت العمليات المصرفية التي يقتضيها اقتسام الغنائم مناسبات فضل لجني الأرباح السريعة. وقداصبح عمرو بن حريث القرشي من بني مخزوم أغنى رجل في الكوفة بفضل مثل هذه العمليات. انظر الطبري، ١، ص ٢٦٠٠.

غنائم الفتوحات. وفي المدينة نفسها كان عمر بذاته يجوب الشوارع والسوق العامة ليتأكد من تنفيذ العدالة[1]. كذلك حاول أيضا ان يقوم بجولات تفتيشية خارج المدينة، وزار سورية أيضا، الا انه كان يستحيل عليه ان يترك أثراً دائماً في هذا المجال. لم يكن أمير المؤمنين يملك السلطة ولا الوسيلة للسيطرة على ما يجري. وهكذا كانت الأحداث في الولايات تتجه نحو الفوضى بسرعة وهو في المدينة لا حول له ولا طول. لقد اخذ رجال القبائل يدركون قوتهم ويقدرون استقلاليتهم. والأسوأ من هذا كله انهم بدؤا يرتبطون بأمكنة اقامتهم الخاصة وينتسبون اليها. لقد ولدت روح اقليمية استقلالية قوية، وجاءت محاولات الولاة لتوطيد قياداتهم في وجهها ضئيلة الجدوى.

ان تعيين عمر للشورى، او لهيئة من ستة أشخاص، ينبغي ان ينظر اليه ضمن هذا الاطار. ولم تكن هذه الهيئة مجلساً للدولة لتقديم النصح لأمير المؤمنين المقبل اذ ان اعضاءها تفرقوا على اثر انتخاب عثمان. ثم انها لم تكن مجمعاً اسلامياً أو هيئة معينة خصيصا لاختيار خليفة لعمر من بين اعضائها. هذا هو التفسير المألوف، ثم ان له في المصادر ما يدعمه. غير ان هذه المصادر كانت في الغالب تنظر الى هذه الأحداث بمنظار القرن التالي، حين كانت الخلافة قد اصبحت مؤسسة راسخة حقا، وعجزت الأجيال التالية عن تصور التشكيك بجدواها اطلاقاً.

لقد آثر عمر، كالرسول قبل وفاته، ان يبقي قضية القيادة مفتوحة وان يترك للامة ممثلة بلجنة الصحابة الستة البارزين، تقرير القضية بنفسها. ان التفسير المألوف، اذا صح، لا ينقص هذا التفكير لأن شخص الخليفة ونوع القيادة المطلوبة كان بطبيعتها قضيتين متشابكتين لا يمكن الفصل بينهما. وواضح ان الأعضاء الستة سرعان ما قرروا ان منصب امير المؤمنين هو الأفضل للامة. وبعد بضعة ايام من المساومات الصعبة والمشاورات الواسعة مع كبار القادة في المدينة، انحصر الاختيار بين مرشحين هما علي بن ابي طالب، وعثمان بن عفان[2]. الأول هو ابن عم الرسول وصهره، والثاني احد ابناء أمية، من قريش وزوج اثنتين من بنات النبي.

---

1) الطبري، ١، ٢٧٤٢ ـ ٥ .

2) المصدر السابق، ص ٢٧٨٣ ـ ٥

والواضح ان الهيئة لم تكن منقسمة لأسباب شخصية وحسب، ولكنها كانت منقسمة ايضا حول مفهومها للصلاحيات التي يجب ان يتمتع بها امير المؤمنين، اذ ان الهيئة عرضت المنصب في النهاية على علي شريطة ان يواصل سياسة ابي بكر وعمر. ولعل ذلك كان تسوية بين معارضي علي لاسباب سياسية ومؤيديه لاسباب سياسية وشخصية. ورفض علي هذا الشرط رفضا قاطعا واصر على ان يكون له الحق بالتقرير وفقا لمقتضيات الأحوال. وبكلام آخر، رفض علي المنصب ما لم يوسع الحد الأدنى لسلطته الزمنية وذلك على الأرجح باضفاء شيء من السلطة الدينية على المنصب لأول مرة. عند ذاك عرض المنصب على عثمان على الأساس ذاته، فقبله بدون قيد أو شرط. وعلى الفور نودي به امير المؤمنين الجديد[1].

ان عليا برفضه اقتفاء خطوات ابي بكر وعمر، وباصراره على ان يكون اميراً للمؤمنين متمتعاً بصلاحيات ومسؤوليات معززة، دل على انه كان يعي الضغوط التي احدثها التغير الدائم في الأمة وعياً جيداً. ان هذا الاصرار على وجوب نهج سياسة جديدة لمواجهة ظروف جديدة جعله بصورة تلقائية قائداً لقوى التغير، وبطلاً وملتقى تجمع للمعارضة. ومع مرور الوقت عدّ نظره الثاقب « معرفة شبه الهية » هي التي صارت فيما بعد حجر الزاوية في الأصول والسياسة الشيعية.

لقد وقع الاختيار على عثمان لأنه كان مأمونا كمرشح محافظ. على ان هذا الاختيار لم يكن موفقا من نواح عديدة، اذ ان عثمان كان وثيق الصلة بالمصالح المكية. لقد كان علي أفضل منه من هذه الناحية لأنه، وهو القرشي المكي المولد، مدني في روحيته. لقد صرف سنوات نشأته مع الرسول تحت سقف واحد خلال اقسى فترة واجهها النبي في مكة، مما لم يترك فيه انطباعا جيدا عن اقاربه. ثم عاش في المدينة بصورة متواصلة منذ الهجرة. لقد كان المرشح المفضل عند اهل المدينة بكل تأكيد، وقد محضوه تأييدهم حتى وفاته. ولا بد ان هذا التأييد كان الدعامة الأقوى له في مناقشات

---

١) المصدر السابق، ص ٢٧٨٦ و٢٧٨٨ و٢٧٩٣ ـ ٤ ، والبلاذري : أنساب الأشراف، جـ٥، تحقيق س. د. غويتين، القدس، ١٩٣٦، ص ٢٢ .

الهيئة السداسية. اما عثمان فكان، من ناحية اخرى، مكيا حتى الصميم برغم اعتناقه الاسلام منذ وقت باكر، وولائه الدائم له طوال حياته. لقد قضى القسم الأكبر من حياته في مكة. وكانت له بحكم ثروته الكبيرة علاقات تجارية واسعة فيها، كما انه كان يفهم مصالح قريش فهما جيدا. ولكن ولاءه العميق للاسلام جعل اعتراض المسلمين عليه اضعف مما كان يمكن ان يكون من حيث انه قرشي حتى الصميم وواحد من بني امية الذين اشتهروا بعدائهم للاسلام.

ويمكن القول ان عامل الزمن كان يفرض اقصاء القادة القبليين ولكن اقصاء اهل المدينة، اي الانصار، كان، على ما يبدو، خطأ غريبا. لعل ذلك كان مقصودا، او لعله كان مفترضاً ان يكون المهاجرون المكيون يتمتعون بالكفاءات الضرورية لتسوية شؤون الأمة. على ان ذلك، مهما كان الدافع اليه، لا يغير شيئاً من حقيقة ان هذه الهيئة السداسية لم تكن ممثلة للامة في الاساس. ولعل مثل هذه الهيئة كانت تلائم مكة قبل الاسلام، وهي كذلك فعلا. اما بالنسبة للمدينة فان هيئة الشورى هذه كانت غير وافية أبداً حتى لو اغفلنا بقية المسلمين في انحاء الامبراطورية. ان ستة من المكيين لا يستطيعون ان يتحولوا ببعد النظر اللازم لتقدير المصالح المتناقضة في امبراطورية كبيرة. ومما يثير الدهشة ان يكونوا فكروا بعلي أولا، لكنه طبيعي ان يكونوا لجأوا في النهاية الى اختيار عثمان، وهو المحافظ المضمون.

بدأ عثمان خلافته بهدوء، وبدا لبعض الوقت انه يرضي الجميع، وتقسم مصادرنا عهده (٦٤٤ ـ ٥٦ م/ ٢٣ ـ ٣٥هـ) الى قسمين اولهما ست سنوات جيلة وثانيهما ست اخرى رديئة[١]. على ان هذا التقسيم شديد التبسيط بحيث لا يمكن ان يكون صحيحاً كل الصحة ولو انه يعكس حقيقة اكيدة. ففي القسم الأول من عهده نفّذ عثمان ما وعد به عند اختياره باتباع سياسات سلفية. لكن الأحداث كانت تتحرك بسرعة كبيرة بحيث لم يعد يمكن انتهاج تلك السياسات وقتا اطول[٢]. لقد توافق عهده مع موجة جديدة من الهجرة الى العراق ومصر. ولا بد ان عثمان قرر أخيراً انه لا يستطيع ترك المبادرة بأيدي

---

١) البلاذري، أنساب، جـ٥، ص ٢٥ و٢٦ .

٢) المصدر السابق، ص ٤٢

رجال القبائل، مكتفيا بمنح اعترافه الرسمي بمقرراتهم[1]. لقد كان عليه ان يفرض نفسه، وان يوطد بعض السيطرة على الولايات. ولكن هذه السياسة الايجابية قادته في النهاية الى حتفه. ان الضعف الذي اشتهر به لم يكن في شخصيته. ان خطأه الوحيد الذي تورده المصادر الموثوقة هو انه كان في منتهى اللطف، على ان هذا ليس بالشيء الخطير. ان ضعفه كان في سياسته[2]. وقد كانت خطته السياسية الجديدة تقوم على ممارسته سلطة تفوق السلطة التي يفترض ان يملكها، بحيث كان يمكن لهذه الخطة ان تثير خصومة المسؤولين عن اختياره ايضا. ولكن هذه السياسة ليست خطيرة بحد ذاتها على كل حال، اذ ان المهاجرين المكيين والقرشيين الآخرين كانوا ولا ريب يدركون مصاعبه واضطراره للقيام بعمل ما. انهم سيظلون مناصرين له طالما انه لم يتعرض لمصالحهم المباشرة.

كانت خطوته الأولى تستهدف تحقيق المزيد من السيطرة على عمال الولايات. وبصفته قائد قبيلة كبيرة، فقد كان طبيعياً بالنسبة له، أن يختار الولاة من بين اقاربه. كان معاوية ابن عمه واليا في سورية،وهو مرضٍ جدا فلا لزوم للتغيير. اما في مصر فقد عزل عمرو بن العاص المستقل برأيه بعبد الله بن سعد بن ابي سرح، ، اخيه بالرضاعة ومساعده ايضاً، وهو الخبير مثله بشؤون مصر[3]. وعهد بالولاية على الكوفة للوليد بن عقبة، نسيب الخليفة، لكنه استبدل في وقت لاحق بسبب عدم كفاءته بنسيب آخر هو سعيد بن العاص. ثم ان نسيباً آخر هو عبد الله بن عامر الشاب الذي يبشر بمستقبل مرموق عين والياً على البصرة. وبذلك يمكن للمرء ان يفهم سبب اتهام عثمان بمحاباة اقاربه لكن هذا ليس ما نتوخاه هنا. ان جميع هؤلاء الرجال، باستثناء الوليد الذي صرف، كانوا يتمتعون بدرجة عالية من الكفاءة كما كانوا في الغالب ذوي خبرة. ولهذا السبب عينهم عثمان. لقد كان يستطيع ان يثق بهم اذ ان مركزه كقائد قبيلة بات الآن

---

١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٢٣ و١٢٨ والطبري، ١، ص ٢٨١٤، والبلاذري، فتوح، ص ٢٢٦ .

٢) البلاذري، أنساب، جـ٥، ص ٤ و٥ و١٠

٣) الكندي، الولاة ص ١٠ ـ ١١ .

يعزز علاقته بهم كولاة. ان سياسته هذه سياسة مدروسة وذكية لتعزيز مركز امير المؤمنين حتى ولو كانت عرضة للتشويه.

وكانت خطوة عثمان الثانية هي اعطاء صمام امان لطاقات وتناقصات المدن المعسكرات التي كانت تنمو بسرعة في مصر والعراق، بمباشرة سلسلة من الحملات المدروسة بعناية على جميع الجبهات في وقت واحد. فمن مصر قاد ابن ابي سرح القوات العربية متوغلاً في شمالي افريقيا. ومن البصرة انطلقت حملات كبيرة بقيادة عبد الله بن عامر واحتلت ما تبقى من الامبراطورية الساسانية. كما اندفعت من الكوفة حملات اخرى نحو الشمال لغزو اقاليم القفقاس. واصابت هذه السياسة نجاحاً بمقدار ما اتت به من ثروة وغنائم ومداخيل هائلة جديدة الى مصر والعراق، ومنهما الى المدينة، نتيجة لارسال خمس المكاسب المألوف اليها. واعطت هذه الثروة الجديدة عثمان الفرصة للاستجابة لطلبات القادمين الجدد من دون اثارة عداء الجنود القدماء. وقد منح كل واحد عطاء قيمته ٣٠٠ درهم في السنة، وكان ذلك مرضياً بسبب ما اضيف اليه من الغنائم. هكذا كانت الحالة في البصرة بصورة خاصة لأن الثروات المجلوبة من خراسان كانت تفوق ما حصلت عليه الكوفة من مناطق القفقاس الى حد كبير، ولأن البصرة لم تكن تعاني من الشوائب التي كانت تقع في الكوفة عند توزيع الغنائم[1]. كانت البصرة راضية، وقد ظلت بصورة عامة شاكرة وموالية لعثمان ولذكراه.

أما مشكلة الكوفة فبقيت بغير حل على كل حال. وقد لاقى عثمان فشله الأول الكبير في محاولته تعزيز سلطته وتنظيم الوضع في الكوفة وولايتها. وادت سياسته الى اغضاب القراء فصبوا جام غضبهم على رأسه. وقد كان هؤلاء بصورة خاصة ذوي اهمية اذ انهم كانوا يسيطرون سيطرة فعالة على ادارة الأرياف في العراق. والأهم من ذلك انهم كانوا يقومون بادارة الأراضي الساسانية الشاسعة المهجورة في السواد، وكانوا من ناحيتهم يعتبرونها ملكا لهم تقريباً[2]. ان امير المؤنين لن يستطيع ترسيخ سلطته ما لم تتحطم سلطتهم هذه في العراق.

---

١) للمزيد من التفاصيل انظر : M.A. Shaban, *The Abbasid Revolution*, Cambridge, 1970, pp. 31-2.

٢) الطبري، ١، ٢٩٠٨، والبلاذري ، أنساب، جـ٥، ص ٤٠

لقد تركز الصراع حول الأراضي المهجورة. وهي اراض لم تكن موزعة، انما كانت ادارتها بايدي القراء، وكان دخلها هو الذي يوزع على القدماء من الذين خاضوا حروب الفتوح. وكان القراء، كما ذكرنا، يعتبرون انفسهم مالكي هذه الأراضي الغنية جدا ملكية تامة تقريبا، ولم يجرؤ عثمان ان يتحدى هذا الحق المزعوم علنا لكنه اتخذ نحوه خطة نفذها على مراحل . ففي البداية قال ان القدماء الذين رجعوا الى مكة والمدينة لم يفقدوا بعودتهم حقوقهم بتلك الأراضي ، وطالب لهم بما يحق لهم من نصيب عادل . فرد القراء على هذا القول بأن المداخيل لا يمكن ان تجمع البتة بدون وجودهم المستمر في العراق . ولم تكن هذه الحجة مقنعة جدا ولكن القراء ، حيال تملق سعيد بن العاص وتوسلاته ووعوده لهم ، نزلوا أخيرا عند خطة عثمان ووافقوا على نظام شديد التعقيد لتبادل الحقوق بالاراضي . ان طلحة ، وهو المكي السابق البارز ، مثلا ، أعطى خيبر في الحجاز مقابل حق المقيمين من أهل المدينة في بعض أغنى المزارع في السواد . واستبدل الأشعث بن قيس أراضيه في حضرموت بأراض أخرى أكثر غنى في السواد[1] . وقد قيل ان عثمان وزع الكثيرمن اراضي السواد للكثيرين من المكيين إلا أن ذلك قد يكون جرى على الأرجح اثناء بعض معاملات استبدال أخرى اكثر إثارة للريبة . وكانت نتيجة هذه العمليات ان اكتشف القراء في وقت متأخر ان قاعدة قوتهم الاقتصادية تتحطم شيئا فشيئا بتوزيع أراضيهم بصرف النظر عن حقوقهم فيها .

ثم جمع عثمان بين الاساءة والاهانة اذ قضى نهائيا على التفريق بين مسلمي الردة والمسلمين الذين سبقوا الردة. كان عمر قد وظف رجال قبائل الردة الا انه اكد على اقصاء زعمائهم عن مركز المسؤولية. اما في عهد عثمان فقد نبذت هذه السياسة. وبواسطة سعيد بن العاص تم تعيين رجل كالأشعث بن قيس قائدا لجبهة اذربيجان[2].

صمم القراء على المقاومة. وفي عام ٦٥٥ م/ ٣٤ هـ اصطدموا بسعيد بن العاص عند قرية صغيرة مجهولة بقرب الكوفة تدعى الجرعة وهو في طريق العودة من اجتماعه بعثمان في المدينة، ومنعوه من دخول الكوفة، وانتخبوا ابا موسى الأشعري واليا عليهم،

---

١) الطبري، ١، ص ٢٨٥٤ - ٦
٢) المصدر السابق، ص ٢٩٢٧

وارغموا عثمان ان يقرهم على هذا التدبير العنيف[١]. ولهذا الاختيار مغزاه اذ ان ابا موسى هذا هو الذي اختاره هؤلاء القراء انفسهم حكما بعد معركة صفين. ثم ان صدام الجرعة كان حاسماً ايضا اذ انه كان التحدي المكشوف الذي يقوم به رجال القبائل لأول مرة لسلطة امير المؤمنين المتزايدة. صحيح انها اقلية قامت بهذا التحدي ولكنها اقلية فاعلة تعادلت فيها شكواها الصاخبة المتذمرة دفاعاً عن حقها بقوتها الخطرة الفعالة.

وفي مصر كانت الخلافات حول المال ايضا مضرة بوضع عثمان، غير ان الصراع هنا لم ينشأ حول الأرض بل حول توزيع الغنائم. لقد اراد ابن ابي سرح ان يغري المزيد من القادمين الجدد للانضمام الى حملاته، فوعدهم بنصيب اكبر في الغنائم. غير ان الجنود القدماء هنا، كالجنود القدماء في كل زمان، اعترضوا بقوة على هذا التفاوت اذ ان حصصهم كانت متدنية، واشاروا باستياء عنيف الى عادة تساوي الحصص في السابق[٢]. الا انه لا حاجة بنا للتوقف عند هذا الاستياء المحق لأن الوالي كان يستطيع ان يشير ايضا الى مناسبات سابقة في حياة الرسول تبرر تدابيره هذه.

ولم يكن أي من الطرفين مصيباً كل الاصابة أو مخطئاً كل الخطأ، اذ ان سياسة الرسول بشأن توزيع الغنائم كانت متغيرة، وبناء على ذلك فان التفسير المتبع كان سياسيا اكثر منه فقهيا.

ثم نشأ خلاف آخر عندما صار ابن ابي سرح شديد التدقيق بأساليبه المالية مظهراً اقصى الشدة عند جمع المداخيل واقصى التقتير عند توزيعها. وكانت هنالك اسباب معقولة تماماً لمثل هذه الخطة اذ ان المال كان لازماً للقيام بالحملات العسكرية ولبناء بحرية عربية للحد من السيطرة البيزنطية على البحر الأبيض المتوسط. ولكن الشيء الذي كان الجنود القدماء يستطيعون ادراكه هو التهديد الرهيب لمكانتهم. وهنالك امرا آخر لعله الأقرب للتصديق هو انهم كانوا يخشون ان يكون ابن ابي سرح شديد القسوة بالنسبة للشعب المصري بحيث يدفعه للعصيان[٣].

---

١) المصدر السابق ص ٢٩٢٩ ـ ٣٦ ، والبلاذري، أنساب، جـ٥، ص ٤٤ ـ ٧

٢) الطبري، ١، ص ٢٨١٤ ـ ١٥

٣) الطبري، ١، ص ٢٨١٩ ، ٢٨٦٧ ، ٢٩٩٣ ، والبلاذري، أنساب، جـ٥، ص ٢٦ وابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٩٠ .

لما بلغت هذه الشكاوى عثمان، عزم على ايفاد عمار بن ياسر للتحقيق في الأوضاع. وسرعان ما تبين ان عمارا لم يكن الرجل الملائم للقيام بمثل هذه المهمة. فهو لم يكن يملك حياد المحقق المثالي اذ ان الفضيلة بالنسبة له كانت كلها في أسبقية الولاء للاسلام. وصحيح انه كان واليا على الكوفة في عهد عمر غير أن أصله كان غامضا. ثم نشأ رقيقا برغم انه عربي. وهكذا فان شهرته كانت قائمة على شيء واحد هو اعتناقه الاسلام في سنواته الأولى. وفي هذه الحالة كان محتوما تقريبا ان يقف الى جانب الجنود القدماء. وكان تقريره غير ذي فائدة البتة، وعاد من مهمته وقد انقلب الى خصم عيف ناقم على نظام عثمان[1]. والحقيقة ان الأمويين وانصارهم نظروا اليه، بعد مقتل عثمان، على انه احد المحرضين الأساسيين على التآمر.

ثم ان جهود عثمان للتأكيد على سلطته كأمير المؤمنين قادت الى خطأ آخر لا يغتفر. وكان هذا الخطأ يتعلق بالمال ايضا، على انه كان في هذه المرة، يتعلق بتوزيع خمس الغنائم المرسلة الى المدينة. لقد اشرنا من قبل الى ان احكام القرآن والسنة بشأن هذه القضية البالغة الدقة كانت عرضة لتفسيرات مختلفة من جانب الفئات ذات المصلحة[2]. ولا غرابة اذا في ان ابا بكر وعمر كانا لبقين حذرين في هذا الشأن، وذلك على الأرجح بالمطالبة ببعض الحرية في التصرف بخمس هذا الخمس. اما عثمان فكان اقل حذرا، ومارس حرية في التصرف بشجاعة بالمبلغ بكامله[3]، اذ كان، بعد دفع العطاءات، يستخدم المتبقي منه وفقا لما تقتضيه المصلحة العامة في نظره. ولما كان عثمان شديد الغنى والسخاء فانه لا يمكن اتهامه شخصيا بالفساد، الا انه كان يمنح اقاربه وغير اقاربه مبالغ كبيرة، فعرض نفسه باغفاله الحذر الى تهم المحسوبية وتفضيل انسبائه[4]. ولعل ما نراه هنا هو نوع من الرعاية السياسية. لقد كان مروان بن الحكم، نسيب عثمان، واحد مستشاريه الأقربين، هدفا اولا للاتهام بالفساد، ولكنه لم يكن، فيما يبدو، يعيش عيشة بذخ. والغالب انه كان مساعدا له في كسب هذه الرعاية عاملا على شراء الدعم

---

١) الطبري، ١، ص ٢٩٤٣ ـ ٤ والبلاذري، أنساب، جـ ٥، ص ٥١ .

٢) الطبري، ١، ص ١٦٨٢ ـ ٣

٣) المصدر السابق، ص ٢٩٥٣، والبلاذري، أنساب، جـ٥، ص ٢٥

٤) البلاذري، أنساب، جـ٥، ص ٧ و٨ و٣٨ و٣٩ و٥٨ وابو محمد احمد بن الأعثم الكوفي، كتاب الفتوح، مخطوطة اسطنبول، مكتبة احمد الثالث، رقم ٢٩٥٦، جـ١، ص ٢ أ .

السياسي من الشخصيات الكبيرة لسياسات عثمان[١].

ثم ان عثمان عرض نفسه ايضا للمهاجمة على الجبهة الدينية كما على الجبهة الزمنية. لقد كانت هنالك حتى الآن فروقات بسيطة غير هامة في قراءة القرآن. وللحؤول دون اي نزاع محتمل، عمد عثمان الى فرض قراءة واحدة باصدار نص رسمي والغاء جميع القراءات المغايرة. لقد كان عمله هذا معقولاً ولكنه اثار معارضة قوية ولعلها كانت اقوى مما توقعه. كان المعارضون له يقولون قولا مقنعا ومعقولا هو ان اميرالمؤمنين لا يراد له ان يكون ذا سلطة دينية او نفاذ بصيرة اكثر من اي مسلم آخر ولذلك لا سلطة له باصدار نص موحد. فكأنهم يقولون بكلام آخر ان عثمان يغتصب لنفسه سلطة دينية ليست له[٢].

لقد ارغمت الظروف عثمان على ان يفترض لنفسه سلطة ابعد مما كان ينوي في الأصل. ان جهوده الطيبة والمعقولة في احيان كثيرة للمحافظة على الامبراطورية اثارت معارضة فئات متعددة. وفي آخر عهده بلغت هذه المعارضة درجة من الشدة فرضت حتى على المدينين له بواجب عرفان الجميل ان يتخلوا عن مناصرته في سياساته. واخيرا قدم الى المدينة وفد من العراق مؤلف من بضع مئات من رجال القبائل ووفد آخر من مصر، من عدد مماثل، للمطالبة برفع المظالم. وتخلى ابناء المدينة عن عثمان، وتركوه بدون حماية وجهاً لوجه إمام اشد منتقديه، مطوقا في منزله. ان العجز عن ادراك الأبعاد التي كانت المعارضة مستعدة للوصول اليها ادى الى خروج الوضع من اليد. وبعد نحو خمسين يوما من مناقشات حادة ومباحثات ومفاوضات غير مثمرة اقتحم المصريون المنزل وقتلوا الرجل العجوز الذي لا نصير له بعد ان تخلى عنه ابناء المدينة[٣].

تركت صدمة اغتيال امير المؤمنين ابناء المدينة مصعوقين طيلة خمسة ايام. ثم ظهر علي في النهاية خليفة لعثمان. لا ريب انه كان المرشح الأكثر بروزاً. ان احدا غيره لم يطالب بالخلافة بصورة علنية حتى ولو ان آخرين غيره سموا لهذا المنصب. والواقع ان القضية كانت تقوم الى حد كبير على اقناع علي لقبول المنصب، اذ انه كان متردداً بالطبع

---

١) البلاذري، أنساب، جـ٥، ص ٢٨ .

٢) المصدر السابق ص ٦٢ والطبري، ١، ص ٢٩٥٢ .

٣) الطبري، ١، ص ٢٩٤١ ـ ٣٠٥٠ والبلاذري، أنساب، جـ٥، ص ٥٩ ـ ١٠٥

بتسلم السلطة في مثل هذه الظروف الرهيبة. على انه ترك نفسه في النهاية ينقاد للاقناع لمنع الأوضاع من ان تتدهور الى فوضى تامة[1].

وكان يمكن لوضع علي ان يكون اشد سوءا لولا انه كان يتمتع بتأييد الأنصار الثابت. ومما يدل على قوته انه قضى بسهولة على ثورة طلحة والزبير بعد وقت قصير. كان هذان القرشيان زعيمين للمهاجرين وعضوين في هيئة الشورى التي اختارت عثمان وكان موقفهما السياسي يتركز حول استمرار قيادة قرشية بحتة للامة. لقد كانا يتذكران الصلاحيات المحدودة التي كانت لأمير المؤمنين في ظل ابي بكر وعمر. ومع انهما ايدا عثمان في هيئة الشورى فانه خيب ظنهما ولذلك فقد تأييدهما. ولا بد انهما كانا يدركان ان عليا اشد ميلاً لاحداث تغييرات جذرية في تنظيم الأمبراطورية وفي مكانة امير المؤمنين[2].

وفي هذه الحالة لم يكن غريباً ان يتمكنا في ثورتهما من الحصول على بعض الدعم المالي من مكة، وان يحصلا على مناصرة عائشة ارملة الرسول وابنة ابي بكر[3]. ولا شك ان عائشة شعرت ان ما كان يصلح فيا يبدو في عهد ابيها ثم في عهد خلفه الذي كان من اختياره يجب ان يصلح ايضا لكل وقت لاحق. ولذلك قررت ان تقاوم عليا. وانتقل المتمردون الثلاثة الى البصرة آملين ان يحثوا رجال القبائل على معارضة علي بتذكيرهم بما هم مدينون به لأمير المؤمنين القتيل. الا ان غالبية البصريين رفضوا التورط في الأمر. اما الكوفيون فقد كانوا ناقمين اشد النقمة على سياسة عثمان حتى انهم زحفوا للانضمام الى علي. وكان علي المدعوم من الأنصار يقوم بمطاردة عنيفة للمتمردين. والتقت القوتان في معركة الجمل وسرعان ما كسبت المعركة قوات علي الشديدة التفوق وقتل طلحة والزبير اما عائشة فاعيدت الى المدينة بعد توجيه اللوم الشديد اليها[4].

---

١) الطبري، ١، ص ٣٠٧٣ - ٥

٢) المصدر السابق، ص ٣٠٨١ وابن الأثير، الكامل، جـ٣، ص ١٦٩ .

٣) المصدر السابق، ص ٣١٠٠ - ٣

٤) تتفق الروايات التي يوردها الطبري نقلا عن سيف والمدائني وغيرهما في معظم التفاصيل وهي تميل الى المبالغة . ومن هنا كانت الأهمية التي تعطى لهذه المعركة (الطبري، ١، ص ٣٠٩١ - ٣٢٣) . ولعل رواية ابن الأثير اكثر اعتدالا (ابن الأثير، الكامل، جـ٣، ص ١٦٥ - ٢١٧) . غير ان ابن خياط يعطينا العرض الأكثر إيجازاً وصحة (تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، النجف، ١٩٦٧، جـ١، ص ١٦٠ - ٧٣) .

ودخل علي البصرة وقوبل بتأيد علني حار. وهنا قام بتدبير جاء دليلاً هاما على سياسته وهو توزيع جميع الأموال التي وجدها في بيت المال بين انصاره بالتساوي[1]. لم يكن هذا يعني انه ينكر على المسلمين الأوائل مكانتهم وسمعتهم الخاصتين ولكنه كان يعني انه يعطي قيمة مماثلة للدور الكبير الذي لعبه المسلمون المتأخرون، من مرتدين وغير مرتدين في فتح الامبراطورية وتنظيمها. الحقيقة ان كل فئة شعرت من قبل انها مهملة او مغبونة التفت حول علي. هكذا وقف الانصار وراءه صفاً متراصاً، وكذلك القراء الذين رأوا فيه الأمل الوحيد لاستعادة ما فقدوه في عهد عثمان. كانت هاتان الفئتان متراصتين ومنظمتين تنظيماً حسناً ولكن عددهما كان ضئيلاً جدا بالنسبة لعدد النازحين الجدد الى العراق. وكانت سياسة علي بشأن الغنائم مغرية بصورة خاصة لهؤلاء الجدد. واذا كان بعضهم قد حقق بعض النفع من سياسة عثمان فلا بد انهم كانوا اكثر ثقة بعلي نظراً الى موقفه المشهور في هيئة الشورى مرحباً بالتغيير ترحيباً ايجابياً. وليس من قبيل المصادفة ان يكون قادة للردة معروفون كالأشعث بن قيس من انصار علي البارزين، بالاضافة الى رجال آخرين كعمار بن ياسر.

لقد كان علي يجمع خلفه ائتلافاً واسعاً ومؤثراً من أصحاب المصالح. غير ان مشكلة هذا الائتلاف الوحيدة كانت انه شديد الاتساع. ليس للانصار ما يجمعهم بالعراقيين، ثم ان الاستجابة لمطالب القراء تؤدي الى الأضرار بمصالح النازحين الجدد، كما ان العكس صحيح ايضا. ان مثل هذا الائتلاف الواسع الذي يضم هذه المصالح المتشعبة المتناقضة لا يتوقع له ان يدوم طويلا. والحقيقة ان قيامه بالذات امر مستغرب. والسبب الرئيسي وراء قيامه هو شخصية علي الهامة. كان موقفه السياسي واضحا ومناسباً وحاسماً. ان بصيرته الثاقبة الفذة بالنسبة لطبيعة الامبراطورية المتغيرة بسرعة قادته الى اقتناع ثابت بان الخطوط العامة الموضوعة في القرآن وفي حياة الرسول وخلفائه الثلاثة الأول غير ملائمة اذا لم تفسر تفسيرا جديدا لمواجهة حاجات العصر. وحيال غياب الوحي الالهي بات على المسلمين ان يلجأوا الى اجتهادهم وتقديرهم على ضوء معرفتهم بالاسلام. واذا كان هذا صحيحا بالنسبة للمسلمين العاديين فاحر به ان يكون صحيحا بالنسبة لأمير المؤمنين، وهو القائد المسؤول لجميع المسلمين.

---

١) الطبري، ١، ص ٣٢٢٧ واحمد بن ابي يعقوب اليعقوبي، تاريخ، بيروت، ١٩٦٠، جـ٢، ص ١٣٠ .

لقد كان علي يدعي لنفسه بعض السلطة الدينية لكي يحل القضايا السياسية. وهذا هو اصل نظرة انصاره، الشيعة، اليه على انه الامام الذي يستخدم معرفته لتحقيق العدالة لكل مسلم. لقد اصبحت فكرة امير المؤمنين الامام الهدف الاساسي لجميع فرق الشيعة فيما بعد. كان لا بد من مثل هذا القائد في العراق بصورة خاصة لاحباط محاولات القراء ايجاد دعم قرآني لامتيازاتهم، ولاعادة تفسير القرآن لمصلحة المسلمين كافة. ومهما كان الرأي بقدرات شخصية علي المثيرة للجدال الواسع، فان الولاء الذي اوجده حوله لا يمكن ان يفسر الا بما كان يتصف به من نفاذ بصيرة وقوة شخصية رائعتين.

ومع ان البصرة رحبت بعلي فانه لم يكن له فيها مع ذلك اي تأييد فعال الا من قبل بعض مئات فقط من القراء الذين انتقلوا اليها للانضمام الى قبائلهم. وقد اقنعوا بعض ابنائها بالانضمام الى جانب علي. وانتقل هؤلاء البصريون، ومعظمهم من تميم، مع علي الى معسكره الجديد خارج الكوفة[1]. ومن الخطأ على كل حال اعتبار ذلك نقلا أكيداً للعاصمة من المدينة الى الكوفة. ان عليا لم يكن ينوي في هذا الوقت ان يستقر في الكوفة بصورة دائمة. لقد ذهب اليها بغية توطيد سلطته وحسب، ويدل على ذلك انه اقام معسكره خارج البلدة[2].

وفي الوقت ذاته اقام علي تدابير اخرى لترسيخ وضعه في ولايات اخرى من الامبراطورية. وبرغم ان الوضع في مصر كان لا يزال غير مستقر اذ ان شحنات الحبوب مثلا الى المدينة كانت متوقفة، فان الوالي الذي عينه على مصر كان مقبولا بدون معارضة[3]. غير ان محاولاته الأولى بالنسبة لسورية كانت فاشلة. كان السوريون يرفضون موالاته سواء اوفد مندوبين يعملون لتأمين الولاء، او اعلن صرف معاوية من منصبهاو تثبيته فيه. على انهم امتنعوا من ناحية اخرى ان يختاروا اميرا للمؤمنين خاصا بهم. وحجتهم في ذلك ان معاوية نسيب عثمان محق في رفض الطاعة قبل التحقيق الملائم في مقتل عثمان والأخذ بثأره.

والواقع انه كان لمعاوية بعض ما يبرر طلبه بالثأر. والأهم من ذلك انه كان يملك القوة العسكرية في سورية لدعم طلبه. ومع ذلك فان فكرة بلوغ ولاء السوريين له من

---

١) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ١٩٤٦ ـ ص ٢٨ ـ ٣١.
٢) المصدر السابق، ص ٥ و٨ و١٣٦ و١٤٧.
٣) الطبري، ١، ص ٢٥٧٧، و٣٢٣٨.

العمق حداً يحمل ولاية بكاملها على الثورة للثأر لجريمة اغتيال واحدة امر لا يصدق. والأكثر احتمالا هو ان الثأر لعثمان كان يوفر ستاراً ممتازاً لخلافات اشد واقعية. ان جميع الظروف تحملنا على الاعتقاد ان الخلاف بين علي ومعاوية يرتكز حول وضع سورية الخاص. فقد كان عمر وعثمان من قبل مقتنعين بضرورة ابقاء سورية بعيدة عن الهجرة غير المحدودة اليها، كالتي كانت تضر بالعراق، لضمان استقرارها وسلامتها في وجه الخطر البيزنطي. كذلك كان معاوية والسوريون ايضا مقتنعين بذلك ايضا. غير ان عليا كان يرى رأيا آخر. فهو لم يكن يرى سبباً لمنح السوريين مركزاً مميزاً لمجرد انهم يقومون بواجبهم في الدفاع عن حدودهم، لا سيما بعد ان يأس البيزنطيون من استعادة سورية وصار العرب انفسهم يطمعون ببيزنطية نفسها. فلكل ولاية حدودها وحروبها، واذا تصرفت كل ولاية كما تتصرف سورية فانه ينسد كل مجال امام اي نازحين جدد. انه لمن المضحك ان تطغى الهجرة غير المحدودة على العراق بينما تبقى سورية بعيدة عن ذلك كل البعد. لا بد لسورية ان تسهم بحل مشاكل الامة كلها حتى ولو كان ذلك يعني فقدان امتيازات عزيزة وهدم ما حققه معاوية خلال ولايته[1].

اعقبت ذلك مفاوضات طويلة غير مثمرة في النهاية بين علي ومعاوية. وقد زادها طولا ولا ريب ما واجهه معاوية من صعوبة في اقناع القادة السوريين بضرورة الدخول في حرب[2]. على ان وجهة نظر معاوية سادت في النهاية ثم اخذت الاحداث تتجه نحو الحرب بسرعة. فقد عقد السوريون مع بيزنطية هدنة، حتى ولو كانت لقاء غرامة مذلة واستجابت القبائل العراقية بحماس لدعوة علي لها لحمل السلاح[3]. غير ان هذه السرعة والحماسة تبخرتا في ساحة المعركة. والتقى الجيشان في صفين في ربيع ٦٥٧م/ ٣٨هـ ثم حدثت احدى اعجب المعارك في التاريخ.

دامت المواجهة في صفين ثلاثة اشهر مقابل ساعات قليلة في معركة الجمل. لم يكن احد يريد القتال، ولذلك تشب الصراع بين المفاوضين دون الجنود. واذا استثنينا بعض

---

١) ينبغي ان نلاحظ ان عثمان كان قد ألحق الجزيرة بولاية معاوية، على انه كان هنالك بعض التمييز بين سورية والجزيرة بالنسبة للهجرة. ومع ذلك فان غالبية قبائل الجزيرة أبدت معاوية خوفا من ان تردد أحوالها سوءا فيها اذا تجحت سياسة علي. أنظر الفصل الخامس ادناه.

٢) مزاحم، وقعة صفين، ص ٤٩ ـ ٥٨.

٣) المصدر السابق، ص ٤٢ و٤٩

المناوشات فان القسم الأكبر من هذه الأشهر الثلاثة انفق في مفاوضات لم تؤد الى نتيجة. وبدأ القتال اخيرا لكنه توقف فجأة حين رفع السوريون القرآن على رماحهم تدليلا على دعوة اخرى للسلم والمحادثات. وبعد بعض المناقشة اتفق الطرفان بحماس على ان التحكيم هو العلاج العام الشافي. وقبل القسم الأكبر من القراء بالتحكيم ولكن العامل الحاسم في قبول علي للتحكيم كان موقف الأشعث بن قيس[1]. كانت قوته هي المرجحة لانه كان قائد الكتلة الكبرى في جيش علي، ثم ان انصاره كانوا يضمون جميع قبائل الردة في الكوفة بالاضافة الى جميع القادمين الجدد من هذه القبائل. لقد كان هؤلاء بين عناصر الائتلاف المناصر لعلي اقل حماسا للقتال، لا سيما وقد استفادوا من سياسة عثمان في الواقع. وبعد ثلاثة اشهر من مواجهة سليمة تقريباً مع السوريين بدأ هؤلاء يدركون ان القتال لن يحقق لهم اي غرض من اغراضهم. وما ان تأكد الأشعث من ان انصاره لا يميلون الى القتال حتى كان القرار بقبول التحكيم وقد اتخذ واصبح امرا لا يرد[2].

ووقع الاختيار على عمرو بن العاص، فاتح مصر، ممثلا للسوريين في التحكيم، وعلى ابي موسى الأشعري لتمثيل العراقيين برغم معارضة علي القوية. ويصعب في البداية فهم سبب اختيار هذا الأخير، لا سيما وقد كان علي معارضاً له. على انه يبدو ان القراء هم الذين اصروا على اختياره ممثلا للعراقيين[3]. لقد اشترك ابو موسى بالمراحل الأولى لفتح العراق بصفته قائداً ثم واليا على الكوفة والبصرة. ثم انه كان معارضا لسياسة عثمان، وهو الذي اختاره القراء واليا على الكوفة حين طردوا سعيد بن العاص الذي عينه عثمان. ان الميزة الخاصة الوحيدة التي يتمتع بها ابو موسى هي علاقته السياسية القائمة منذ زمن بالقراء ومعرفته الوثيقة بفتح العراق وحكومته. ولا شك ان هذا هو ما ادى الى اختياره. كذلك كان عمرو بن العاص يستطيع ان يدعي مثل هذه المعرفة. انه احد الذي افتتحوا سورية وهو فاتح مصر ووال عليها، كما انه اقام في فلسطين.

وفي مصادرنا غموض شديد حول القضايا التي نوقشت في اجتماع التحكيم. لكن هنالك اشارات قليله تهدينا الى ما حدث. ان اهم نقطة هي ان الحكمين كانا يملكان معرفة بالولايتين لا تضاهى تقريبا. وهذا يدل على ان القضايا الأساسية المطروحة كانت

---

١) المصدر السابق، ص ٥٤٩ ـ ٥٠ و٥٥٣ و٥٦٠ و٥٧١ و٥٧٦ والطبري، ١، ص ٣٣٣٠ و٣٣٣٢ ـ ٣
٢) مزاحم، وقعة صفين، ص ٢٣١ و٢٥٥ .
٣) المصدر السابق، ص ٥٧٢ والطبري، ١، ص ٣٣٣٣ .

العلاقة بين سورية والعراق وإيجاد حلول للقضايا الناشئة عن الفتح. ان علاقة أبي موسى الأشعري الوثيقة بالقراء تدل على أنهم كانوا مصممين على تحويل المفاوضات بين سورية والعراق لمصلحتهم الخاصة. والواقع أن القراء كانوا يريدون أن يصبحوا طرفاً ثالثاً في هذا الصراع.

ولما كان جدول أعمال اجتماع التحكيم في طور الإعداد، تبين بصورة مؤلمة للغالبية العظمى من القراء أنه لا السوريون ولا العراقيون يهتمون بإعادة امتيازاتهم إليهم. هنا عند هذه النقطة بدأ التفكك النهائي في ائتلاف علي. فالقراء الذين كانوا بين أولئك الذين أرغموا علياً على قبول التحكيم وفرضوا عليه اختيار أبي موسى، غيروا موقفهم الآن ورفضوا الفكرة كلياً وقرروا أن يقوموا بعملية لحسابهم وحدهم[1]. فانفصلوا عن جيش علي، واتجهوا إلى المناطق التي كانوا يحسبونها لهم، آملين أن يعيدوا توطيد سلطتهم ومكانتهم السابقتين[2]. وصار هؤلاء القراء سابقاً يعرفون بالخوارج[3]. ولابد هنا من تميز هؤلاء تمييزاً دقيقاً عن جميع الذين عرفوا بالخوارج فيما بعد. على أنه ينبغي قبل كل شيء أن لا يعتبر هؤلاء هراطقة. وهنا استطاع علي أن ينقذ الموقف بصورة جزئية إذ أدركهم في النهروان قبل أن يتفرقوا إلى أماكنهم المختلفة، وتمكن من إقناع بعضهم بعدم جدوى مخططهم، ورجع الذين اقتنعوا إلى الكوفة، واضطر آخرون للقتال وأبيد الكثيرون منهم. ثم توزع البقية وفروا إلى «أريافهم». وظل هؤلاء الخوارج يواصلون صراعهم الفاشل طوال هذا الجيل ثم الجيل التالي. لقد كانوا مجموعات صغيرة لا تزيد عن ٣٠ رجلاً في أحيان كثيرة من أبناء قبائل أو بطون مختلفة. وقد أنشأوا لأنفسهم مراكز في أماكن متعددة في الأرياف حيث كانوا يجمعون المداخيل ويوزعونها فيما بينهم، حتى ان هذه المجموعات كان لها أمير للمؤمنين خاص بها، ولو أنه لم يكن يتمتع بأية صلاحيات البتة. وهذا أمر له مغزاه. كانت هذه الجمهوريات الصغيرة بدون استثناء تقريباً، تفتقر إلى دعم السكان المحليين، ومع ذلك فإن إيمانهم بحقوقها الثابتة،

---

١) مزاحم، وقعة صفين، ص ٥٨٧ - ٩٠ والطبري، ١، ص ٣٣٣٨ - ٩

٢) الطبري، ١، ص ٣٣٦٤ - ٥ و ٣٣٨٠

٣) المصدر السابق، ص ٣٣٣٠ ومزاحم، وقعة صفين، ص ٥٦٠ و٥٧٢ وابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٢٦٤.

هذا الإيمان المتزمت المثير للشفقة في وقت واحد، بلغ حداً مكنها من مواصلة الحرب طيلة جيلين قبل أن تسقط مهزومة منهارة[1].

في هذه الأثناء رجع علي إلى الكوفة لينتظر نتيجة التحكيم. لكن وضعه كان يتزايد ضعفاً بسرعة مخيفة. وواضح أن الحكمين لم يعتبرا القضية ملحة لأنهما لم يجتمعا قبل مرور أكثر من سنة. والواقع أنهما لما اجتمعا، وقد حشد كل منهما حاشية ضخمة من ٤٠٠ شخص، كانت الأحداث قد حلت القضية، ولم يعد لقرارهما أية أهمية. ولم يصل الحكمان إلى أي قرار. ولكن ذلك لم يعد ذا أهمية، إذ أن أحداث صفين كانت قد قضت عى قوة علي العسكرية قضاءً نهائياً[2]. إن قبول علي بالتحكيم، وهو أمير المؤمنين المعترف به، كان إحدى أسوأ الضربات التي نزلت بمكانته، ثم أدى ذلك إلى تمزق ائتلافه. كان القراء أول من انشق عنه. أما أولئك الذين لم يستسلموا أو لم يقتلوا، فقد انقلبوا إلى أعداء. وبعد انهزام القراء في النهروان لم يعد للكثرة الغالبة من القادمين الجدد ما يبرر القتال لاسيما وأن السوريين لابد لهم مع مرور الزمن من القبول بحل سلمي.

حاول علي أن يعزز قبضته على القبائل بإعادة تنظيم المجموعات القبلية في الكوفة للاستعاضة عن رجال كالأشعث برجال آخرين أسلموا مع بدء ظهور الإسلام، وكانوا موالين له شخصياً. وهكذا فإن حجر بن عدي، أحد قادة القراء الذين لم يتخلوا عن علي، حل محل الأشعث كقائد لبني كندة وللبطون الأخرى ذات القربى بها[3]. تلك كانت خطوة لا أمل منها. والواقع أنها ساعدت على الإسراع في ابتعاد القبائل. هكذا فشل علي برغم كل محاولاته الناشطة لتنظيم جيش جديد لأن الحلف الضخم الذي قام مع بداية عهده أصيب بالتمزق بحيث أن إعادة إنشائه كان متعذراً بسبب تناقضاته. لم يبق إلى جانب علي غير الأنصار وبقايا القراء وبعض رجال قبائلهم، فكان قتالهم مع السوريين غير متساوٍ.

---

١) الطبري، ١، ص ٣٤١٨ ــ ٢٩ والطبري جـ٢ ص١٧ و٢٠ و١٢٧ وابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٢٩٠ و٣٠٨ و٣١٣ و٣١٤.

٢) ابن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٧٤.

٣) الطبري، ١، ص ٣٣٧١ و٣٣٨٥ و٣٤٤٧.

ثم ان هذه المدنة القلقة غير الرسمية اتجهت نحو تعايش سلمي حين اغتيل علي في الكوفة (٦٦١م/ ٤٠هـ)، وخلفه ابنه الأكبر الحسن لكنه سرعان ما استقال. لقد تلاشى حلف علي، وسقطت مصر بيدي معاوية بواسطة عمرو بن العاص، وبذلك صارت لمعاوية قوة لا تقاوم. وجاء هذا الأخير الى الحكمة في مساعدة الحسن على اتخاذ قرار حاسم بان عرض عليه مبلغا كبيرا من المال يكفيه ليقضي بقية حياته في المدينة في راحة ونعيم. وبمقتل علي وتنازل الحسن كان طبيعيا ان يقع منصب امير المؤمنين في يدي معاوية. وقبل به الجميع باستثناء الخوارج حاكما جديدا. لقد افلس نظام المدينة، وهزمت محاولة قريش لتسلم القيادة بسهولة ، واسفرت خلافة علي ذات النموذج الجديد عن عجز، وصار على معاوية الآن ان يضع نظاماً جديداً للامبراطورية .

الفصل الخامس
معاوية والحرب الأهلية الثانية

كان معاوية رجل حلم . وهي كلمة معقدة وشاملة في معناها لا تسهل ترجمتها ، لكنها الكلمة الفضلى ، إن لم نقل الوحيدة ، لوصف مقدرة معاوية الخاصة كقائد . فمهما اشتدت الضغوط ، أو مهما بلغت رهبتها ، فان معاوية كان ، كرجل حلم ، يحتفظ برباطة جأش مطلقة ، ويتخذ المقررات الحاسمة . وكان يتخذ المقررات بعد تفكير طويل حكيم . وكان عند المستطاع يرفض استخدام القوة حلا لقضاياه . لقد كان ينظر الى القضية من كل جوانبها ليرى جميع القوى الفاعلة فيها ، ليتمكن عن طريق اعادة ترتيب هذه القوى بصورة بارعة ، من الوصول الى تسوية بارعة . وهكذا كان معاوية يسرع الى عرض التسوية والتفاهم بصورة دائمة ، وكان يعامل خصومه المغلوبين بسخاء وشهامة لا غطرسة فيها ، مما يحفظ لهم كرامتهم واحترامهم ويكسبه ولاءهم . كان ذا عقلية واقعية وسياسية الى حد بارز ، مميزة بالانضباط ورباطة الجاش . فمثل هذا القائد بالضبط هو الذي كان مطلوباً آنذاك . وكانت محاولة معاوية لاقامة نظام مستقر ، ناجحة حتى وفاته على الأقل ، غير أن فشلها بعد وفاته يبين بوضوح مدى صعوبة مشاكل هذه الفترة . ولا يستطيع المرء ان يبالغ في التشديد على خطورة الوضع عند مقتل علي . كانت الامبراطورية خارجة من حرب أهلية أثارت من المشاكل أكثر مما حلّت . وكان يتعذر إيجاد حل دائم شامل لأن أهداف الفئات السياسية المختلفة كانت متباينة الى حد بعيد ، ومتناقضة بحيث كان يستحيل التوفيق فيما بينها في حالات كثيرة .

وكانت ميزة الحلم الخاصة التي تحلى بها معاوية هي الصفة المناسبة في هذه الحالة . فقد أدرك أنه لا مجال لأية فئة أن تحقق جميع رغباتها تحقيقا كاملاً ، فاستغل الرغبة الشاملة بالسلم للوصول الى تفاهم عام قائم على تسوية ، متجنبا اللجوء الى غطرسة السلطة . كان في الواقع أميراً للمؤمنين لكنه تصرف كأنه الأول بين متساوين بالنسبة

للقادة العرب الآخرين . لقد شهد فشل علي فتجنب بحذر ان يدعي أية سلطة دينية . على أن عهد معاوية إذا كان شبيها بعهد أبي بكر أو بعهد عمر فيما بعد ، فانه تميز عنهما في أن لديه في الجيش السوري ، في النهاية ، دعما لمناوراته السياسية البارعة . ولذلك كان يستطيع ان ينفذ ، ببعض النجاح ، سياسته الهادفة الى التراضي والتوافق في المجتمع ، والى تعزيز الحكومة المركزية بدون مضايقات .

لم يكن معاوية في البداية يريد ان يغير أي شيء بصورة خاصة . فقد احترم القوى القائمة ، وحصر نفسه بموازنة حكيمة بين قوة وأخرى . واعتمد على القرشيين بتعيينهم في مناصب مسؤولة ، مفضلاً استخدام مكانتهم وقدراتهم الأكيدة في خدمته لا في مقاومته . وكان في الوقت ذاته سياسيا لبقاً الى حد كافٍ إذ تنصل من القرشيين المتطرفين الذين ثاروا مع طلحة والزبير . وكان شديد العناية ايضا في احترام قوى المجموعات القبلية المتعددة . وعامل الذين ناصروا علياً بشهامة رجل الحلم غير المدلة وغير المتغطرسة فكسب بالمقابل دعمهم الذي كان بحاجة اليه[1] .

وللاحتفاظ بدعم القبائل المتشددة في تمسكها باستقلاليتها في الولايات ، سواء كانت مناصرة او معارضة له في الحرب الأهلية ، فقد عرف معاوية أنه لا بد من السماح لها بأن تتمتع بقسط من الاستقلال الذاتي . وكانت سياسته تقوم على تأكيد سلطة الحكومة المركزية حين يكون ذلك ممكنا . غير أنه كان يتراجع بلباقة امام اعتراض رجال القبائل . ان هذا الاحترام للأمرين معا ، أي للاستقلال الذاتي للقبائل ولسلطة الحكومة المركزية ، كان يتطلب كل اللباقة والحنكة السياسيتين من معاوية ومن الولاة الذين كان يختارهم للولايات بدقة قصوى . ثم ان الموجة الجديدة من حروب التوسع على جميع الجبهات ساعدته على تحقيق ذلك . مرة أخرى أدت الغنائم والثروات الجديدة الى تحويل انتباه رجال القبائل الى البلدان الأجنبية . وفي الوقت ذاته أسهمت هذه الحروب التوسعية في إغناء بيت المال المركزي الذي أدت الحروب الأهلية الى إفراغه وأتاحت للحكومة وقتا كانت بأمس الحاجة اليه لتكوين سياساتها .

أوكلت مصر مرة ثانية الى عمرو بن العاص وهو رجل مقتدر ومواكٍ في وقت

---

١) الطبري، ٢، ص ٧ـ٨ وابن اعثم، فتوح، جـ ١، ص ٩٩ ب ـ ١٠٠أ.

واحد . فوجه العرب من مصر نحو شمالي افريقيا بنجاح كبير . وكانت الانتصارات سهلة وكانت الغنائم مرضية جدا لجميع المعنيين . والظاهر ان رجال القبائل كانوا راضين بذلك حتى ان عمرو بن العاص استطاع عند ذاك ان يرسل قسماً من فائض الدخل في مصر الى بيت المال المركزي في دمشق . وهنا لا بد من ان نذكر انه ليست في مصادرنا حتى الآن روايات عن توزيع عطاءات لمجموع رجال القبائل في مصر غير عطاءات من ٢٠٠ دينار كانت توزع على القادة وحدهم فقط . يضاف الى هذا ان عمرو ابن العاص لم يكن فيما يبدو مهتماً بالعمليات البحرية كابن ابي سرح ، الوالي في عهد عثمان ، مما أدى بالطبع الى توفير نفقات كبيرة . فالأزمة المالية التي نشأت عند الفتح قد انتهت ، ثم استطاع عمرو بعد دفع النفقات العامة ان يرسل الى معاوية فائضا يبلغ ٦٠٠٠٠٠ دينار[١] . وظل الولاة الذين جاؤوا بعد وفاة عمرو عام ٦٦٣م/٤٣هـ يسيرون على النمط ذاته محققين بذلك مزيدا من النجاح في شمالي أفريقيا .

وفي سورية نفسها كانت القبائل سعيدة بانتصارها وبالمحافظة على وضعها المميز في ظل معاوية. وكان بعضها قد طالب ببعض الأراضي قبل وقعة صفين ولعله نالها[٢] . على ان هذه القبائل كلها عادت بعد الحرب الأهلية الى مناطقها لاستئناف الحياة العادية . ومع ان هذه القبائل كانت تشكل قاعدة القوة لمعاوية فانها أبقيت في سورية بدافع الحذر ، ولم تستخدم في عهده في أية ولاية أخرى . ولكنها كانت مع ذلك توجه لمنفعتها على الأرجح ، في حملات صيفية كل سنة للغزو في عمق الأراضي البيزنطية . ولا ريب أن هذه الغزوات كانت تعود عليها بغنائم كثيرة . وقد بدأت هذه الغزوات صغيرة محدودة ، ولكن الضعف الظاهر في المقاومة البيزنطية شجع العرب على توسيع نشاطاتهم العسكرية . وامتدت بعض هذه الحملات الصيفية الى الشتاء حتى أنها كانت تجري بدعم من القوات البحرية العربية . وباحتلال رودس (٦٧٢م/٥٢هـ) وكريت (٦٧٤م/٥٤هـ) تم تأمين قاعدة بحرية في بحر مرمرة صارت مقرا للقيادة في الشتاء . ومن هذا المقر ظلت الهجمات تتوالى على القسطنطينية في الربيع طيلة سبع سنوات

---

١) الكندي، الولاة، ص ٣٢ ـ ٣ وابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٩٣ ـ ٤، والمقريزي، خطط، جـ ١، قسم١، ص ٣٣١

٢) ابن اعثم، فتوح، جـ ١، ص ١١٢أ ـ ب. وروايته اكمل مما اورده مزاحم، وقعة صفين، ص ٤٩٢ ـ ٥

(٦٧٤م - ٦٨٠م/٥٤ - ٦٠هـ) حتى وفاة معاوية[١] .

ولا نعلم شيئا عن دفع عطاءات منتظمة للعرب إلا بما يتعلق بعمليات بحرية تدوم وقتاً طويلاً ، كاحتلال رودس مثلا[٢] . إننا نعلم ان السكان الأصليين من المصريين والسوريين كانوا يستخدمون كمجذفين وموجهي دفات وبحارة في هذا الأسطول العربي ، وكانوا يقبضون أجوراً طيلة هذه الحملات[٣] . وكان طبيعياً ان يعطى العرب الذين كانوا يشكلون القوات المقاتلة فعلا ، تعويضاً عن تخليهم عن أعمالهم العادية لتأمين معيشتهم . أما العرب الآخرون في سورية ، الذين كانوا يشتركون في الحملات الصيفية فقط ، فكان عليهم ان يكتفوا بنصيبهم من الغنائم . والظاهر ان دفع عطاءات منتظمة لجميع العرب في سورية لم يبدأ في هذه المرحلة .

كانت الجزيرة ، أي ما بين النهرين ، مشكلة لمعاوية . لم تكن في الأصل جزءا من ولاية سورية ، ولكن عثمان وضعها تحت إشرافه[٤] . وكان هذا التدبير رديئا لأن التكوين القبلي للعرب في الجزيرة كان شديد الاختلاف عما كان عليه في انحاء سورية الأخرى . ولفهم سبب هذا الفرق لا بد من الرجوع الى بداية عهد الفتح . كانت القوات الأولى التي أرسلها ابو بكر الى سورية مؤلفة من نحو ٧٠٠٠ رجل من مكة والمدينة والمناطق المجاورة . وكانت غالبية هؤلاء الرجال من بطون قيس في الحجاز والقسم الغربي من شبه الجزيرة العربية . وهؤلاء هم أبطال معركة أجنادين ، وهم أيضا يمثلون القسم الأكثر تميزاً من جيش ابي عبيدة في اليرموك[٥] . ولما قسم أبو عبيدة قواته لاستكمال فتح سورية ، أوكل فتح الجزيرة لهؤلاء القيسيين المجربين ، على سبيل المكافأة تقريبا . ومع ان هذه المنطقة التي كانت تشكل الخط الأمامي للدفاع البيزنطي في الشرق ، وكانت قد حصنت تحصينا قوياً ، صارت آنذاك معزولة تماما بحيث ان فتحها

---

١) الطبري، ٢، ص ١٦ و ٢٧ و ٨١ و ٨٢ و ٨٤ و ٨٥ و ٨٦ و ٨٧ و ١١١ و ١٥٧ و ١٦٣ والبلاذري، فتوح، ص ٢٣٦

٢) الطبري، ٢، ص ١٥٧

٣) *Greek Papyri in the British Museum, vol. 4, The APHRODITO PAPRI,* ED. H. I. Bell London 1910, Introduction, PP 18, 32, 35 and Nos' 1349, 1353, 1374, 1434 جـ ٤ .

٤) البلاذري، فتوح، ص ١٧٨

٥) انظر الفصل الثالث

تحقق بسرعة وبسهولة[١] .

ونتيجة للحروب الساسانية البيزنطية وللفتح العربي صارت أرياف الجزيرة الشاسعة الغنية قليلة السكان الى حد ما ، مما ترك أراضٍ واسعة صالحة للزراعة بورا . وهنا أسرع الفاتحون القيسيون الى تثبيت حقهم بالكثير من هذه الأراضي مكتفين بأن يدفعوا العشور الاسلامية فقط[٢] . وبكلام آخر نظرت هذه الألوف القليلة من الرجال الى ولاية بكاملها على انها ملك خاص لها ، وأنشأت حكمها فيها على هذا الأساس . وفي عهد خلافة عمر ظل رجال القبائل هؤلاء يسيطرون على الجزيرة ويحكمونها كولاية منفصلة واذا كان صحيحاً انهم قدموا خدمة لسورية لحماية جناحها الأيمن من أية هجمات بيزنطية محتملة عبر الفرات ، من ناحية أولى ، فانهم استفادوا من ناحية أخرى ، الى حد كبير أيضاً ، من هذه الغزوات في أرمينيا . وقد كانوا يتوقعون ان يحظوا بمعاملة مماثلة لمعاملة العرب في سورية ولا سيما بالنسبة لمنع الهجرة الى الجزيرة ، او لمراقبتها على الأقل . على ان ذلك كان غير عادل وغير عملي ايضا بسبب قلة عدد السكان بالنسبة لمساحة الولاية الواسعة . لقد أدت ضغوط الهجرة في عهد عثمان الى إرغامه على السعي لايجاد حل لهذه القضية في الجزيرة ، على انه بتقرير ضمها الى ولاية معاوية كان يحاول في الواقع تحطيم سيطرة هؤلاء الفاتحين الأوائل .

واستمر معاوية يعمل للحد من وضع هذه المجموعة المميزة ، وأرغم هؤلاء القيسيين على القبول بنازحين من قبائل من مضر وربيعة لا تربطهم بهم صلة قربى . إلا أنه أبدى بعض التساهل فعلا إذ منح هؤلاء القادمين الجدد أراضٍ في البقاع الكثيرة القليلة السكان للاستيطان فيها[٣] . والظاهر أيضا ان هؤلاء القادمين الجدد كانوا يستثنون من الاشتراك بالغزوات المفيدة على أرمينيا . ثم فرض على بعضهم ان يستقروا في مواقع استراتيجية عند تقاطع الطرق العسكرية أو عند المداخل الى ممرات الجبال الضيقة لحماية الجزيرة من هجمات البيزنطيين المفاجئة . وكانت ملطية على الفرات

---

١) البلاذري، فتوح، ص ١٧٢
٢) المصدر السابق، ص ١٧٣ و ١٧٧
٣) المصدر السابق، ص ١٧٨

الأعلى مثل هذا الموقع حيث أقيمت مسلحة أو رابطة ، أي حامية حدودية[1] . مرة أخرى نجد ان العطاءات المنتظمة لا تصرف إلا لرجال القبائل القائمين بمهمات عسكرية دائمة[2] . ومما يميز طريقة معاوية هو ان هذه الترتيبات الجديدة في الجزيرة كانت تنفذ بصورة تدريجية خلال فترة طويلة من الزمن . ويبدو ان هذه التسوية كانت مرضية للجميع ، كما يتضح من مساندتهم له ضد علي . ولعل القيسيين اعتبروا معاوية أهون الشرين . ومما له مغزاه في ضوء التطورات اللاحقة اننا لا نسمع في صفين بصراعات بين قيسي وكلبي ، او مضري ويماني. مثل هذه الانقسامات في سورية والجزيرة لا نسمع بها إلا بعد وفاة معاوية . والظاهر ان معاوية فرض على عرب الجزيرة قبول المزيد من النازحين[3] بعد إعادة تنظيم الكوفة والبصرة ، وهو الموضوع الذي سنتناوله بعد قليل . وقد رضوا بهذا الفرض أثناء حياته لكنهم استغلوا الفرصة بعد وفاته للتعبير عن استيائهم . ونقم القيسيون لأنهم ، دون ابناء القبائل اليمانية في سورية ، قد خصوا بهذه المعاملة المجحفة ، واعتبروها ضربة لا تغتفر لكبريائهم وسمعتهم وازدهارهم . إن الانفجار الذي حدث بين قيس ويمن بعد موت معاوية يدل على مدى خطورة الوضع في الجزيرة وعلى الصعوبة المهمة التي واجهها معاوية في إيجاد التسويات والحلول لمثل هذه القضايا المتشابكة .

كان العراق بالطبع أكثر الولايات صعوبة ، حيث كان على معاوية ان يستخدم حنكته كلها لجعل رجال القبائل يؤيدون سياسته . ولم يعمد الى إجراء أي تغيير في البداية وإنما اكتفى بمحاولة اعادة الحالة الى ما كانت عليه قبل الحرب الأهلية . ففي الكوفة عين المغيرة بن شعبة وهو رجل مطلع على مشاكل الكوفة منذ زمن ، ومعروف بدهائه السياسي . وبذل المغيرة جهده بصفته واليا (٦٦١ ـ ٧٠م/٤١ ـ ٥٠هـ) لتهدئة الكوفيين ، بينما حاول معاوية ان يستميل قادتهم بمنحهم مبالغ كبيرة من المال . وفي عام ٦٦١م/٤١هـ أعيد القائد النشيط عبدالله بن عامر الى ولاية البصرة . وعلى الفور عمد هذا الوالي الى استئناف الحملات العسكرية الى الشرق .

---

١) المصدر السابق، ص ١٨٥
٢) المصدر السابق، ص ١٧٨
٣) الطبري، ١، ص ٢٦٧٣ ـ ٤ وجـ ٢، ص ١٢٧ و ١٤٢ . وعلي بن محمد بن حزم: جمهرة انساب العرب، تحقيق ع. هارون، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٤٢٦

كانت حملات ابن عامر الأولى في عهد عثمان قد حققت فتح ممتلكات الساسانيين الشرقية . فالمدن والمناطق المختلفة في الشرق كانت قد استسلمت للعرب ووافقت على معاهدات صلح عقدت مع القادة المحليين . وكانت هذه المعاهدات تشترط على كل محلة ان تدفع ضريبة محددة . وأهم ما فيها ان العرب كانوا يوافقون بصراحة على ان لا يتدخلوا بتخمين الضرائب وجبايتها . وظل النبلاء المحليون او الدهاقين مسؤولين عنها ، بالاضافة الى تحمل مسؤولية تسليم الضريبة المحددة للعرب . وشكلت هذه الاتفاقيات أساساً قامت عليه العلاقات بين الحكام العرب والرعية ، وظلت كذلك طوال العهد الأموي . وباستسلام مرو في عام ٦٥١م/٣١هـ وصل العرب الى الحدود الساسانية القديمة . وهنا أدرك العرب أن أي تقدم جديد نحو الشرق سيورطهم بصراع مع الجيوش القوية لامارات الهياطلة فقرروا الخطة الحكيمة القاضية بالاحتفاظ بقواهم وتعزيز موقعهم في خراسان قبل الاقدام على مغامرات جديدة . ولم تكن لدى القبائل أي خطة حتى الآن للاستيطان في خراسان بصورة دائمة . كانت السياسة العربية آنذاك تقضي بارسال حملة من البصرة كل سنة لغزو المناطق التي لم تعقد معاهدات صلح مع العرب ، على ان تعود الحملة الى البصرة في الخريف تاركة في خراسان حامية من ٤٠٠٠ جندي للاحتفاظ بالمنطقة حتى العودة في حملة تالية . وتبقى هذه الحامية في قرى واحة مرو اذ ان معاهدة الصلح مع مرو كانت تنص على إسكان رجال الحامية في منازل السكان المحليين[١] .

وفي الحملة التي جرت عام ٦٥٢م/٣٢هـ تم فتح سجستان الغربية الساسانية ووضعت حامية عربية صغيرة في مدينتها الكبرى زرنج . وفي هذه الأثناء جرى تطور له مغزاه في ولاية كرمان . كان ابن عامر ، وهو في طريقه الى خراسان ٦٥٠م/٣٠هـ قد احتل بعض أجزاء كرمان وترك بعض قواته فيها لمتابعة الفتح . ونجحت هذه القوات بإنجاز هذه المهمة لكن الكثيرين من السكان فروا وتركوا أراضيهم ومنازلهم . فاقتسم الفاتحون العرب هذه الممتلكات واستقروا فيها وزرعوا الأرض ودفعوا العشور التي تتوجب عليها[٢] .

---

١) Shaban, *The Abbasid Revolution*, PP 20-4.

٢) البلاذري، فتوح، ص ٣٩٢

وفي أثناء الحرب الأهلية لم توجه أية حملات الى خراسان وتعرضت السلطة العربية فيها للأخطار نتيجة للانتفاضات المتعددة . غير ان الحامية العربية في مرو تمكنت من إخماد هذه الثورات الصغيرة ومن الاحتفاظ بالولاية . اما في سجستان فطردت الحامية الصغيرة من زرنج ، وكان على ابن عامر أن يعيد توطيد السلطة العربية في الشرق مرة أخرى . وفي ٦٦١م/٤١هـ أعد حملة كبيرة ووجهها الى سجستان . واستعيدت زرنج في بداية الأمر ، ثم فتحت جبهة جديدة ضد زنبيل ملك زابلستان . وحاصر العرب كابل بضعة أشهر ثم دخلوها أخيراً ، بعد أن هزموا زنبيل في المواجهة الأولى . لكن هذه الجهود دهبت سدى لأن زابلستان واصلت المقاومة العنيفة للعرب طوال ما يزيد عن قرنين . وكانت هذه المنطقة الجبلية أكثر ملاءمة لأساليب السكان المحليين العسكرية منها لأساليب العرب . والواقع ان الجبال كانت في كل مرة تشكل حاجزاً حاسماً في وجه القوات العربية . والشيء الطريف في هذه الحالة هو ان ابن عامر كان ، فيما يبدو ، يعلق آمالا عريضة على جبهة سجستان دون جبهة خراسان . هذا هو التفسير الوحيد لامتناعه في الظاهر عن القيام بأي حركة على هذه الجبهة الأخيرة حيث اكتفى بمجرد استبدال رجال حامية مرو بالتناوب وحسب ، ولم يقم بأي جهد خاص لاعادة فتح جبهة خراسان . ويبدو ايضا انه كان يواجه بعض المصاعب في علاقاته مع رجال القبائل في البصرة نفسها . ومرد هذا الى ان أعدادا كبيرة من النازحين الجدد الى البصرة أثاروا بعض التوتر بين المجموعات القبلية المختلفة[1] . وخشي معاوية مغبة هذا الوضع فعزل ابن عامر عام ٦٦٤م/٤٤هـ وعين محله زياد ابن أبيه الرهيب .

كان هذا الرجل ، كما يدل اسمه بصورة لطيفة ، ابنا غير شرعي ، بدون مكانة قبلية . لكن كفاءاته الاستثنائية أمّنت له وظيفة وهو في سن باكرة . وسرعان ما حققت له ايضا مناصب هامة في إدارة العراق . وقد خدم عليا حتى النهاية . لكن معاوية ، وقد فطر على اكتشاف أصحاب المواهب وتقديرهم ، أغراه واستماله لخدمته . وشمل هذا الاغراء الاعتراف لزياد ، بناء على إثباتات ملفقة ، بأنه ابن والد معاوية نفسه . وصار يعرف منذ ذلك الحين باسم زياد بن ابي سفيان ، وعهد اليه أخوه الجديد بولاية البصرة التي كانت تضم خراسان وسجستان .

---

(١) Shaban, *The Abbasid Revolution*, P. 29

وكان زياد ، كابن عامر ، يدعم سياسة توسعية لكنه اختلف عنه في أنه اختار جبهة خراسان بينما كان سلفه قد اختار الجبهة الأخرى ، وهي الأشد صعوبة . وكان البصريون غير مستعدين للذهاب الى مثل هذه الجبهات البعيدة ، كما كانوا أقل استعداداً للقيام بحملة على جبهة سجستان لقلة ما توفره من غنائم . وهكذا فان قرار زياد جاء اكثر استجابة لرغباتهم بصورة عامة . وعين زياد الحكم بن عمرو الغفاري ، أحد صحابة الرسول ، عاملاً له في خراسان وهو يتوقع منه ان يجعل الحملات على خراسان شديدة الاغراء . ومع ذلك فإن الحكم واجه بعض الصعوبة في تجنيد القوات اللازمة لحملته هذه ، إذ استغرق ذلك أكثر من سنتين . وبوصوله الى خراسان عام ٦٦٧م/٤٧هـ زحف شرقا نحو إمارتي جوزجان وغرشستان الهيطليتين . وواجه بعض المقاومة الشديدة لكنه تمكن من توطيد السيطرة العربية في هاتين المنطقتين . ولا يتضح من مصادرنا ما اذا كان الحكم قام بحملات أخرى أو أنه توفي في ٦٦٧م/٤٧هـ او ٦٧٠م/٥٠هـ . وخلفه على كل حال رجل من نفس المستوى كان صحابياً أيضا ، هو غالب بن فضالة (أو عبدالله) الليثي الذي واصل سياسة زياد التوسعية في الشرق . ويبدو ان الحملة التي بلغت خراسان عام ٦٦٧م/٤٧هـ لم ترجع الى البصرة كالعادة في الخريف التالي ، والظاهر انها بقيت في خراسان . ولذلك يجوز لنا ان نقدر ان أفرادها لم يكونوا يملكون صلات وثيقة في البصرة بصورة خاصة . ولعلهم ، بكلام آخر ، يجندون من بين النازحين المتأخرين الى المدينة[1] .

وفي هذه الأثناء كان زياد منهمكاً في إجراء تنظيم إداري جديد له نتائج بعيدة المدى . وكان باستطاعته في الوقت ذاته تقريباً ان يطبق التنظيم الجديد نفسه على الكوفة ، وقد ألحقت بولايته بعد وفاة واليها المغيرة بن شعبة عام ٦٧٠م/٥٠هـ . وهكذا ، ولأول مرة ، كان والٍ واحد مسؤولا عن نحو نصف الامبراطورية ، وهو يتمتع أيضا بدعم غير محدود من أمير المؤمنين . وقد أتاحت هذه الظروف المجال لزياد ان يستمر في اتخاذ تدابير جذرية لاعادة تنظيم ولايته الشاسعة المضطربة .

وواضح ان النظام الذي أقيم في الكوفة والبصرة في عهد عمر كان قد فقد معناه تحت ضغط نزوح القبائل غير المنظم . لقد كانت الوحدة الاساسية في هذا النظام هي

---

١) المصدر السابق ص ٢٩ ـ ٣٢

العرافة ، أي المجموعة الصغيرة من ابناء القبائل المجتمعة معاً من أجل توزيع العطاءات . ولما كانت العطاءات تختلف باختلاف موعد نزوح صاحب النصيب ، فان هذه العرافات لم تكن بالضرورة تتوافق مع التقسيمات القبلية . لقد كان ذلك وضعاً غير طبيعي ، إذ أن القبيلة كانت لا تزال الى حد بعيد هي الوحدة الأساسية للمجتمع العربي ، كما تدل على ذلك بوضوح شديد ترتيبات سكن القبائل . واذا كان عدد المنتمين للقبيلة الواحدة غير كافٍ عند بدء النزوح لتشكيل عرافة ، فإن تزايد نزوح أبناء القبائل الذين التحقوا بقبائلهم قد أدى الى تعديل هذا الوضع . والواقع أن عليّاً لاحظ هذا الوضع الجديد وقام بتدابير كانت غير فعالة لاصلاحه . لكن زيادا كان يملك القدرة والوقت لتنفيذ مخطط أكثر شمولا . فقد عمد في البداية الى القضاء على الفساد والمساوىء بشطب أسماء الموتى والخوارج من سجلات الديوان . ثم أعاد تنظيم توزيع العطاءات لمواجهة الحاجات والأوضاع الاجتماعية، وجعل كل قبيلة وحدة مستقلة ، ثم قسمها الى عرافات لغايات إدارية . ثم ان العريف ، او رئيس العرافة ، كان يعين من قبل الحكومة ، وهو مسؤول عن انضباط رجال عرافته لا عن استلام العطاءات وتوزيعها بينهم وحسب . ولغايات أخرى أبعد ، جمع زياد القبائل ذات القربى في مجموعات قبلية كبيرة متساوية الأعداد تقريباً ، وكانت منها خمس مجموعات في البصرة وأربع في الكوفة . وكانت الحكومة تعين قائداً لكل قسم من هذه الأقسام وتصر على الاعتراف بسلطته وتنفيذها . ولما كانت للقبائل في كل مجموعة مصالح متناقضة في أحيان كثيرة فقد كان هنالك قدر مقبول من انعدام الوحدة في داخل كل مجموعة . وبذلك كان يمكن استغلال الانقسامات المختلفة ، أحدها ضد الآخر ، كما ان صلاحيات قادتها كان يمكن الحد منها بواسطة صلاحيات الوالي . وهكذا جاء التنظيم الجديد الذي وضعه زياد عاملا لصالح الحكومة المركزية ولصالح الاستقرار في الكوفة والبصرة[1] .

ومع ذلك ، فقد تبين نتيجة لهذا التنظيم ، أن أعداداً كبيرة من أبناء القبائل لا تندرج في الوحدات المحدثة ولم تدون في سجلات البصرة والكوفة . فعمد زياد الى حل لهذه القضية كان بسيطاً بمقدار ما كان جذرياً أيضا . هنا نظم نقل خمسين الف رجل وعائلاتهم من الكوفة والبصرة للاستقرار في خراسان بصورة نهائية . والمرجح ان الواقع

---

[1]) المصدر السابق، ص ٢٩

الذي شجعه على هذا التدبير هو أن الرجال الذين ذهبوا الى خراسان في حملة عام ٦٦٧م/٤٧هـ كانوا لا يزالون هناك وقد أمّل أن يرضى هؤلاء بالاستقرار في خراسان بقليل من الاقناع . ولا بد أن عائلات أولئك الرجال كانت مشمولة بالألوف الخمسين الذين أرسلوا الى خراسان عام ٦٧١م/٥١هـ . والغاية من هذا التدبير هي ضمانة الفتوح التي تحققت وتوفير القوات اللازمة للمزيد من التوسع . وكان والي خراسان الجديد هو الربيع بن زياد الحارثي ، أحد كبار الجنود المجربين الذين اشتركوا في الفتوح الأولى هنا . وفي عهده (٦٧١ ـ ٣م/٥١ ـ ٣هـ) ، وعهد ابنه الذي خلفه بضعة أشهر ، بلغت السلطة العربية ضفاف أموداريا . ولا بد من الاضافة هنا ان هذه العائلات وطنت في قرى واحة مرو مستفيدة الى أقصى حد من اتفاقية مرو التي كانت تشترط ان يفسح السكان المحليون في مساكنهم مجالا لسكن العرب[1] .

وهكذا وفرت خراسان حلاً لتدفق القادمين الجدد على العراق وصارت جزءا أساسيا من الامبراطورية . وحاول معاوية أن يوطد حق الحكومة المركزية بالحصول على المزيد من مداخيل هذه الفتوح الجديدة . وكانت وسيلته البارعة لذلك ، او الشديدة الوضوح على الأرجح في هذا المجال ، هي إحياء تطبيق ممارسة نبوية سابقة كانت تقوم على اقتطاع أجزاء محددة من الغنائم دعيت بالصوافي . وطلب من الحكم ان يبعث لبيت المال المركزي جميع المبالغ النقدية المجموعة في خراسان . ولكن الحكم ورجاله لم يكونوا مستعدين للقبول بمثل هذا التدخل من الحكومة المركزية ورفضوا الاسهام بأي شيء علاوة على الخمس المألوف . وتراجع معاوية بلباقة كعادته وبصورة موقتة على الأقل[2] .

وكان لتطبيق مبدأ الصوافي في العراق نتائج أشد خطورة . هنا كانت القضية المطروحة هي الأراضي الساسانية الشاسعة المهجورة التي اعتبرها القراء ملكاً خاصاً لهم . ولما أعلن معاوية أن القسم الأكبر من هذه الأراضي هو من الصوافي ، وطلب إرسال مداخيل هذا القسم الى بيت المال المركزي[3] أدرك القراء ان التدبير الجديد

---

١) المصدر السابق، ص ٣٢ ـ ٤

٢) المصدر السابق، ص ٣١

٣) اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢٣٣ ـ ٤

يحرمهم كل الحرمان من ادعاءاتهم بالنسبة لهذه الأراضي ومداخيلها . وسرعان ما أخذت تحركاتهم تهدد السلام الجديد القلق في العراق ، حتى استحال صنع أي شيء مع خصم معاند بصورة علنية كالقراء الخوارج الذين لم يتخلوا عن القتال في سبيل حقوقهم المزعومة، كما أن القضاء عليهم بسهولة لم يكن ممكناً . وفي كل مرة كانوا يطردون من مكان ما ، كان يسهل عليهم ان يقيموا جمهورياتهم الصغيرة في أمكنة أخرى في أملاك يعتبرونها ملكاً مشروعاً لهم . ولكن هذا الخطر أصبح بعد هذا التدبير شيئاً محصوراً[1] .

لقد أخطأ معاوية في موقفه من القراء السابقين الذين كانوا يعيشون بسلام في الكوفة والبصرة . فقد أساء تقدير إيمانهم المتشدد حتى التهور بصحة ادعاءاتهم ، وظن أنهم سيستقرون بهدوء كأبناء قبائل عاديين في ظل تنظيم زياد الجديد . ولكنهم كانوا بعيدين جدا عن الاستقرار . ثم تزايد تحركهم المكشوف في الكوفة الى درجة تهديد سلطة الحكومة والاستقرار في البلدة . وبعد تحذيرات قليلة غير ناجحة عمدت الحكومة الى اتخاذ تدابير أخرى جذرية . هنا اعتقل قادة القراء وأرسلوا الى دمشق حيث أعدم سبعة منهم . وكان بين هؤلاء حجر بن عدي الكندي القائد الذي حارب المرتدين ، واشترك في الفتوح الأولى في سورية والعراق معا ، ونافس قائد الردة الأشعث بن قيس برغم تزايد قوته ، على قيادة بني كندة ، وظل أحد أخلص أنصار علي حتى مقتله . ويبرز حجر هذا والستة الآخرون الذين أعدموا في مصادرنا على أنهم القادة المثاليون للقراء[2] . وكان إعدامهم سياسة غير مألوفة من معاوية . على ان هذا التدبير يدل على مدى خطورة حجر والقراء على الاستقرار في الكوفة . وهذه هي المرة الأولى التي يعطي فيها أمير المؤمنين نفسه صلاحية بالنسبة لحياة المسلمين وموتهم . وهذه هي المرة الأولى التي يجري فيها إعدام سياسي في الاسلام . لقد كان هذا التدبير فعالاً ، لكنه كان تهوراً وتحكما غير مألوفين من معاوية . ثم هدأت القبائل في الكوفة والبصرة موقتاً لكن هذا الاعدام قرّب الخلافة من الملكية الى حد كبير ، وجعل هذه القبائل قلقة على استقلالها العزيز .

---

١) اوضح رواية لهذه النقطة في ابن الأثير، الكامل، جـ٣، ص ٣٤٤ ـ ٧ و٣٥٢ ـ ٣

٢) الطبري، ٢، ص ١١١ ـ ٥٥، ومحمد بن سعد، الطبقات الكبير، جـ ٦، تحقيق ك. ف. زيتر ستين، لايدن، ١٩٠٩، ص ١٥١ ـ ٤

ثم ضاعف معاوية هذا الخطأ بظهوره مستبداً مرة أخرى في ترتيباته بشأن الخلافة . فقد اعتقد لسبب وجيه ان استقرار النظام يعتمد على انتقال الخلافة بعده بهدوء . ولذلك عزم على تسمية خلف له على طريقة أبي بكر . ولو انه كان لهذا المنصب مرشح واحد فقط ، لا إشكال حوله ، لمرّ هذا القدر القليل من التحكم بدون إثارة الانتباه ، ولكن الأمر لم يكن كذلك لسوء الحظ . فقد كان هنالك مرشحان بارزان من حيث المقدرة والمكانة في عائلة بني أمية والجيش السوري، والامبراطورية بصورة عامة . وأحدهما مروان بن الحكم الذي كان يتيمز الى حد كبير بأنه الخلف المتوقع لمعاوية في قيادة بني أمية . لكن مروان كان من ناحية أخرى قد قضى القليل من الوقت في سورية بحيث ان معاوية لم يكن واثقاً من حصوله على تأييد الجيش السوري له . وفي هذا المجال بالذات كان يزيد المرشح الآخر يمتاز عليه . فهو ابن معاوية وأمه من قبيلة كلب السورية وقد قضى حياته كلها بين السوريين ، ولذلك كان معاوية واثقا كل الثقة تقريبا من ولائهم لابنه . وهو ما حسم الأمر برغم الأخطار الواضحة من اتهامه بالسلالية . لقد كان معاوية يغامر بشأن هذه البدعة ولا بد انه كان يدرك ذلك ، إذ أنه حاول جعل هذه المغامرة مأمونة الى أبعد حد بترتيب المبايعة العلنية ليزيد قبل ان توفي حتى ولو عنى ذلك ارهاب المترددين والرافضين[1] .

ومن الصعب ان لا نتعاطف مع معاوية في دوافعه هذه . على ان شعور رجل حذر مثله يفضل الوسائل غير المباشرة دائما ، بالاضطرار الى التصرف بمثل هذا الاسلوب الاستبدادي المبتدع ، دليل على طبيعة نظامه القلقة . لقد حقق معاوية سلاماً واستقراراً موقتين ، اما القضايا الأساسية فقد تجنبها . كان رجال القبائل لا يزالون أقوياء مستقلين الى حد كبير . والحقيقة ان اصلاحات زياد في العراق أدت الى تفاقم القضية بتأكيدها على القبيلة وترسيخها لها وحدة أساسية للمجتمع . حقا ان معاوية لم يتخلّ عن السعي لاقامة نظام يعيش بلا إكراه ، ولكن هذه المحاولة كانت تتطلب مستوى عالياً جدا من المهارات السياسية والدبلوماسية ، وقدراً كبيراً جدا من إنكار الذات من قبل الحكومة بحيث أن رجلاً كمعاوية نفسه كان يتعذر عليه ان يحافظ باستمرار على مثل هذا المستوى المطلوب .

---

١) الطبري، ٢، ص ١٧٣ ـ ٧

وجاءت الأحداث في عهد خلفائه المباشرين تثبت هذه الحقائق بوضوح كلي . ففور وفاة معاوية أخذ النظام الذي رعاه يمثل هذا الجهد والمثابرة بالتفكك . وجاء التحدي الأول من الحسين ، الابن الأصغر لعلي . فقد كان الحسين شديد الاقتناع ان الوقت حان للعمل على استلام السلطة ، كما كان كبير الثقة بحشد الدعم الكافي له بين الشيعة ، أنصار والده في الكوفة ، حتى أنه زحف ، لا بل اندفع نحوها مصحوباً بأفراد عائلته وبعدد قليل من أتباعه . ولكنه كان مخطئاً . لقد كان من السهل على القوات الأموية ان تقضي على المجموعة بكاملها في كربلاء بجوار الكوفة . والواقع ان عملية بوليسية عادية كانت كافية لمواجهة هذه الثورة الشيعية . غير ان هذه المغامرة المتهورة التي انتهت بالفشل الذريع لم تحقق على المدى البعيد إلا المنفعة لقضية الشيعة اذ انها منحتها شهيدها الحقيقي الأول . وسرعان ما صارت الدعوة للثأر للحسين ولعائلته جزءاً وثيقاً أساسياً في الدعوة الشيعية ، وشعاراً لها ، ونداء يلتف أنصارها حوله .

ثم ان هذه المغامرة ساعدت على ترسيخ فكرة البيت ، أي قيادة عائلة معينة مميزة ومكرمة في الاسلام . إن أصول هذه الفكرة قديمة ، ففي التقليد العربي ان لكل قبيلة دائماً بيتاً بارزاً يعود بروزه الى إنجاز ملحوظ من شجاعة او سخاء او حلم بصورة عامة . ولم يكن بنو هاشم ، او عائلة الرسول ، العائلة القائدة في قريش إلا أن ظهور نبي الله فيها وفر لها أسباباً مقبولة لاعتبارها العائلة القائدة في قريش وفي الأمة الاسلامية جمعاء . ثم ان خلافة علي وابنه الحسن ، على قصرها وانعدام فعاليتها ، ساعدت هذه الفكرة بالطبع في تعميق سيطرتها على الرأي العام . ان الأمويين انفسهم شجعوا ، عن غير قصد ، هذه الفكرة على النمو حين زعموا ان عائلتهم كسبت حق البيت بسبب نجاح معاوية البارز وحلمه ونتيجة لتنازل الحسن[1] . تلك كانت حجة ضعيفة ، ثم ان اعتماد فكرة البيت دعما للأمويين خطرة إذ أن مجرد التسليم بفكرة البيت هذه يجعل ادعاءات بني هاشم في هذا المجال أكثر قوة الى حد كبير . إن إيراد تنازل الحسن يزيد في ضعف هذه الحجة إذ أن في هذه الاشارة اعترافاً بوجود بيت علوي في وقت ما . ثم ان تنازل الحسن لا ينجم عنه اسقاط ادعاءات الفروع الأخرى من بني هاشم . وهذا هو الابن الآخر لعلي قد طالب بالقيادة وقضى شهيداً في سبيل ذلك . وهكذا فان ثورة

---

١) ابن اعثم، فتوح، ص ١١٧ ب ـ ١١٨ ب، والطبري، ٢، ص ٢٨٠

فاشلة قد تركت تفاعلات سياسية كبيرة إذ أنها وضعت اللمسات الأخيرة لميثولوجيا صارت مصدر إلهام للكثيرين من المستائين المتذمرين في المستقبل .

وكانت ثورة عبدالله بن الزبير أكثر خطورة من ناحية مباشرة . لقد سبق ان ذكرنا ان معاوية لم يكن متورطاً بصورة خاصة مع القرشيين المتطرفين الذين وقفوا وراء ثورة طلحة والزبير قبل عشرين عاماً . ولم تكن هذه الفئة قد زالت سياسياً وإنما ظلت تنظر بريبة الى معاوية الذي تسلم السلطة واحتفظ بها بقوة الجيش السوري . ولم تكن قريش تستطيع ان تزعم أنها أسهمت بانتصار معاوية ، ولذلك شعرت حقا ان النظام الجديد لا يمكنه أبدا ان يمثل مصالحها تمثيلاً صحيحاً . وهنا قام هؤلاء القرشيون بمحاولة أخيرة لاستعادة مكانتهم . ومما له مغزاه ان الرجل الذي اختاروه أميرا للمؤمنين هو عبدالله ابن الزبير الذي كان أبوه قد ثار في وجه علي لأسباب مماثلة تماما . وكانت هذه الثورة خطيرة ثم زادت خطورتها عند وفاة يزيد . وكان لا بد من فك الحصار السوري عن مكة برغم ان هذا الحصار كاد ان يحقق هدفه لولا موت يزيد . ووقع الاختيار لخلافة بني أمية على ابن يزيد معاوية البالغ ١٩ سنة من العمر برغم احتجاجه وتمنعه ، وفي الواقع بلغ من شدة تمنعه انه توفي بعد بضعة أسابيع . ونجم عن ذلك ان عبدالله بن الزبير وجد نفسه في وضع قوي بصورة ملحوظة بعد أن أعلنت الولايات كلها باستثناء سورية مبايعتها له .

كان السوريون لا يعرفون في البداية الى أية جهة يميلون . اما قيسيو الجزيرة ، وهي جزء من ولاية سورية آنذاك فكانوا الفئة الوحيدة التي أخذت موقفا واضحا . فهم لم يغفروا لمعاوية انه فتح « منطقتهم » للمزيد من الهجرة ، ولم يروا سببا لدعم أسرته . فأعلنوا مناصرتهم لعبدالله بن الزبير ، ولعلهم كانوا يأملون منه ان يعيد اليهم استقلالهم الذاتي في الولاية . يضاف الى ذلك ان القسط الكبير من الدعم الذي حاز عليه ابن الزبير كان من الحجاز ، الموطن الأصلي لأبناء قبائل الجزيرة[1] .

وكان الباقون من السوريين منقسمين . والكثيرون منهم مالوا الى تأييد ابن الزبير لا سيما وهو بالطبع لم يقترح إحداث أي تغيير في وضعهم . لكنهم لم يكونوا من ناحية ثانية

---

١) البلاذري، انساب، جـ ٥، ص ١٣٢ و ١٣٣ و ١٣٦ والطبري، جـ ٢، ص ٤٦٨ و ٤٧١ و ٤٧٢ و ٤٧٣ و ٤٧٤ و ٤٨٢ و ٤٨٣ .

على استعداد لتأييده الى درجة القتال في سبيل قضيته . وكان بعض بني كلب يريدون استمرار منصب أمير المؤمنين في بيت معاوية ، ولكن أحداً من أبنائه لم يكن كبيرا الى حد كاف لتسلم هذا المنصب . يضاف الى هذا أن بني كلب كانوا يفتقرون الى القوة لفرض رغبتهم على زملائهم السوريين[١] . ثم ان قبائل كندة في سكون من جند الأردن ، كانت في البداية مؤيدة لابن الزبير لكنها سرعان ما أدركت أن مرشحاً أمويا فقط هو الذي يستطيع ان يوحد السوريين ويضمن لهم امتيازاتهم[٢] .

وظهر مروان بن الحكم مرشح تسوية . وبرغم أن معاوية كان قد تجاوزه مفضلاً عليه ابنه يزيد فان مروان كان العضو الأكبر في بيت بني أمية . ويبدو ايضا انه وعد قبائل سكون بمنحها المزيد من الأراضي في البلقاء في الاردن[٣] . وسرعان ما بويع مروان أميرا للمؤمنين ثم اعلن القسم الأكبر من السوريين وقوفهم موحدين وراءه . وكانت مهمته الأولى تثبيت قاعدته واعادة قبائل الجزيرة الى الحظيرة . وحسمت القضية لصالحه في معركة مرج راهط . ثم تابع إخضاع الولايات الأخرى التي كانت قد بايعت ابن الزبير . وكانت مصر هدفه الأول الأسهل . وبدون اية صعوبة اقنع مروان القبائل في مصر برفض الخضوع لمنافسه المكي وبالتوقف عن إرسال شحنات القمح الى الحجاز[٤] . هذا ما أنجزه مروان قبل ان توفي بعد تسعة أشهر في الخلافة ثم وقعت مهمة متابعة الصراع ضد ابن الزبير على ابنه وخلفه عبد الملك الذي توفرت له الوسائل للقيام بهجوم ضخم معاكس .

ووجد الزبير نفسه ، كعلي من قبله ، محروما من تأييد مصر وسورية وغير حائز على الدعم من ولاية موحدة وقوية عسكريا ، فاضطر الى التوجه نحو العراق من أجل الدعم الرئيسي له . ومن المسلم به ان البصرة بادرت الى الاعتراف به كما ان الكثيرين من قادة قبائل الكوفة كانوا ميالين لاتخاذ الموقف ذاته ولو في سبيل الابقاء على الاستقرار

---

١) البلاذري، انساب، جـ ٥، ص ١٢٨ و ١٢٩ و ١٣٣ و ١٣٤ والطبري، ٢، ص ٤٦٨ و ٤٧٠ و ٤٧١

٢) البلاذري، انساب، جـ ٤، ص ٥١ ـ ٢ و٥٥ وجـ ٥، ص ١٢٨ و ١٣٤ و ١٤٩ والطبري، جـ ٢، ص ٤٣١ ـ ٢

٣) البلاذري، انساب، جـ ٥، ص ١٤٩ والطبري ٢، ٤٨٧

٤) المصدر السابق، ص ١٤٨ ـ ٩ والكندي، الولاة، ص ٤٢ ـ ٨ وابن اعثم، فتوح، ٢، ص ٥٢أ ـ ب

الاجتماعي على الأقل[١] . كانت القضية الوحيدة التي كانت لا تزال تجمع بين الكوفيين هي إجماعهم على كره بني أمية . وفي صفوف عامة الكوفيين كانت الميثولوجيا الشيعية قد بدأت تترسخ بعد ان أخذ هؤلاء يدركون مدى الانتفاع الذي كان يحققه هم نهج علي القائم على المساواة[٢] . ومن المؤكد ان فئة ضئيلة منهم فقط رأت سبباً لتأييد فعال لسيطرة خارجية جديدة . واستغلالاً لهذا الشعور الشيعي عمدت بقايا فئات القراء السابقين في الكوفة الى اعلان خطأها في عدم دعم الحسين ، وبذلك اكتسبت اسماً جديداً هو التوابون . ثم أعلن هؤلاء مقاومتهم لعبد الملك ولابن الزبير معاً ، وقرروا ان عبد الملك هو العدو الأول المباشر ، ثم زحفوا على سورية لتحطيم قوته مبالغين الى حد كبير بتقدير قوتهم مسيئين تقدير قوة خصمهم . فهزمهم الجيش السوري بأقصى السهولة ، ولم ينج منهم غير عدد ضئيل جداً عاد الى الكوفة لاثارة الاضطراب[٣] .

في هذه الأحوال المضطربة كان المجال مفتوحاً امام أي رجل يملك حداً كافياً من المهارة والجرأة . وكان الرجل الآخر الذي لجأ في الكوفة الى تجريب حظه في هذا الميدان هو المختار بن ابي عبيد الثقفي . انه يتحدر من عائلة مميزة ذات علاقات متينة بالعراق . وكان أبوه قد قاد الحملة الأولى في العراق ولاقى مصرعه في معركة الجسر ، كما ان عمه كان قد وُلِّي المدائن في عهد علي وابنه الحسن . ثم ان المختار نفسه كثيرا ما قام بالولاية بالنيابة عنه . وكان عميق الاطلاع على شؤون الأحزاب في الكوفة ، كما كان يملك أراضي في السواد ، ولكنه فضل ، مع ذلك ، ان ينسحب الى الطائف بلدة قبيلته . وعرض على ابن الزبير ان يناصره لقاء ثمن محدد ، غير أن هذا الأخير شعر ان لديه من القوة ما يكفي للاستغناء عن مناصرته . عند ذلك قرر المختار ان يعمل لحسابه . انمصادرناشديدة العداء له ، على انه يبدو انه كان انتهازيا طامعاً يتصف بالكثير من القدرة والحذق . ولعل سياسيين آخرين دون المختار نفاذ بصيرة كانوا يظنون ان حيوية الحركة الشيعية قد تلاشت مع فشل حملة التوابين . ولكن المختار سرعان ما أدرك ان قوتها الأساسية هي في كونها نقطة التقاء للمتذمرين . وحيال ذلك تبنى القضية الشيعية وأنشأ ما عرف آنذاك باسم شرطة الخميس أي أولئك المتميزين الموالين في الجيش . كان

---

١) البلاذري، انساب، جـ ٥، ص ١٨٨ و ٢٠٧ و ٢١٢ و ٢١٨
٢) المصدر السابق، ص ٢٢١
٣) المصدر السابق، ص ٢٠٤ ـ ١٣ والطبري، ٢، ٤٩٧ ـ ٥٠٩ و ٥٣٨ ـ ٧٦

هؤلاء يشكلون النواة الصلبة لانصار علي في الكوفة وكان عددهم دون ١٢ الفا من رجال القبائل[١] . وقامت ثورة المختار للثأر للحسين باسم محمد بن الحنفية ، أحد أبناء علي من زوجته من قبيلة حنيفة . نحن لا نعلم موقف محمد بن الحنفية من هذا العمل الذي فرض عليه بصورة غير متوقعة . ولعله في الواقع لم يستشر بشأنه أبداً . أما إذا كان قد استشير ، فإنه لم يكن بإمكانه على كل حال ان يوافق عليه إلا ضمن إطار في منتهى الغموض من العموميات . ومهما كانت حقيقة الأمر فان ذلك لم يكن ذا أهمية في الكوفة لأن المختار أعلن محمدا بن الحنفية مهديا . تلك كانت خطوة بارعة جداً ، >' كانت المثال الأول لفكرة الشيعة الأساسية بالنسبة لامام يكون أميراً للمؤمنين ويحقق العدل للجميع ثم أعلن المختار أيضا انه مستمر في استلام السلطة المدنية كوزير للامام الى ان تحقق الثورة نجاحها . مرة أخرى كانت هذه الخطوة سابقة هامة جدا في الثورات الشيعية قلدها قادة الثورة العباسية .

أحرزت ثورة المختار نجاحاً مثيراً لبعض الوقت . ان مضامينها ومظاهرها الشيعية جذبت اليها بالطبع دعم من تبقى من التوابين وتأييد الشيعة المتشددين بقيادة ابراهيم بن الأشتر الذي كان أبوه قد ظل مؤيداً لقضية علي ، رافضا ان يتخلى عنها أبداً . كذلك استطاع استمالة القادمين الجدد إذ كان من السهل عليه ان يزعزع ولاءهم للقادة المعينين من قبل بني أمية . وكان هذا الائتلاف قوياً الى حد كاف مكن المختار من طرد والي ابن الزبير من الكوفة وتنصيب نفسه وزيراً للامام . ثم تمكن المختار من المحافظة على هذا التحالف بحملة دعائية غير مألوفة الى أقصى حد ، مبشراً بأسلوب قرآني رائع ، متنبئا بأحداث كانت تقع فعلا في بعض الأحيان ، مقدما لأنصاره صندوق عهد شيعيا على شكل كرسي قديم كان لعلي فيما مضى . وهنا لا بد من التأكيد على نقطة هي ان المختار لم يوجه ، على ما هو مظنون بصورة عامة ، دعوة واسعة للموالي ، أو المسلمين غير العرب لمناصرته . من المسلم به اننا نسمع بوجود ٢٣٠٠ مولى بين أنصاره . ومع ان هذا العدد مبالغ فيه على الأرجح ، فإنه قليل بالنسبة لعدد مناصريه من العرب . ثم ان ضآلة أهميتهم تزداد وضوحاً عندما نلاحظ انهم كانوا لا يجندون إلا كتدبير استثنائي لحفظ الأمن في الكوفة حين يكون معظم أنصاره قد أرسلوا الى التبشير في الأرياف ، ولا

---

١) الطبري، ٢، ص ١ و٣ و٧ والبلاذري، انساب، جـ ٥، ص ٢٤٩ و٢٥٣ و ٢٦٠

سيها في الشمال . لقد كان ذلك تدبيرا طارئاً . ثم ان هؤلاء الموالي أثبتوا انهم غير موثوقين وغير فاعلين الى حد كبير في المعركة . ان النقطة الحقيقية الهامة الوحيدة في هذا المجال هي ان عدداً كبيراً من العراقيين المحليين العاطلين عن العمل اندفعوا نحوالكوفة ، مما أدى الى نشوء مشكلة خطيرة فيها بعد .

والواقع أن نظام المختار هذا لم يكن غير نظام أقامه غوغائي استغل وضعاً مضطرباً . لقد كان نظاماً شديد الضعف يعجز عن تحدي السلطة الحقيقية للأمويين أو لابن الزبير . ثم انه كان قلقاً جداً حتى بالنسبة للكوفة بالذات . لقد كان نظاماً أنشأه المتذمرون . وسرعان ما عمد أشراف الكوفة ، او قادة قبائلها الحاكمون ، الى القاء ثقلهم بجانب ابن الزبير كوسيلة وحيدة لاستعادة مكانتهم السابقة . فقد انسحبوا الى البصرة ، وانضموا الى جيش الحاكم المكي ثم زحفوا على الكوفة . وبذلك تصدوا للمختار واضطر ابن الاشتر للتخلي عنه . وانهارت وزارته ولاقى حتفه الى جانب نحو مئتين من أشد أنصاره تعصباً[1] .

لم تكن هذه الثورة آخر انتفاضة حدثت نتيجة الانهيار الموقت للسلطة الأموية . لقد حدث ما هو أسوأ من ذلك فيها يمكن اعتباره تكراراً لحروب الردة برغم انه ينظر اليه أحياناً كثورة خوارج . ان مصادرنا تشير الى هؤلاء الخوارج الجدد على انهم أزارقة او نجدية على اسمي اثنين من قادتهم البارزين ، هما من أبناء قبيلة حنيفة . وبرغم وجود قادة آخرين من بني حنيفة لهذه الثورة ، فقد كان هنالك قادة ومؤيدون من قبائل أخرى أيضا . لذلك نخطيء اذا دعوناهم كلهم من بني حنيفة . والميزة الغالبة لمصادرنا هي أنها تدعوهم على اسمي قائدين بارزين : نجدية ، أي أنصار نجدة بن عامر ، وأزارقة ، أي أنصار نافع بن الأزرق .

كانت قبيلة حنيفة في وسط شبه الجزيرة العربية إحدى أكبر القبائل عدداً وأقواها في شبه الجزيرة . وهي لم تخضع عن طيب خاطر الى اية سيطرة خارجية . لقد كانت حقاً احدى القبائل التي خاضت حروب الردة ، ولكنها لم تكن قبيلة مرتدة لأنها لم تدخل في أي تحالف مع الرسول[2] . وها هي الآن ، بعد خمسين عاماً ، تعرض مساعدتها على

---

١) المصدر الأفضل والأكمل لهذه الفترة هو البلاذري، انساب، جـ ٥، ص ٢١٤ـ ٧٣

٢) راجع الفصل الثاني.

ابن الزبير أملاً في التخلص من السيطرة السورية . لكن ابن الزبير رد على بني حنيفة كما رد على المختار ، رافضاً العرض ، إذ أن الثمن المطلوب هو المزيد من الاستقلال . وكان ابن الزبير يخشى تأثير مثل هذه التنازلات على أنصاره الآخرين من جهة ، ويثق من جهة ثانية ، الى حد كافٍ بقدرته على مواجهة خطر الرفض بكل ما يحمله من نتائج . غير أنه كان مخطئا في موقفه هذا إذ أنه عامل قبيلة بني حنيفة الكبيرة كما عامل المختار . عند ذاك قرر بنو حنيفة الذين جرحت كرامتهم ، وهم الفخورون بقوتهم ، أن يقضوا على السيطرة المكية والسيطرة السورية معا بتحطيم قوة ابن الزبير في العراق[1] . وأخيرا سعوا للتحالف مع زملائهم أبناء القبائل الأخرى بين الخوارج ، ونظموا هجوماً مركزا على البصرة . وبسبب هذا التحالف تصف مصادرنا الهجوم على انه عصيان قام به الخوارج . لكن ذلك أبعد ما يكون عن الصحة . ان ثورة بني حنيفة لا علاقة لها بالنزاعات الاجتماعية والاقتصادية التي سببت ثورة القراء والخوارج في العراق على علي . ان هذه الحركة الموسومة بأنها حركة خوارج كانت في الواقع ثورة كبرى في شبه الجزيرة العربية بقيادة قبيلة ذات تقاليد استقلالية عميقة ، تحالفت مصادفة مع الخوارج للقيام بحملة في العراق . ولم يكن هذا التحالف ايديولوجيا لكنه كان تحالفاً بين مجموعتين مستقلتين لهما مصالح متشابهة ، لا متطابقة ، تعملان للدفاع عنها . والواقع انه كان تحالفا عظيم المنفعة للطرفين لما هنالك من التكامل بين نقاط القوة والضعف فيهما معاً . كان الخوارج يستطيعون جمع المزيد من الثروات من المناطق التي يسيطرون عليها في فارس وخوزستان ، بينما كان بنو حنيفة يستطيعون تجنيد المزيد من الرجال من صفوفهم ومن صفوف القبائل الأخرى التي تدعمهم في الأنحاء الشرقية من شبه الجزيرة العربية .

وكان موقع بني حنيفة ملائما بصورة مثالية لقطع ابن الزبير عن العراق قطعاً تاماً . يضاف الى ذلك ان بني حنيفة كانوا يسيطرون على اليمامة وهي المنطقة البديلة لتموين الحجاز بالقمح الذي توقف شحنه من مصر[2] . في البداية قام بنو حنيفة بتوسيع سيطرتهم نحو الشرق الى الخليج العربي وتمكنوا بعد مقاومة ضئيلة من ترسيخ أقدامهم

١) الطبري، ٢، ص ٤٠١ - ٢ و٥١٣ - ١٧ والبلاذري، انساب، جـ ٤، ص ٤٧

٢) البلاذري انساب الأشراف، جـ ١١، تحقيق و. اهلواردت، غرايفسوالد، ١٨٨٣ ص ١٣٩.

في البحرين . وهنا انضم الكثيرون من أبناء تميم وعبد القيس الى ثورة بني حنيفة(١) . الا انهم واجهوا مقاومة ضارية من بني ازد(٢) حين حاولوا السيطرة على عُمان وكان بنو أزد هؤلاء بالذات هم الذين تمكنوا في النهاية من القضاء على الثورة، على ان ذلك لم يتم قبل ان انتقلت عبر الخليج.

لقد اجتازت الخليج العربي أعداد كبيرة من أبناء قبائل حنيفة وتميم وعبد القيس للانضمام الى رفاق من الخوارج في غزواتهم لمنطقة البصرة(٣) . وسرعان ما تمكنت هذه القوات من السيطرة على مساحات زراعية واسعة في فارس والأهواز ، حارمة البصريين بذلك من مواردهم ، كاسبة لنفسها قاعدة مأمونة للقيام بغزوات على البصرة بالذات . وأثار هؤلاء الخوارج الجدد قبائل أخرى في الانحاء الشرقية والوسطى من شبه الجزيرة العربية للاقتداء بهم وبذلك بلغت أعدادهم وثرواتهم وقوتهم حدودا فاقت إمكانية السيطرة عليها والحد منها . واتسعت هذه الموجة الجديدة من النزوح العدائي غير المنضبط حتى ان سلطات البصرة ارتعدت خوفاً على سلامتها . على انه كان من حسن حظ هذه السلطات وحظ ابن الزبير أن قبائل أخرى باقية في شبه الجزيرة العربية تشجعت على التشبه بالنازحين الجدد لما شهدته من نجاحهم . وكانت هذه القبائل تنتسب في الغالب الى بطون أزد عمان وكانت الحليفة الطبيعية لأزد البصرة . وسرعان ما تم الاتفاق بين المجموعتين . وقبل النازحون الجدد بقيادة المهلب بن ابي صفرة في حملات على الخوارج الجدد، مقابل الحصول على ما لا يقل عن دخل ثلاث سنوات لكل منطقة تستعاد للبصرة(٤) . تلك كانت صفقة ممتازة . وحقق المهلب والنازحون الجدد نصراً بعد نصر على الخوارج الجدد ، ثم أرغموا الناجين منهم على اللجوء الى مناطق قاحلة في كرمان وسجستان ، حيث كانوا بعيدين بعداً كافياً عن الحكومة المركزية بحيث لا يشكل أي من الطرفين إزعاجاً للآخر(٥) .

---

١) المصدر السابق، ص ٨١ و ١٢٨ و ١٣١ ـ ٣

٢) المصدر السابق، ص ١٣٥ وابن حزم، جمهرة، ص ٣٨٢

٣) البلاذري، انساب، جـ ١١، ص ٨٦ و ٩٣ و ١٣٥ و ١٤٨ والطبري، ٢، ص ٥١٧ و ٥٢٠ و ٥٨٨ وبن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ٢٥٢ ومحمد بن احمد الذهبي، تاريخ الاسلام، القاهرة، ١٣٦٧ ـ ٩ هـ، جـ ٢، ص ٣٦٠

٤) البلاذري، انساب، جـ ١١، ص ١٠٣ والطبري، ٢، ص ٥٨٤ و ٥٨٧ و ٥٩٠ و ٥٩١ وابو العباس محمد المبرد، الكامل، تحقيق و. رايت، لا يبزغ ، ١٨٧٤ ـ ٨٢، جـ ٢، ص ٦٢٧ ـ ٨

٥) عن انشاء جيش المهلب انظر: Shaban, *The Abbasid Revolution*, P. 55

على ان هذه الصفقة جاءت لمصلحة الأمويين أكثر منها لابن الزبير إذ أن المهلب ورجاله لم يجدوا صعوبة في التفاهم مع الأمويين ، ثم واصلوا حملاتهم حتى إحراز النصر النهائي تحت رعاية دمشق[1] . وحيال ذلك وجه السوريون قوتهم الكاملة ضد ابن الزبير لأول مرة . فسحق الأمويون جيشه العراقي واحتلوا العراق . ثم أرسلت حملات بحرية من مصر الى الموانىء المختلفة في شبه الجزيرة العربية[2] . وهوجمت مكة نفسها وقتل ابن الزبير ، وبويع عبد الملك بن مروان أميراً للمؤمنين . وتم الاعتراف به في جميع أنحاء الامبراطورية بعد أن أخمد بصورة حاسمة انتفاضة نسيبه عمرو بن سعيد للمطالبة بالعرش . وكان عمرو قد استند في مطالبته هذه الى حقوقه كرئيس لعائلة بني أمية ، ولكن ذلك كله كان عبثا لأن محاولته انتهت باعتقاله وإعدامه بناء على أوامر عبد الملك[3] .

ان النتيجة الهامة لهذه الحرب الأهلية الثانية كانت التوسع التدريجي لنظام العطاء المخصص للسوريين . وحيال خطر الاضطراب في العراق وثورة ابن الزبير في الحجاز وجد يزيد الأول نفسه مضطرا لاستدعاء حامية قبرص الى سورية[4] ، وهي في الواقع الحامية الوحيدة التي كان أفرادها جنوداً نظاميين يتناولون عطاء منتظماً . ومنح الجنود الذين أرسلوا لمحاصرة ابن الزبير في مكة مبلغ مئة دينار لكل واحد منهم للقيام بهذه الحملة بالذات[5] . لقد كان مروان يعد بمنح الأراضي لبعض رجال القبائل في سورية كلما احتاجهم لتوطيد حكمه[6] . ولدينا روايات قليلة عن رواتب بلغت ٢٠٠ دينار أو ألفي درهم ، كانت تدفع في الجزيرة لقادة كانوا في الغالب يقومون بوظيفة رسمية[7] . إلا أنه لا توجد إشارة قبل وفاة مروان الى عطاء دفع على نطاق واسع في سورية والجزيرة ومصر ، على غرار ما كان يجري في العراق .

---

١) الطبري، ٢، ص ٨٢١ ـ ٢
٢) الكندي، الولاة، ص ٥١
٣) البلاذري، انساب، جـ ٤، ص ١٣٨ ـ ٤٦
٤) البلادري، فتوح، ص ١٥٣.
٥) الطبري، ٢، ص ٤٠٧، والبلاذري، انساب، جـ ٤٤، ص ٣٣ ومع ان هذا العطاء مذكور في هذه الروايات فالأرجح انه عطاء الجنود الذين استقدموا من قبرص.
٦)البلادري، انساب، ج ٥، ص ١٤٩ والطبري، جـ ٢، ص ٤٨٧
٧) البلادري، انساب، جـ ٥، ص ١٣٦ والطبري، ٢، ص ٤٧٧ ـ ٨

لقد احتاج عبد الملك الى دعم السوريين له في وجه ابن الزبير في العراق والحجاز . وقد طلب الكثيرون من أبناء هذه القبائل عطاء بلغ أعلى حد ونالوه مقابل خدماتهم خارج سورية . ثم اتسعت هذه الممارسة في عهد عبد الملك على سبيل المكافأة او على سبيل التشجيع للقيام بعمل معين[1] . وقد نشأت في ذلك الوقت مناسبات كثيرة مماثلة ، كما سنرى ، بحيث ان غالبية السوريين كانوا في نهاية عهده يتناولون عطاء منتظماً ، وصارت خدماتهم مطلوبة في جميع أنحاء الامبراطورية .

---

١) الطبري ، ٢ ، ص ٨٩٣ والبلاذري ، انساب ، جـ ٥ ، ص ٣٦٨ وجـ ١١ ، ص ٥٨ والمسعودي ، جـ ٥ ، ص ٢٠٠

الفصل السادس
عصر الحجاج

لعل عبد الملك بن مروان لم يكن يملك حين وصل الى الحكم عام ٦٨٥م/٦٥هـ أي غاية سياسية واضحة غير استعادة الاستقرار الذي عرف في عهد معاوية ، وذلك عن طريق انتهاج السياسات الحذرة ذاتها . وتلك كانت بالطبع لمصلحة السوريين . ومن الواضح أنها كانت سبب تأييدهم لمروان ولعبد الملك . غير ان هذه الخطة ، إذا كانت قد حققت الاستقرار لسورية ، قاعدة السلطة للحكومة المركزية ، فإنها لم تقدم أي حل للمشاكل المزمنة في بقية أنحاء الامبراطورية . ولا بد ان عبد الملك أدرك ان الحرب الأهلية الثانية اثبتت ان مثل هذه الخطة غير وافية ، إلاّ أنه أدرك ايضا المخاطر التي تلازم إدخال أي تغييرات أساسية ، ولا سيما في مثل هذه الظروف المضطربة القائمة في الامبراطورية . فعمد بالتالي الى الحكم بحذر شديد ، من غير ان يتقدم بأي تغييرات جذرية ، وحاول ان يعالج الأوضاع الجديدة في الامبراطورية بأسلوب عملي فعال . وكانت طريقته في الحكم طريقة الحاكم الواقعي الذي لم يكن يرى سبباً لتغيير السياسات الموروثة ما لم تفرض الأحداث ذلك فرضاً لا مندوحة منه . ولا ريب أنه كان حاكماً مقتدراً ، ولكنه كان ، فيما يبدو ، يفتقر الى الخيال ونفاذ البصيرة اللازمين لوضع سياسات بعيدة المدى على أسس منظمة . كان يضطر الى العنف متصديا بالدرجة الأولى للأحداث التي تقع في الامبراطورية أكثر منه بمبادرة شخصية . وكانت مثل هذه التدابير تثير معارضة قوية ، مما كان يؤدي بدوره الى تدابير أشد عنفاً . وتحولت التدابير التي أريد لها أن تكون موقتة في طبيعتها ، الى سياسات متصلية وطبعت بطابعها المتحجر السياسة الاستبدادية التي سادت النصف الثاني من عهد الملك . والأسوأ من هذا ان سياساته صارت النهج السياسي الذي اتبعه آل مروان طوال خمسين سنة تبقت لهم في السلطة ، باستثناء خمس سنوات منها .

إن أحد الأسباب الرئيسة التي جعلت السياسة التي ننسبها دائماً الى عبد الملك وعامله الموثوق الحجاج تتطلب مثل هذا الوقت الطويل لنشوئها هو ان كل تغيير رئيسي في السياسة لا بد له ايضا ان يشمل العراق الذي كان منذ فتحه أكثر الولايات اضطرابا وأصعبها على الحكم . وواجهت عبد الملك في النصف الأول من حكمه مشاغل عديدة ضاغطة في ولايات أخرى حالت دون تورطه في هذه الدوامة . فمن ناحية أولى ، ان منافسه أمير المؤمنين في مكة لم يكن قد هزم هزيمة كاملة . والواقع انه اقتضته ثمانية أعوام قبل ان يتمكن من القضاء على ابن الزبير وإخضاع مركزي المقاومة الباقيين في مكة والمدينة . ولما انتهى عبد الملك من مواجهة هذه المشكلة وجد نفسه مضطراً لتحويل انتباهه الى افريقيا الشمالية حيث كانت قبائل البربر قد اغتنمت مناسبة الحرب الأهلية للتخلص من الحكم العربي . وفي عام ٦٩٤م/٧٤هـ تدفقت القوات السورية على شمالي أفريقيا ، وأخضعت البربر وتمكنت بالتالي من نقل الجبهة العربية الى طنجة . وحققت بذلك نجاحاً كبيراً حتى ان كثيرين من البربر اعتنقوا الاسلام ، ثم انخرط ١٢٠٠٠ منهم في الجيش العربي . والحقيقة ان احتلال اسبانيا فيما بعد كان انجازاً بربريا أكثر منه عربياً[١] .

ولو ان عبد الملك كان قد وجه تفكيره الى مشاكل العراق ، فانه لم يكن في أي فترة من سنوات عهده العشر الأولى في وضع يمكنه من تنفيذ تفكيره . ومع ذلك فقد كان لا بد من عمل شيء ما . ومع ان سورية كانت الدعامة الأساسية لحكم آل مروان ، فان العراق كان متحكما بصورة فعالة في السياسة الداخلية بمعنى ان مشاكله كانت تشغل القسم الأكبر من وقت كل حاكم . فهو لم يكن أكثر الولايات اضطرابا وأقلها استقرارا وحسب ، لكنه كان ايضا اكثر الولايات عربا من حيث العدد . وفي تقدير تقريبي جدا كان عدد أبناء القبائل فيه ثلاثة اضعاف أبناء القبائل في سورية . وبينما كانت الحملات السورية لا تزيد أبدا عن ٣٠٠٠٠ رجل ، فقد كان زياد والحجاج ينظمان في أوقات مختلفة هجرات تبلغ مثل هذا العدد نحو الشرق للتخلص من تزايد السكان العرب في العراق[٢] .

---

١) ابن خلدون ، كتاب العبر ، القاهرة ، ١٢٨٤هـ، جـ٦ ، ص ١٠٩ وابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٢٠١ وابن الأثير ، الكامل جـ٤ ، ص ٣٠٢ .

٢) البلاذري ، أنساب، جـ٥، ص ١٦٧ .

عَهِد عبد الملك في البداية الى أخيه بشر بن مروان بالولاية على العراق . ولم يفعل بشر شيئاً يذكر ، فيما يبدو ، فقد كان غير ذي فعالية . ولا شك ان هذا هو سبب تعيينه لهذا المنصب لأن عبد الملك لم يكن ليغامر آنذاك في تعيين والٍ قوي على العراق . وكانت شؤون العراق ، كما هو متوقع ، بعيدة عن ان تكون مرضية في عهد بشر . لقد كانت المشكلة الاساسية هي فتور الكوفيين في دعم حكم آل مروان وفتور البصريين بالنسبة للحملة على الخوارج الجدد . ولعل عدم اهتمام الكوفيين بالقتال في سبيل الأراضي التابعة للبصريين أمر لا يثير الدهشة ، غير ان البصريين انفسهم لم يقدموا أية مساعدة للمهلب ورجاله في استعادة أراضي البصريين من الخوارج الجدد . ومما جعل الأمور تزداد سوءا انهم أنكروا على جيش المهلب حصته من دخل الأراضي المستعادة[1] . لقد كان رجال القبائل مقتنعين بأنهم يستحقون عطاءهم لا لخدمتهم في الجيش ولكن لأنهم عرب وحسب .

ولقد كان هناك خطر دائم من امتناع رجال القبائل عن الاشتراك في الحملات السنوية . ومع تزايد خطورة هذه المشكلة كانت العقوبات تزداد قسوة . ففي عهد عمر وعثمان كانت العقوبة تشهيرا عاماً بنزع عمامة الممتنع عن الانضمام للحملة . وفي عهد ابن الزبير فرض على الممتنع حلق شعر رأسه ولحيته . وينسب الى بشر انه كان يتخذ تدابير أشد قسوة إذ صار الممتنع يصلب على جدار[2] . غير أن قسوة العقوبة التي بقيت دون الاعدام عجزت عن حل المشكلة . وظل الخوارج الجدد غير مهزومين في نهاية ولاية بشر .

وكانت سنة ٦٨٥م/٧٥هـ نقطة التحول في عهد عبد الملك . ففي هذه السنة هزم ابن الزبير والبربر ، وبذلك توفر له الوقت والقوة للانصراف إلى معالجة مشاكل العراق. وبعد وفاة بشر الضعيف عين الحاج الثقفي والياً جديداً. وكان الحجاج لا يزال شابا في الثلاثينات من عمره . وكان قد أثبت كفاءاته الكبيرة في الحرب الأهلية . وهو الذي تمكن في النهاية من القضاء على ابن الزبير ، ثم تمكن بصفته واليا أن يعيد إخضاع الحجاز . ولما كان عبد الملك يريد ان يتجنب الخطر الذي تتعرض له

---

١) البلاذري، أنساب، جـ١١، ص ١٠٣ والطبري، ٢، ص ٨٤ه و٨٥٧
٢) ابن الأثير، الكامل، جـ٤، ص ٣٠٨ والبلاذري، أنساب، جـ١١، ص ٢٧٠ .

مكانة عائلته بحال فشل والٍ آخر على العراق من آل مروان ، لذلك جاء اختياره للحجاج اختياراً مناسباً . وفي البداية لم تكن لأي منها فكرة واضحة عما يجب عمله في العراق لكنهما كانا مصممين على استبدال حكم بشر السلبي بحكم آخر أشد فعالية وقوة . مع ذلك فان هذه الغاية البسيطة الغامضة كان لا بد لها ان توجب تغييراً رئيساً في السياسة .

أنفق الحجاج السنوات الثلاث الاولى من ولايته في تأمين السيطرة على الوضع . وقد عنت هذه المرحلة الأولى ، كما في مرات اخرى كثيرة في العراق ، إخماد عدد كبير من حركات التمرد . وكانت مهمة الحجاج الأولى ان يتغلب على عادة أبناء القبائل إهمال الالتحاق بالحملات العسكرية . هنا كان الحل الذي اعتمده ، كما في جميع نشاطاته ، بسيطا لا رحمة فيه ولا شفقة . فاذا رفض رجل الانضمام الى الحملة المقررة له أعدم . وجاءت النتائج مشجعة ولو انها كانت مثيرة بعض الشيء بالنسبة للمهلب . فقد انضم الكوفيون والبصريون وبعض القراء السابقين الى جيشه في محاربة الخوارج الجدد[1] . على أنها كانت حملة متعبة الى حد ما إذ أنه كان يصعب حمل أبناء القبائل العراقية وقوات المهلب العمانية على التعاون معا ، ولو انها حققت هدفها بإخراج الخوارج الجدد من الأهواز وفارس مرة اخرى الى كرمان الواقعة بعيدا الى الشرق . وعند هذه النقطة انفرط الائتلاف المتعب مما أدى الى ارتياح المهلب ، وتركه لمتابعة هذا النصر على رأس قواته الخاصة[2] .

إن عددا غير كبير من الايرانيين البارزين الذين أسلموا ، كفيروز حسين ، أحد كبار الملاكين العقاريين الأغنياء في العراق اشترك في محاربة الخوارج الجدد[3] . وقد كانت مصلحة هذه الطبقة تقضي بأن يكون الحكم القائم مستقراً . غير ان هذا الشيء لم ينطبق على السكان الأصليين في كرمان التي كانت الملجأ الأخير للخوارج الجدد . لقد كان تاريخ كرمان غريبا الى حد ما . وقد ذكرنا من قبل أنها أخضعت نهائيا أثناء الحملة الأولى التي قام بها عبدالله بن عامر على خراسان عام ٦٥١م/٣١هـ . ان مصادرنا

---

١) ابن الأثير، الكامل، جـ٤، ص ٣١٦ والمبرد، الكامل، جـ٢، ص ٦٧٠ والطبري ٢، ص ٨٧٦ .
٢) الطبري، ٢، ص ٨٧٧ـ٨
٣)المصدر السابق ص ١٠١٩ ـ ٢٠ والمبرد، الكامل، جـ٢، ص ٦٥٤

واضحة بصورة استثنائية بالنسبة لتفاصيل استيطان العرب فيها بعد ذلك . فقد فر العديد من السكان المحليين ، وتركوا اراضيهم . اما القلائل من أبناء القبائل العربية الذين قرروا الاستقرار في كرمان فعمدوا الى قسمة هذه الأراضي فيمابينهم وحراثتها ودفع العشور عنها[1] . وبعد ذلك لا تذكر مصادرنا أي اضطرابات في كرمان مما يحتم علينا ان نستنتج ان العرب اندمجوا بالسكان الأصليين بسرعة غير عادية . ومن المرجح ايضا ان الكثيرين من السكان الأصليين اعتنقوا الاسلام . وكانوا كلهم يدفعون ما عليهم من ضرائب وعشور . ولما لم يكن هنالك أحد من عرب كرمان مسجلا في الديوان ، ولا سيما بعد ما أجراه زياد من اعادة تنظيم ، فإن المداخيل كانت ترسل الى البصرة .

ولم يؤدِّ قدوم الخوارج الجدد في البداية الى خلل في هذه الحالة السعيدة . فقد أنشأوا كالعادة جمهورية كرمان المستقلة في ظل أمير للمؤمنين خاص بهم واستولوا على المداخيل ثم اقتسموها فيما بينهم . وعاد هذا التدبير بالمنافع الكثيرة على الكرمانيين . وأول ما يذكر هنا انهم عوملوا معاملة متساهلة جداً من قبل أسيادهم الجدد . والواقع ان الخوارج كانوا مشهورين بصورة عامة بحسن معاملتهم للشعوب المغلوبة سواء أسلمت وصارت من الموالي أم لا . ثم انه كان من مصلحة الكرمانيين العرب وغير العرب ان تنقطع العلاقة مع البصرة وهي في كل حال مجرد علاقة بين المكلف والجابي . وبما أن كرمان كانت جمهورية للخوارج فقد صارت الضرائب تبقى فيها . والأهم من هذا انها صارت تنفق فيها أيضا ، وكان ذلك تدبيراً ملائماً للجميع ولكنه لم يكن ليدوم طويلاً . كان المهلب يقترب من كرمان بصورة لا تبعث على الرضى . وكان السكان الأصليون يعرفون المخاطر التي ينطوي عليها إيواء المتمردين عليه . لذلك هب الأهالي جميعا ، من عرب وموالٍ وغير مسلمين ، بقيادة مولى يدعى عبد ربه ، في ثورة على الخوارج الجدد فاضطر هؤلاء الى اللجوء الى جبال قزوين[2] حيث أبادتهم القوات السورية التي سبق ان أرسلت الى العراق قبل ذلك بوقت قصير[3] . وعادت كرمان الى الخضوع للبصرة

---

١) نظر الفصل الخامس اعلاه .

٢) المبرد ، الكامل ، جـ٢ ، ص ٦٥٧ و٦٨٦ والطبري ، ٢ ، ص ١٠٠٧

٣) الطبري ، ٢ ، ص ١٠١٨ - ٢١

وتم اخيرا تطهير العراق من الخوارج الجدد . وبذلك كانت نهاية هذه الحركة الخاصة التي نشأت من تحالف بين بني حنيفة وغيرهم من قبائل الأنحاء الشرقية في شبه الجزيرة وبين القراء والخوارج . لقد كان ابن الاثير متأكداً من ذلك . ومن المؤسف ان المؤرخين الحديثين كثيرا ما لا يوضحون عن أي الخوارج يتحدثون[١] .

كان عبد الملك أقل نجاحاً في معالجة مصدر الاضطراب في أنحاء شبه الجزيرة الوسطى والشرقية . لقد نجح فقط بفصل العصاة عن البحر وبذلك عزلهم عن رملائهم وراء الخليج[٢] وأرغمهم على التوغل في الداخل حيث لا تزال توجد منهم بقايا جيوب حتى الوقت الحاضر ، ولا سيما في عُمان .

لم يكن هذا المشكل آخر ما واجهه الحجاج . فقد واجهت البصرة عجزاً مالياً بسبب فقدان الكثير من مداخيلها . ولذلك وجد الحجاج ان لديه ما يبرر إلغاء زيادة مئة درهم على العطاء ، وهي الزيادة التي كان ابن الزبير قد أمر بها آملا إثارة حماس البصريين[٣] . ولئن كان لذلك ما يبرره من الناحية الاقتصادية فان قراره كان مجازفة غير حكيمة وهو لم يكن قد وطد نفسه حقا في موقع قوة . ثم زاد هذه القضية تعقيدا سعي الحجاج الى تعزيز مركزه في العراق . فبعد ان أدرك بأن التدابير القوية ضد القبائل لا تكفي وحدها لتنفيذ مشاريع الحكومة المركزية عمد الى تجنيد نواة جيش تعد خير تسمية لها هي الجيش النظامي . وكانت المشكلة الرئيسة بالطبع هي إيجاد العدد الكافي من أبناء القبائل للانخراط في هذه القوة لا سيما بعد أن حدد الحجاج عطاء مقطوعا قيمته ٣٠٠ درهم في السنة[٤] . ومع ذلك فانه وجد ، بعد إخماد انتفاضات الخوارج الجدد ، عددا كافياً من الرجال الذين لا ارتباطات معينة لهم ، كما وجد عددا آخر من شبان الكوفة والبصرة للمباشرة بمثل هذا المشروع . وقد ساعد على إيجاد الحل عبقريته في اكتشاف القادة الشبان وتدريبهم ، وحاجته الى القوات اللازمة للسيطرة على الريف بعد ان حرره من أعمال التخريب التي كان الخوارج الجدد يقومون بها . وجمع حوله شبانا من طراز قتيبة

---

١) ابن الأثير، الكامل، جـ٤، ص ٣٥٩

٢) الطبري، ٢، ص ٨٥٢ - ٣

٣) المصدر السابق، ص ٨٧٤ والبلاذري، أنساب، جـ٥، ص ٢٧١ .

٤) البلاذري، أنساب جـ١١، ص ٢٧٣

ابن مسلم وعينهم نواب ولاة في مناطق العراق وإيران الغربية[1] . وتبين على المدى الطويل ان هذه التعيينات الجديدة في صفوف ما يمكن تسميته « بمدرسة » الحجاج للولاة ، وفّرت تدريبا في منتهى الأهمية في فن الحكم . وتبين على المدى القصير ايضا أنها ذات قيمة كبيرة إذ شجعت أبناء القبائل على الانتظام في صفوف الجيش الجديد والانضمام الى الجهاز الاداري في مناطقهم[2] . وبلغ أكبر عدد للمجندين الجدد ٣٠٠٠ جندي رابطوا في الري ، لتأمين الطريق الرئيسة الى خراسان ، على ما يظن[3] . ثم يجب ان نلحظ انه كان يمكن استدعاء هذه القوة عند الحاجة للمساعدة في تنفيذ ارادة الحجاج في العراق .

كان البصريون أول الذين تأثروا مباشرة بقرار الحجاج الغاء زيادة قيمة العطاء مئة درهم . واعتبروا ان هذا التدبير وسيلة تتيح له تجنيد قوة جديدة تستخدم في النتيجة للوقوف في وجه مصالحهم . لذلك بادروا الى الثورة . وتمكن الحجاج من مواجهة العاصفة بصعوبة معتمدا على التأييد المخلص غير المتوقع من قبل رجال كقتيبة بن مسلم[4] . أما عبد الملك نفسه فقد وجه اليه اللوم على هذا التصرف غير الحكيم ، وكان على الحجاج ان يتراجع بأقصى ما يستطيعه من اللباقة والسرعة .

لقد كان الحجاج محظوظا بنجاته بهذه السهولة إذ سرعان ما انفجرت بعد ذلك ثورة غامضة الى حد ما بين العبيد الذين كانوا يعملون في المزارع المحيطة بالبصرة . ليست لدينا معلومات عن ظروف عمل هؤلاء العبيد ولا عن مناسبة استقدامهم الى هذا المكان . غير ان استخدامهم هنا يشير الى مدى اتساع استصلاح الأراضي في المستنقعات المحيطة بالبصرة في هذه المرحلة . ولا بد ان ظروف عملهم وحياتهم كانت غير محتملة لأنهم ثاروا عند أول فرصة متاحة . وكان قائدهم يدعى رباحا ، وقد اتخذ لنفسه لقبا طناناً هو شيري زنج أو أسد العبيد الزنوج . ولا بد ان عدد المشتركين بهذه الانتفاضة كان صغيراً إذ ان البصريين أخذوها بسهولة ، ولكنها كانت ثورة طريفة

---

١) الطبري، ٢، ص ٩٦٢ و٩٧٩ ـ ٨٠
٢) المصدر السابق، ص ٨٩٠ و٨٩٩ و٩٤٨
٣) الطبري، ٢، ص ٩٩٦ .
٤) ابن الأثير، الكامل، جـ٤، ص ٣١١ والطبري جـ٢، ص ٨٧٣ ـ ٤

باعتبارها سابقة لثورة أشد خطورة سوف يقوم بها العبيد بعد قرنين[1] .

ثم اندلعت في الموصل ثورة أخرى « للخوارج » شديدة الخطورة الى حد بعيد في نتائجها المباشرة . وكانت أسبابها معقدة ، كما هي الحالة في معظم مثل هذه الانتفاضات . إلا أنها نشبت أساسا في صفوف بعض القراء الخوارج الذين كانوا قد فروا من الكوفة واستقروا في الموصل . وبعد ذلك قرر عبد الملك ان يعيد تنظيم المنطقة بحيث يرسخ سلطته عليها . وكانت وراء هذا القرار أسباب كثيرة . فالمنطقة جزء من أراضي الكوفة لكنها غير هامة نسبيا من حيث الدخل . والقسم الغالب من سكانها هو قبائل مسيحية من تغلب تتمتع بمركز ممتاز بسبب عدائها للبيزنطيين . وقد سبق أن أعفيت من ضرائب الأراضي المألوفة ومن الجزية التي يدفعها المسيحيون عادة والبالغة ضعف العشور الاسلامية[2] . وكان عملهم مقتصراً على تربية الماشية في مراعي المنطقة الخصبة ، والتي هي في الأساس أراضٍ صالحة للزراعة . وعندما اغتنمت القبائل القيسية في مناطق الجزيرة المجاورة مناسبة الحرب الأهلية للاستيلاء على هذه الأراضي[3] ، اندفع قتال بالغ الخطورة في هذه المنطقة الحدودية . وأخذ البيزنطيون يقومون بتحركات بحيث كان يمكن للوضع ان يتدهور بشكل خطر . واتضح انه لا بد من تدابير جازمة ، فعمد عبد الملك الى تنفيذها على أكمل وجه . وعقد صلحا مع البيزنطيين لقاء دفع غرامة مذلة قيمتها ١٠٠٠ دينار أسبوعياً ، واستطاع ان يوقف الصراع إذ هدد بالتدخل فيه لصالح بني تغلب ضد القيسيين ، وهو موقف أكسبه مدحاً مدوّياً من قبل شاعرهم الأخطل المشهور[4] . ثم قرر أيضا دمج الموصل بولاية الجزيرة المستحدثة بحيث يتسنى للوالي ان يحول دون تجدد أحداث مماثلة . ولم يعترض على ذلك أحد في الكوفة . وكان يمكن للقضية ان تنتهي هنا لولا ان بعض القراء الخوارج كانوا قد استقروا في الموصل .

كان هؤلاء بعض بقايا خوارج معركة النهروان ، ممن بلغوا الموصل في فرارهم نحو

---

١) إبن الأثير، الكامل، جـ٤، ص ٣١٤ ـ ١٥ .
٢) البلاذري، فتوح، ص ١٨١ ـ ٣
٣) البلاذري، أنساب، جـ٥، ص ٣١٣ و٣١٤ و٣١٧
٤) المصدر السابق، ص ٣٢٤ والطبري، جـ٢، ص ٧٩٦

الشمال . والظاهر ان معاوية تركهم وشأنهم برغم احتفاظهم بصلات مع زملائهم في الكوفة[1] . ولعله اعتبرهم مجموعة لا أهمية لها تقوم فعلا ببعض الخدمة للدولة باستيطانها في منطقة حدودية معرضة للخطر . ولكن عبد الملك أساء تقدير امكانيتهم على الايذاء. فقد أفقدهم تنظيمه الجديد حرية التحرك وشعروا باليأس وأعلنوا الثورة . كانوا نحو ١٢٠ رجلا من بطون قبلية متعددة توحدوا بقيادة صالح بن مسرّح التميمي ، ثم شبيب بن يزيد بن نعَيم الشيباني بعد وفاة صالح[2] . ولد شبيب هذا في أواخر عام ٦٤٦م/٢٥هـ من أم رومية استرقها والده وهو في غزوة في الأراضي البيزنطية[3] . وكان والده أحد القراء الذين رافقوا صالح بن مسرح . ودعا هذا الأخير شبيبا الذي كان في الكوفة آنذاك للانضمام اليه في الثورة[4] . وكان شبيب بارعاً في حرب العصابات ذا ولع غريب بالمفاجآت . والشيء ذاته صحيح بالنسبة لزوجته غزالة التي كانت رفيقته الدائمة في جميع تحركاته . وقد تمكنا معا من اجتراح العجائب برغم ضآلة القوات التابعة لهما ، وهي لم تزد في اية مرحلة عن ٨٠٠ رجل ، وإنما كانت دون ذلك بكثير في معظم الأحيان . ومع ذلك فالمأثور أن شبيبا تمكن وهو على رأس ١٨١ رجلا فقط ان يهزم قوة كوفية من ٦٠٠٠ رجل بقيادة ابن الأشعث نفسه . وكانت ميزة شبيب الكبيرة تتجلى في قدرته القصوى على الحركة وفي مهارته التكتيكية الفائقة . ومهما بلغ عدد الحملات التي وجهها الحجاج من الكوفة لمحاربته فان شبيبا تمكن من إرباكها وصدها كلها بدون استثناء . ثم ان شبيبا كان يتحلى بميزة اخرى هي شعبيته الواسعة جدا . كثيرون هم الكوفيون الذين كانوا يتعاطفون معه لأنه كان يدافع عن مصالحهم . يضاف الى ذلك أن شبيبا كان يتحلى بروح مرحة جريئة زادت شعبيته الى درجة كبيرة ولا سيما بالمقارنة مع الحجاج الكالح الصارم . وقد بلغت به جرأته ان دخل الكوفة مرتين والحجاج مقيم فيها وسخر منه ، كما ان غزالة نفسها صلّت في الجامع الأعظم وتلت أطول سورتين في القرآن ، موقعة بذلك أبلغ الاذلال بالحجاج ، مثيرة سخرية الناس منه . ولكن لهذه الأعمال جانباً خطيراً . ليس كالسخرية ما ينسف سلطة الحجاج وعبد

---

١) الطبري ، ٢ ، ص ١٢٧ و١٤٢ .
٢) المصدر السابق، ص ٨٨٧
٣) المصدر السابق، ص ٩٧٧
٤) ابن حزم، جمهرة ، ص ٢٣٧ والطبري، ٢ ، ص ٨٨٥

الملك القلقة . لقد انتهت ثورة البصريين ، وأدت سياسة العطاء الجديدة الى إنزال ضرر كبير بمكانة الحجاج ، ثم ها هي هذه الحفنة الصغيرة من رجال العصابات تهزأ بما تبقى من هذه المكانة . والواقع ان شبيبا كان قد باشر محادثات سرية مع وجهاء كوفيين كابن الأشعث ، ومع مطرف نفسه وهو نائب والي المدائن وابن عم الحجاج ، وابن المغيرة بن شعبة الذي كان ولاؤه للأمويين مثالا يحتذى تقريبا . وكان الوضع يتدهور بسرعة فاضطر عبد الملك والحجاج الى توجيه حملة الى العراق من ٦٠٠٠ جندي سوري أدت الى إنهاء نشاطات الحملات الكوفية الفاترة . وسرعان ما هزم شبيب وصرع في المعركة[١] .

وتلت ذلك على الفور تقريبا ثورة أخرى دعيت بثورة خوارج أيضا . وقد كانت من أغرب الانتفاضات لأنها كانت بقيادة عضو بارز في « مؤسسة » الحجاج هو مطرّف بن المغيرة بن شعبة الثقفي نائب الوالي على المدائن . ولم تكن للقراء السابقين أي علاقة بها . ومع ان مطرف كان يعبث بفكرة التحالف مع شبيب فانه لم يكن بينهما أي شأن مشترك في الحقيقة[٢] . لقد كان مطرف واضحا وصريحا في أهدافه . وكان يعارض سياسة عبد الملك والحجاج في استخدام القوات السورية في العراق من جهة ، وسلطة أمير المؤمنين المتزايدة بصورة متشددة من جهة ثانية . وكان يريد إحياء نظام المدينة في ظل قيادة قرشية تمنح الولايات قسطا كبيرا من الاستقلال الذاتي[٣] . والناحية الخطرة في هذه الثورة هي أن مطرفا حاول ان يثير المجندين العراقيين الجدد في وجه الحجاج ، وكاد أن يحقق النجاح ، كما يتضح من اضطرار الحجاج لاستدعاء القوات السورية لاخماد الثورة[٤] . وسرعان ما تمكنت هذه القوات بما تتصف به من كفاءة معهودة ، من سحق الثورة وأنزلت في الكوفة موقتا وأسكنت في بيوت سكانها عنوة[٥] . وكانت هذه القوات في الحقيقة جيش احتلال . وبذلك تمكن الحجاج أخيرا من السيطرة على الوضع ثم كافأه عبد الملك على هذا النجاح بتسليمه زمام الأمور في الشرق أيضا .

---

١) في محاولة للتأكيد على أهمية هذا الحدث خصص الطبري لسرد تفاصيله ما لا يقل عن ١٠٠ صفحة . جـ٢ ، ص ٨٨٠ - ٩٧٩

٢) الطبري ، جـ٢ ، ص ٩٨٣ - ٧

٣) المصدر السابق ، ص ٩٨٤ و٩٨٨ و٩٨٣

٤) المصدر السابق ، ٩٨٩ و٩٩٣ و٩٩٦

٥) المصدر السابق ، ص ١٠٦٩ وابن الأثير ، الكامل ، جـ٤ ، ص ٣٧٦ و٣٨٥ .

وفي عام ٦٩٨م/٧٩هـ أخذت السياسة الايجابية التي تميز بها الحجاج تتضح وتتبلور . ثم ان السنوات الثلاث التالية شكلت فترة انتقال بين سلسلة طويلة من الثورات في سنواته الأولى كوال ، ونشوء سياسة عامة مكتملة الجوانب بعد هزيمة ابن الأشعث في ثورته عام ٧٠١م/٨٢هـ . ولا مجال للمبالغة في التأكيد على ان القضايا والسياسات الواجب انتهاجها كانت لا تزال غير محددة ، او في طور التكوين . وإذا أخذنا أهم قضية مثلا وجدنا انه لم يتقرر بعد وضع حامية سورية في العراق بصورة دائمة . وقد اوضحنا من قبل انه لم يكن مقصوداً ولا ممكناً في الأصل ان تستخدم القوات السورية في العراق حتى أن القوة المؤلفة من ٦٠٠٠ جندي ، المرسلة للقضاء على ثورة شبيب لم تطلب ولم ترسل إلا بعد الكثير من التردد . وكان المأمول ان تسحب في أقرب فرصة ممكنة .

أما الآن وقد ساد الهدوء في الولاية ، فقد صار باستطاعة الحجاج ان يوجه اهتمامه لمعالجة النتائج الاجتماعية والاقتصادية التي نجمت عن الحرب الأهلية ، وعن سلسلة الاضطرابات العديدة المتوالية . وكانت آثار هذه الحروب قد حملت الفلاحين على مغادرة أراضيهم طلباً للسلامة او تجنباً للضرائب التي كان دفعها يتزايد صعوبة بسبب الأضرار التي تنزل بنظام الري الدقيق والحيوي ، أو للسببين معاً . وكان نزوح الفلاحين الى المدن يخلق مشكلة اجتماعية رئيسة لعدم توفر العمل المناسب لهم ، من ناحية ، ومشكلة اقتصادية رئيسة ايضا ، من ناحية اخرى ، لأن تدني الانتاج الزراعي كان يعني انخفاضاً مماثلاً في الضرائب التي تجبى . وهنا عمد الحجاج كعادته ، الى حل بسيط ومنطقي ، لا رحمة فيه ولا لين فأمن جميع الفلاحين بالعودة الى أراضيهم[1] . ولما كان الكثيرون من هؤلاء الفلاحين قد اعتنقوا الاسلام فقد صار يحق لهم نظرياً ان يذهبوا حيث يشاؤون وأن يعاملوا كالمسلمين العرب من جميع النواحي . إلا أن الحجاج لم يكن ذلك الرجل الذي يضع التفاصيل الفقهية فوق مصالح الدولة ولذلك أهمل بكل بساطة جميع الاحتجاجات التي أثيرت في هذا المجال .

وأما بالنسبة للعرب فقد أحسّ الحجاج أنه شهد من قدراتهم العسكرية في العراق أكثر مما كان يحب ، ولذلك قرر ، تمشيا مع تقليد قديم سابق ، ان يوجههم الى

---

١) الطبري، ٢، ص ١١٢٢ ـ ٣ والبلاذري، أنساب، جـ١١، ص ٣٣٦ ـ ٧

خارجه . وفي أول الأمر تخلص من جيش المهلب الذي كان لا يزال في كرمان بتعيين المهلب عاملاً له على كرمان . ولحق الجيش بقائده بالطبع[1] . وفي عام ٦٩٧م/٧٨هـ بعث جيشاً عراقياً مجنداً من أبناء الكوفة والبصرة الى سجستان في الجنوب الشرقي لاعادة فتح الجبهة ضد زنبيل ملك زابلستان .وفي هذه المرة ايضا كما في مرة سابقة كانت الأساليب العسكرية العربية غير مناسبة في هذه المنطقة الجبلية . وانتهت الحملة بكارثة إذ أبيد الجيش بكامله تقريبا وقضى قائده غماً وحزناً . ولكن ذلك لم يثن الحجاج عن مخططه . وأوحت له الحاجة ان يكرر عملية الترحيل الجماعي على غرار ما فعل زياد بن أبيه منذ ثلاثين عاما . وقرر ان يصيب عصفورين بحجر واحد فشجع أكثر العناصر شغباً في الكوفة والبصرة على الانخراط في حملة نظمها من ٤٠٠٠٠ جندي مخفياً بدقة دوافعه وغايته من هذه الحملة . ولم يبخل عليها بأي نفقة فجاء « جيش الطواويس » هذا مجهزاً تجهيزاً ملكياً زائعاً حقاً . على ان هذه التسمية لم تطلق عليه بسبب ذلك . إن كلمة « الطواويس » تشير الى الرجال أنفسهم ، لا الى عتادهم . وكان هذا الجيش يضم عددا من قادة في العراق بلغوا منتهى الزهو والكبر والتميز بقيادة أكثرهم عجباً وخيلاء وأشدهم تميزا هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث حفيد الأشعث بن قيس القائد الكبير في حروب الردة وفي حملة فتح العراق . كذلك كان يضم الجيش عددا من مسنين بلغوا درجة عالية من التميز ممن اشتركوا في جيوش الفتوح الأولى كعامر بن واثله الصحابي المعروف . حتى ان بعض الأحياء من القراء السابقين الذين اشتركوا في معركة صفين ، اقتنعوا بالانضمام الى الحملة[2] .

وصل الجيش الى سجستان في ربيع عام ٦٩٩م/٧٩هـ ثم تقدم شرقا الى زابلستان محققاً انتصارات عديدة . ومع ذلك فإن أحداً لم يكن راضياً عن القتال في هذه الأرض غير المضيافة فأخذ الجيش يتململ . وعند هذا الحد اتخذ الحجاج موقفاً صلباً وأمر الجيش بمواصلة الزحف الى قلب زابلستان . هنا أدرك الجيش انه خدع . ولم يكن الحجاج قد ألمح الى ان هذه الحملة هي غير عادية ، والى ان جنودها لن يعودوا كالعادة في الخريف بعد القيام بحملة في الربيع أو الصيف . فلو أنها كانت قضية « تجمير

---

١) الطبري ، ٢ ، ص ١٠٣٣

٢) المصدر السابق ، ص ١٠٦٥ و١٠٧٦ ـ ٧ و١٠٨٦ ، وابن أعثم ، فتوح ، جـ٢ ، ص ١٠٧ب و١٠٨أ ، وابن خياط ، تاريخ ، جـ١ ، ص ٢٨٢ ـ ٨ ، والذهبي ، تاريخ ، جـ٢ ، ص ٢٧٦ وجـ٣ ، ص ٨٢ و٢٣٢ .

البعوث » وحسب ، أي إبقاء الجيش في حملة طويلة جدا ، لكفى ذلك سوءا ، ولكن التهجير القسري كان أكثر مما يمكن احتماله . لذلك أعلن الجيش العصيان وارتد الى العراق ناقما ، وحصل في طريق العودة على تأييد كبير . وهنا ثار الكوفيون وأخرجوا ضيوفهم غير المرغوبين ، أي قوات الاحتلال السورية ، واستولوا على بيت المال واقتسموا ما فيه بالتساوي ، فكان نصيب الواحدمنهم ٢٠٠ درهم ، وبذلك استعاضوا عن عدم تدوين اسمائهم في الديوان . وحاول الكوفيون في البداية إبقاء تمردهم منفصلا عن عصيان جيش الطواويس ولكن القوتين سرعان ما اضطرتا الى الاندماج معا ، ثم انضم البصريون الى الثورة وأكرهوا الحجاج على مغادرة المدينة .

أقام الحجاج مخيمات لقواته خارج البصرة ، ثم اخذ يرسل النداءات الى عبد الملك طالبا إمداده بالنجدات في حين ان أقصى ما كان يستطيعه هو الصمود أمام المتمردين .

لم يضيع عبد الملك أي وقت ، وراح يرسل كل جندي سوري أمكنه الاستغناء عنه او توفر له،من غير انتظار تجميع هؤلاء الجنود في حشود كبيرة . وكان يبعث بهؤلاء الجنود فور توفرهم ، في مجموعات صغيرة تبلغ ٥٠ جنديا او ١٠٠ جندي في أحيان كثيرة . وتمكن عبد الملك في النهاية من إرسال مجموعتين سوريتين كبيرتين بقيادة ابنه عبدالله وشقيقه محمد . وانزلت هذه القوات هزيمة ساحقة بالمتمردين في مطلع عام ٧٠١م/٨٢هـ . وفر ابن الأشعث قائد الثورة الى سجستان حيث لقي مصرعه في عام ٧٠٤م/٨٥هـ في حين انتشر بعض أنصاره في الشرق . وبعد هذا التمرد لم يكن امام عبد الملك والحجاج أي اختيار آخر غير فرض احتلال سوري دائم في العراق . هنا نزع السلاح وأزيلت المعسكرات من الكوفة والبصرة بصورة تامة ، ثم بنيت في منتصف المسافة بينهما ، بلدة اخرى كمخيم عسكري هي واسط لمرابطة الحامية السورية في العراق وأبناء القبائل العراقية الذين فضلوا الانخراط في الجيش العراقي « المقاتلة »[1] .

بعد ذلك لم يواجه الحجاج اي عصيان خطير طوال ١٤ سنة من ولايته . ولم يقع أي شيء كبير الأهمية في السنوات الخمس المتبقية من عهد عبد الملك . وبذلك يمكننا ان

(١ Shaban, The Abbasid Revolution, pp. 67-9

لاحداث أي تغير . وكانت مصر التي يسود فيها الهدوء هي الولاية المثلى لوضع مثل هذا المخطط موضع التنفيذ . وكان واليها هو عبد العزيز بن مروان شقيق عبد الملك . وخلال ولايته التي امتدت عشرين سنة (٦٨٥ ـ ٧٠٥م/٦٥ ـ ٨٥هـ) حقق تغييرا جذرياً في تنظيم الولاية بهدوء ونجاح . هنا كان العرب كلهم يقطنون مدينة الفسطاط العسكرية في السابق ، وكانت الحاميات ترابط في الاسكندرية وخربتا بالتناوب . وبفتح شمالي افريقيا صار هذا التنظيم غير مناسب . وفي التنظيم الجديد سرح رجال حامية الفسطاط ووزع العرب في انحاء مختلفةمن مصر ولا سيا على ساحل البحر الأبيض المتوسط[١] . وبذلك تأمنت سلامة الولاية من الهجوم البيزنطي وتمكن العرب في الوقت ذاته من مراقبة نشاطات الموظفين المصريين المحليين بصورة أفضل[٢] . يضاف الى ذلك ان نظام العطاء أدخل ونظم لأول مرة بالنسبة لجميع أبناء القبائل العربية في مصر . وكان معدل العطاء الواحد نحو ٢٥ دينارا بالاضافة الى المواد الغذائية التي كانت توزع على كل فرد[٣] . والظاهر ان عدد أبناء القبائل المستقرة في مصر آنذاك كان يتراوح بين ٣٠ و٤٠ ألف رجل[٤] . وقد أطلق هؤلاء من قيود حياة غير طبيعية في بلدة عسكرية وتحولوا الى جيش احتلال عادي ، فكانوا مسؤولين عن سلامة الولاية واستقرارها ، وكانوا يتلقون أجورا وافية لقاء خدماتهم . وكان قادتهم بالطبع مسؤولين عن ادارة سليمة لمناطقهم بحيث ان الحكم العربي كان شاملاً جميع أنحاء الولاية شمولاً فعالاً .

وفي العراق كانت الحاجة الى قوات موثوقة تعيق محاولة الحجاج لتوطيد نظام مماثل حتى على نطاق ضيق . ان ولايته أكبر اتساعا من مصر ، ثم ان الكوفة والبصرة تطورتا اكثر من الفسطاط التي كانت لا تزال في تلك المرحلة ضمن إطار الحدود الدقيقة لمركز الحامية . يضاف الى ذلك ان ثورة مطرّف بن المغيرة أقنعت الحجاج بعدم جدوى الاعتماد على قوات داخلية للسيطرة على الولاية . لقد فشلت هذه المحاولة وكان لا بد من استقدام قوات سورية لانقاذ الوضع . اما الآن وقد احتل العراق جيش سوري فقد

---

١) كان الوالي نفسه هو القدوة إذ نقل ادارته من الفسطاط الى حلوان (الكندي، الولاة، ص ٤٩) .
٢) المصدر السابق، ص ٥٩ و٩٤ .
٣) المصدر السابق، ص ٤٥ و٤٩ و٥٠
٤) المصدر السابق، ص ٤٢

توفرت للحجاج فرصة إقامة سيطرة وطيدة على ادارة الولاية والمناطق التابعة لها . مرة اخرى عين نواب ولاة على مختلف المناطق يتمتعون بصلاحياتهم الكاملة المدعومة من قبل الوالي القوي ومن قبل الجيش السوري أيضا ، إذا اقتضى الأمر . وكان الوالي نفسه خاضعا تمام الخضوع لعبد الملك ، وكان ينفذ أوامره الواضحة بكل إخلاص . وبذلك قام تسلسل في السلطة منبثق من منصب أمير المؤمنين المتزايد السلطة ، متدرج تدرجاً تنازلياً حتى صعيد الادارة المحلية ، قادر على السيطرة الفعالة على القسم الأكبر من الامبراطورية .

وفي دمشق كانت الادارة البدائية التي أقامها معاوية تتوسع بصورة تدريجية لمواجهة نشاطات مختلف أجزاء البناء الامبراطوري الجديد ، وللتنسيق فيما بينها . وبذلك تطور ديوان الخاتم الذي أنشأه معاوية الى مصلحة واسعة تعنى بمحفوظات الدولة في دمشق[1] . وبالطريقة ذاتها توسعت الادارات في الولايات ولو انها ظلت خاضعة للولاة خضوعاً كلياً . لقد كان القيام بمحاولة الدمج التام لبيروقراطيات الحكومة المركزية والولايات سابقاً لأوانه . ومع ذلك فالظاهر انه جرت محاولات لجعل إدارات الولايات ذات مستوى واحد . وقد اتضح ذلك الى أبعد حد من تغيير لغة السجلات العامة الى العربية بعد ان كانت قد بقيت قبطية اويونانية او فهلوية حتى ذلك الحين . وقد ساعد هذا بالطبع على تشديد قبضة الولاة على الادارة المحلية وفتح مجال دخول الأجهزة البيروقراطية امام العرب . كذلك حققت الحكومة المركزية سيطرة أوسع وأقوى على الاقتصاد بإصدار نقد عربي موحد للمرة الأولى . كانت الدراهم الفضية الساسانية والدنانير الذهبية البيزنطية هي النقود الوحيدة المتداولة من قبل حتى ان النقود القليلة التي كانت تسك بين وقت وآخر كانت تقليداً لها لولا ما تميزت به من اضافة كتابة اسلامية عليها في بعض الأحيان . ومن الواضح ان الاعتماد الجزئي على العدو لتوفير النقود أمر ليس مرضياً . وجاءت النقود الجديدة ، ولا سيما تلك التي سكها الحجاج ، ناجحة في تحقيق القصد منها لأن المعدن الثمين فيها كان أقل مما في النقود البيزنطية والساسانية[2] . واستنادا الى القاعدة القائلة ان النقود الرديئة تطرد النقود الصالحة فان

---

١) الطبري، ٢، ص ٢٨٥ - ٦ والمسعودي، مروج، ص ٢٣٩

٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٦٦ و٤٨٨

النقود الجديدة حلت محل النقود البيزنطية والساسانية في التداول وهو ما كان يتوخاه عبد الملك .

وكان جهاز القوة الفعلي المؤلف من الجيش السوري والمقاتلة والولاة وآل مروان هو الأكثر أهمية في تنفيذ سياسات عبد الملك . وكان الجيش السوري أهم العناصر جميعا ، وهو الذي تحول بصورة تدريجية من ميليشيا اقليمية معنية بحماية حدود ولايتها الى قوة امبراطورية تسيطر على الامبراطورية بكاملها . وبدلا من القيام بغزوات صيفية قصيرة الى الأراضي البيزنطية صارت هذه القوة توجه الى شمال افريقيا لاخماد ثورة البربر . ومما هو أكثر إلحاحاً وأثقل عبئا من ذلك ، وأقل مكاسب بالطبع ، هو أن هذه القوة صارت مكلفة بتأمين السيطرة على العراق . ومن الطبيعي ان يكون للنشاطات الجديدة تأثير عميق على أفرادها بعد ان كانت حياتهم عادية تقريبا حتى الآن ، وان تنشأ بالتالي ضرورة التعويض على هؤلاء الأفراد تعويضا مناسبا . ولم يكن امام عبد الملك أي خيار آخر إلا ان يوسع نظام العطاء ليشمل جميع أفراد الجيش السوري مقابل تزايد استحالة الاستغناء عن خدماتهم . لقد صار الجند السوري جيشاً نظامياً يستدعى عند الحاجة ، إلا انه لم يكن يعمل بالضرورة طيلة الوقت . ولم تكن الحامية في واسط مؤلفة من جنود سوريين يرابطون فيها بصورة دائمة بل من جنود سوريين يرسلون اليها على أساس المناوبة . وأصبح أبناء القبائل في الجزيرة التي صارت آنذاك ولاية منفصلة يعتبرون من ناحية عملية جزءا من الجيش السوري ، ومنح العطاء لأولئك الذين ارتضوا الخدمة العسكرية منهم . وكان عرب العراق يشجعون ، في الوقت نفسه ، للانتقال الى الموصل والانخراط في الجيش[1] ، مما قد يكون دلالة على ان بعض أبناء قبائل الجزيرة لم يكن لديهم الحماس الكافي لدخول الجيش . وكان المقاتلة جنودا من أبناء قبائل العراق والمناطق الشرقية ، ممن وقفوا بجانب النظام وسياسته التوسعية . ولقاء ولائهم وتأييدهم هذين ، منحوا العطاء العادي والحصص المألوفة من الغنائم ، بالاضافة الى شيء آخر هام كذلك هو اعطاؤهم في أحيان كثيرة دورا رئيساً في حكم الأرياف بواسطة تعيين قادتهم نواب ولاة . ولا حاجة بنا الى القول ان ذلك فتح امام نواب الولاة مجالاً مرضياً لتحقيق الزعامة السياسية والمكاسب الشخصية عن طريق تقديم « الهدايا » المعتادة

١) الطبري، ٢، ص ٨٩٣ واليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢٧٢

للحكام العرب على اساس تقليد ساساني قديم[١] . وسرعان ما انقلب المقاتلة الى طبقة ذات امتيازات وتحولوا بصورة ما الى هيئة موقرة من « القراء » المناصرين لآل مروان .

كان الولاة وآل مروان شيئاً واحداً ولو الى درجة محدودة لسبب بسيط هو أن الكثيرن من آل مروان كانوا ولاة . ولنبدأ بالولاة العاديين أولا ، ففي نهاية هذا العهد كانوا كلهم تقريبا من تلامذة الحجاج والخاضعين لحمايته ، وهو الذي اختارهم ودربهم . فقد كان الشاب المحظوظ المقتدر ، الى حد كافٍ ، يحمل الحجاج على اختياره كما كان يجد أمامه مستقبلا لامعاً لأن عبد الملك كان يثق ثقة تامة بمقدرة الحجاج على انتقاء ذوي المواهب والولاء . وفي عام ٧٠٥م/٨٦هـ كان تلامذته هؤلاء يثبتون حسن اختياره ويحققون له الانجازات متمتعين بدعم كامل من دمشق . ومن أبرزهم وأشدهم ولاء بوجه خاص قتيبة بن مسلم الذي كان آنذاك ينفذ مخطط الحكومة التوسعي في آسيا الوسطى بحماس يفوق المعتاد وبنجاح كبير . وكان أفراد عائلة مروان ولاة في معظم الولايات الأخرى . كانوا بصورة عامة يمنحون الولايات السهلة التي لا تتطلب جهوداً وقدرات عالية إلا في أشد الحالات حرجاً وصعوبة . أما الولايات الشرقية فكانت مجالات الفشل فيها كبيرة بالنسبة لعائلة معنية بسمعتها الى حد كبير . وكانت الولايات الخطرة ، كالعراق والشرق مثلا ، كما رأينا ، تسلم عادة الى رجال كالحجاج وتلامذته ممن تعزز أعمالهم مكانة العائلة اذا كانت ناجحة ، وتحسب عليهم وحدهم أذا منيت بالفشل . وبصورة موجزة كان تحت تصرف عبد الملك في نهاية عهده جهاز بيروقراطي ينمو بسرعة وولاة يستطيع ان يثق بهم .

إن أهمية عائلة بني مروان في هذا النظام تستحق التأكيد عليها . ومن الملاحظ اننا استعملنا خلال هذا الفصل عبارة بني مروان دون عبارة بني أمية . ان هذا التمييز هام لأن سلالة بني سفيان المباشرة انتهت بمعاوية الثاني . وانتقلت السلطة العليا بعد ذلك الى أيدي مروان وأبنائه من بعده . وليس هذا مجرد فرق سلالي إذ ان هنالك من الناحية السياسية فرقاً كبيراً بين حكم السفيانيين الحذر والتسلط المرواني الديكتاتوري . ثم ان عائلة بني مروان كانت وحدة ذات أهمية غير عادية . ومن أهم النواحي التي كانت تتميز

---

١) ابو محمد عبدالله ابن الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز، القاهرة ، ١٩٢٧، ص ١٦٦ .

ـه سياسة آل مروان هو التأكيد على الحقوق الجماعية للعائلة المالكة . وخلافا لآل سفيان ، فقد كان آل مروان يتكاثرون بنشاط ملحوظ . وكان ذلك ولا شك مفيداً لهم الى حد كبير في بلوغ السلطة . ثم استغلوا عائلاتهم الكبيرة بإيجاد ما لا يمكن تسميته إلا بالحكم الجماعي . فقد احتفظ أمير المؤمنين بسلطته المطلقة تقريباً من الناحية النظرية لكنه كان مضطرا من الناحية العملية ان يقتسم سلطته مع العائلة لأن ولاء القوات السورية البالغ الأهمية كان للعائلة ككل لا للحاكم بمفرده وحسب . هكذا كان اختيار أمير المؤمنين بالذات يعتمد على اتفاق العائلة . ثم انه كان عليه اذا ما تسلم السلطة ان يتأكد من مكافأة العائلة واستشارتها واستخدامها على وجه مناسب . وقد سبق ان بينا نوع الاستخدام المناسب . وليس علينا ان نضيف هنا إلا أن تعيين آل مروان في مناصب الولاة كان ذا فائدة تضاف الى الفوائد الأخرى وهي تدريب قادة العائلة للمستقبل .

هكذا كان بناء السلطة في هذا النظام بحيث كان كله في خدمة أمير المؤمنين الذي لم يدع أية سلطة دينية ولو ان الظروف وسياساته العملية الخاصة دفعته دفعا الى مركز السلطة المدنية المطلقة تقريبا . وفي نهاية عهد عبد الملك كان هذا البناء السلطوي قد صار قوياً وفعالاً ، كما يدل الهدوء والاستقرار الملحوظان في عهد خليفته . وبوفاة عبد الملك خلفه ابنه الوليد ، على ان يخلفه بعد وفاته ابن آخر لعبد الملك هو سليمان . وكان عهد الوليد الأول (٧٠٥ ـ ١٥م/٨٦ ـ ٩٦هـ) استمرارا مباشرا لحكم أبيه من كل ناحية ، كما كان عهدا هادئاً . وبقي الحجاج في مركزه، والواقع ان نفوذه ازداد . كذلك اتبعت السياسات ذاتها ايضا . غير أن الفرق الوحيد هو ان الهدوء الذي ساد خلال هذه السنوات أتاح للوليد ان يطور المضامين الداخلية لسياسة عبد الملك والحجاج .

واستمرت هذه المجموعة من آل مروان وآل الحجاج في حكم الامبراطورية . وكان سليمان ، ولي العهد ، يتلقى تدريبه كوال على فلسطين ، بينما كان شقيقه مسلمة يوطد سمعته العسكرية على الحدود البيزنطية . اما عمر بن عبد العزيز ، ابن عم الوليد ، فولي المدينة طوال سبع سنوات . لكن سيرته دلت على ان الحجاج بلغ من القوة ما جعل اي فرد من آل مروان غير مأمون في مركزه . فقد عُزل عمر بن عبد العزيز عام ٧١٢م/٩٣هـ وخلفه أحد مناصري الحجاج لا لأن عمر كان غير كفء لوظيفته ، وإنما

لأنه سار بمعارضته المعروفة لسياسة الحجاج الى حد الترحيب بمعارضيه السياسيين في العراق وبذل الحماية لهم في المدينة[1] .

واستمرت حروب الفتح تتخذ مداها الكامل في شمالي أفريقيا وآسيا الوسطى ، حتى ان الحجاج فتح جبهة جديدة في الهند عبر جزء من وادي الهندوس يعرف اليوم بلوخستان . غير ان سياسة الوليد الاجتماعية والاقتصادية كانت الناحية الأكثر طرافة وجدة . فقد تميزت فترة حكمه بزيادة ملحوظة في النفقات الحكومية على الاشغال العامة من كل نوع . واتبع على ما يبدو سياسة انعاش مستنيرة الى درجة غريبة . لم تكن هذه السياسة جديدة كليا إذ أن عبد الملك كان قد أبدى بعض الاهتمام بالأبنية العامة ، وهو الذي بنى قبة الصخرة . غير ان هذا الاهتمام لم يبلغ المدى الواسع الذي بلغه في عهد ابنه . كذلك أنفق الحجاج مبالغ كبيرة من الأموال العامة لترميم نظام الري العراقي وتوسيعه ، ولا سيما في الجنوب ، ثم استمر على هذه الوتيرة فيما بعد . ان الأسباب التي دفعت الحجاج للقيام بهذه الأشغال العامة واضحة وضوحا كافيا . لقد كان عليه ان يصلح النظام الزراعي المعقد الذي تضرر خلال سنوات الحرب الطويلة ، وأن يوسعه ، لتوفير العمل لسكان الكوفة والبصرة بعد تسريحهم من الخدمة العسكرية . أما المشاريع التي قام بها الوليد الأول ، ولا سيما في سورية والحجاز بصورة أساسية ، فقد كانت أكثر تعقيداً واتقاناً . ثم أن إدراك الدوافع اليها أشد صعوبة .

وتقضي المعالجة الفضلى لهذا الأمر ان ننظر في الوضع الاقتصادي العام في ذلك الوقت . فقد ورثت الامبراطورية في عهد الوليد الأول أمرين من عهد عبد الملك ، هما ثروة هائلة من جراء الفتوحات الجديدة ، ونقد كان بالفعل متدني القيمة . وفي الوقت ذاته كانت المدن في الامبراطورية تنمو بمعدل يفوق معدل نمو التجارة والصناعة لتوفير العمل للجماهير الجديدة . يضاف الى ذلك ان النظام كان سخيا الى حد التبذير في منح الاراضي والأموال لأفراد الطبقة الحاكمة والقادة العرب والشعراء ، حتى لانسبائهم المعادين لهم ، أبناء عائلة الرسول . وباختصار ، كانت جميع العناصر التي تؤدي الى الاضطراب الاجتماعي قائمة . لذلك استخدم الوليد قسما من ثروة الخزينة الهائلة لتحسين الأحوال في المدن . والواقع ان كل هذه الأموال أنفقت في المدن . فقد أنشئت

---

١) الطبري، جـ٢، ص ١٢٥٤ .

جوامع عديدة ضخمة ، أبرزها الجامع الأموي في دمشق كما أنشئت المستشفيات وشقت الطرقات . وكانت لهذه المنشآت بعض المنافع العملية حقا إلا أن الكثير منها أنشيء على مستوى من البذخ أرفع مما هو ضروري لتوفير العمل للعاطلين عنه في المدن[1] . وكانت هذه المشروعات توضع بالدرجة الأولى لصالح غير العرب من سكان سورية الذين كانت مهاراتهم تستغل في هذه الأعمال بينما كان العمال من غير ذوي المهارات يؤمنون العمل الرخيص . واذا تعذر اعتبار هذه المشروعات ذات أهمية اقتصادية بعيدة المدى ، فإنها كانت خطوة في الاتجاه الصحيح . ولأول مرة فكر الحكام العرب في إطار القيام بمواجهة مشاكل الرعية ، في سورية على الأقل . ولا ريب ان المعنيين بذلك هم أبناء الطبقة الدنيا إذ لا يمكن الحديث عن طبقة وسطى آنذاك . وفي إطار التفكير الامبراطوري كانت هنالك طبقتان اجتماعيتان فقط هما الطبقة العربية الحاكمةوطبقة السكان المحليين المحكومين .

من الطبيعي ان تكون الطبقة العليا قد حظيت بعناية جيدة ، على انه كانت في صفوفها عناصر فقيرة كالمجذومين والمصابين بالأمراض المزمنة والعميان . ولمصلحتهم قرر الوليد الأول سياسة تقديم الاعانة المالية الرسمية الخاصة بالطبقة الحاكمة . وهنا ينبغي ألا ننسى ان هذا المجتمع كان بطريركيا أبويا الى حد بعيد حيث تقع مسؤولية العناية بالتعساء البائسين مباشرة على أنسباء لهم أوفر حظاً . حقاً ان القرآن كان واضحاً في فرض الصدقات لمصلحة فقراء المسلمين لكن نظام جمع الصدقات كان قد تغير منذ عهد عثمان . فقد كان النظام في الأصل يقضي بأن تقدر الصدقات بالنسبة لجميع أنواع الثروات ، وتجمع ، وتسلم لبيت المال من قبل موظف معين لهذه المهمة يدعى عامل الصدقة . غير ان التحول من التجارة الى الفتح حقق ثروات هائلة مما جعل الصدقة غير ذات موضوع . ثم ترك أمر دفع الصدقة لضمير الفرد باستثناء الصدقات الواجبة على الأراضي التي كانت بحوزة المسلمين . وظلت هذه الضريبة الاسلامية على الأرض تدفع لجباة الضرائب كأي ضريبة أخرى على الأرض[2] . وكانت الدولة تجمع الصدقات على

---

١) المصدر السابق، ص ١١٩٣ ـ ٦ والذهبي، تاريخ، جـ ٤، ص ٤٦ .

٢) ابن سلام، الأموال، ص ٥٦٨ و٥٧٣ والسيوطي، تاريخ الخلفاء، القاهرة . ص ١٦٤

شكل عشور على انتاج الأرض وبالتالي صارت العناية بالفقراء إحدى مسؤوليات الدولة الخاصة . ورأى الوليد ان هذه المسؤولية لا تشمل غير المسلمين العرب ولذلك خصهم وحدهم بالمساعدات . ثم أردف ذلك بشيء آخر إذ اعطى العميان الذين كانوا وافري الأعداد ، عبيدا يكونون مرشدين لهم[1] . وكانت الفتوحات الجديدة قد أتت بأعداد كبيرة من الأسرى كجزء من خمس الغنائم ، مما خفض أثمان العبيد تخفيضاً كبيراً وجعل نفقات الدولة متدنية نسبياً . وأدت كل هذه الترتيبات الى إرضاء العرب الحاكمين على وجه أضمن[2] . وعلى هذا الضوء يسهل فهم « برنامج الانعاش » الذي قام به الوليد الأول على انه ليس « غير مشروع ضخم لمساعدة الطبقة الحاكمة » .

توفي الحجاج عام ٧١٤م/٩٥هـ قبل سنة تقريبا من وفاة الوليد . وكان ذلك من حسن حظه لأنه كان يعلم تمام العلم ما سيتعرض له من إذلال في ظل سليمان[3] . ولم يكن خافيا ان سليمان سينهج سياسة اخرى مخالفة تماما لسياسة الوليد . إلا أنه لم يكن من الممكن مقاومته او منعه من تسلم الخلافة لأن رغبة عبد الملك بوجوب انتقال الخلافة الى سليمان بعد الوليد كانت واضحة تمام الوضوح ، وقد رضي بها جميع أفراد عائلته قبل مماته . وقد يظن أنه من الغريب المدهش ان تكون السياسية التي سارت سيرا حسناً خلال ١٥ عاما على الأقل ، أصبحت الآن موضع تساؤل . حقا ان هذه السياسة أحدثت تأثيراً عميقاً على حياة جميع سكان الامبراطورية ، بحيث صار لها أنصارها المخلصون ، ولكنها أثارت معارضة قوية أيضا .انمثل هذا الانقسام في العصر الحديث حول القضايا العامة من شأنه ان يتخذ شكل أحزاب سياسية . واذا كان مثل هذا الجهاز المعقد لم يكن قد نشأ منذ ١٣ قرنا فقد كانت هنالك مع ذلك قضايا عامة مهمة اتخذ الناس بشأنها مواقف معينة . ان الروايات عن تاريخ هذه الفترة حافلة بأسماء المجموعات التي كانت تقف موحدة حيال قضية من القضايا . ويمكن ان يكون شرح بعض هذه الأسماء سهلا كالشيعة مثلا ، أو أن يكون بعضها الآخر معقدا في تتبع نشوئه كالقراء . ومن واجب المؤرخ ان يكشف عن القضايا الحقيقية التي كانت تجمع بين

---

١) الطبري، ٢، ص ١٢٧١ والذهبي، تاريخ، جـ٤ ص ٦٧ .
٢) الذهبي، تاريخ، جـ٤، ص ٦٢
٣) الطبري، جـ٢، ص ١٢٧٢

الناس حيال مسألة بالذات . ثم انه ينبغي عليه في الوقت ذاته ان يتنبه الى عدم الوقوع في خطأ التفسيرات السطحية .

بقيت مواصلة سياسات عبد الملك والحجاج موضوعا رئيسا للنقاش ، لا خلال حياتهما وحسب ، ولكن طوال ما تبقى من العهد الأموي . وكان التوسع بما له من مضامين بالنسبة للشعوب المعنية في مختلف أنحاء الامبراطورية أحد المواضيع الاساسية في سياساتها . وصار الذين يؤيدون هذه السياسات يعرفون بالقيسية المضرية اما المعارضون لها فعرفوا باليمنية . ومن سوء الحظ ان هاتين العبارتين اعتبرتا دالتين على انقسامات قبلية عادية . واذا كان من المؤكد أنهما اسمان شملا مجموعات قبلية حقيقية فانهما استعملا للدلالة على مجموعتين عربيتين جمعت بين اعضاء كل منهما مصلحة مشتركة لا علاقة لها بالانقسامات القبلية . وليس من الغريب ان يستعمل هذان الاسمان على هذه الصورة في ذلك الوقت حين فرضت أسماء قبلية اعتباطية او مصطنعة على مجموعات عربية عديدة من أجل تخطيط المدن وتنظيم الجيش وتوزيع العطاء . ان جداول الانساب التي أعدها النسابون العرب المتأخرون بكثير من الدقة والعناية ، تعجز عن ان تفيدنا عن التفرعات القبلية الدقيقة للعديد من البطون الهامة ، ومنها بجيلة التي لعبت دورا هاماً في فتح العراق[١] ، بحيث أنها غير واثقة مما اذا كانت بطون قضاعة السورية النافذة تنتمي الى القيسية أم الى اليمنية[٢] .

ومما له مغزاه ان الصراع بين اليمنية (قحطان) والقيسية المضرية لم يحدث إلا في هذه الفترة التي نتناولها . لم يكن صراعهما في عصر ما قبل الاسلام ، ولا في حروب الردة ، ولا في حروب الفتوح ، او في جميع النزاعات والاصطدامات التي جرت خلال الحرب الأهلية الأولى . ثم ان هذا الصراع سرعان ما انتهى بعد سقوط الأمويين وقيام العباسيين . ومن السخف ان نفسر هذا الصراع على انه مجرد صراع قبلي وحسب . ومن السخف أيضا ان نعتبره نزاعاً بين ما يدعى بعرب الشمال وعرب الجنوب . ان مثل هذه التفسيرات تسيء الى الحقائق أشد الاساءة وتستخف بقدرة العرب على إدراك قضايا

---

١) المصدر السابق، ص ٢١٨٣ـ ٢٠٠

٢) البلاذري ،انساب الأشراف، جـ١ ، تحقيق م. حيد الله، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١٥ ـ ١٦ والأصفهاني، الأغاني، جـ٨، ص ٩٠ وابن حزم، جمهرة، ص ٨ و٤٤٠ و٤٤٥ .

اكثر أهمية من قضايا المنافسات والحساسيات القبلية . والواقع ان هناك قضايا هامة كانت مطروحة في هذا الصراع ، في قلب الامبراطورية ، أي في سورية والعراق ، وفي المناطق البعيدة منها في خراسان وشمالي أفريقيا . ثم ان رجالاً من بطون قيس ومضر كانوا يقفون الى جانب اليمنية ، او العكس بالعكس ، كلما انفجر صراع بين هاتين المجموعتين في أي ناحية من انحاء الامبراطورية[١] .

وفي البداية كانت الصراعات بين هاتين المجموعتين تقع على صورة أحداث منعزلة وبذلك أمكن طمس العامل الأساسي المشترك بين الصراعات كلها . وطبيعي ان المجموعة التي كانت في السلطة ، أي مجموعة قيس ومضر ، كانت عدوانية قادرة على التعبير عن ذاتها وعلى طرح سياسات ايجابية ، بينما كانت المعارضة اليمنية غير منظمة وغير متيقنة مما تريد . والواقع انه لم يكن يظهر في البداية أي خلاف أساسي بين المجموعتين . لكن التأثير التراكمي لسياسة التوسع ، بالاضافة الى التصميم على الحؤول دون حدوث أي تغيير ، دفعا باليمنية الى معارضة أكثر بروزا ووضوحا . ثم ان الانهيار النهائي لنظام آل مروان عائد الى عجز هاتين المجموعتين عن الاتحاد معاً في وجه أنصار الثورة العباسية ، وقد كانوا أكثر عنفا وتطرفاً .

وهنالك تشابه عجيب ، لكنه مضبوط بين صراع القيسية المضرية واليمنية من جهة وتاريخ الهويغ والتوري في انكلترا في القرن السابع عشر . ومن الطريف ان نرى النتائج التي يتوصل اليها المؤرخ الحديث فيما لو تتبع المعنى الحرفي لكل من هاتين الكلمتين . ان تفسير التاريخ الانكليزي على أساس انه صراع بين أصحاب الأفراس السكوتلانديين واللصوص الايرلنديين لا يختلف عن تفسير التاريخ الاسلامي على أساس المنازعات القبلية بين القيسية المضرية واليمنية .

إن نقطة الضعف الكبرى في نظام عبد الملك والحجاج هي اعتماده الشديد على حروب الفتح كعلاج عام وشامل لجميع أمراض الامبراطورية . وهو لم يحسب أي حساب للاندماج او الانصهار الذي أخذ يترسخ بين العرب أنفسهم في بيئتهم الجديدة . هكذا كان أهم تطور اجتماعي في هذه الفترة يجابه بالتجاهل او بالمقاومة . وكانت خطورة هذا المشكل تتزايد باستمرار لأن القبائل كانت ، بتزايد استقرارها

---

١) Shaban, The Abbasid Revolution, pp. 93-4

وانصهارها ، تتعرض بصورة مستمرة لمضار سياسة الحروب الدائمة وتقوى معارضة لها . وكانت النتيجة ان انقلبت هذه الحركة الانصهارية الاندماجية في النهاية على المروانيين وحطمتهم بحكم كونها قوة حية فاعلة . لقد أدركت اليمنية مغزى التطور بصورة غامضة وتمسكت به بديلا للنظام القيسي . وكان ذلك هو الانتقاد الأقوى أثراً في وجه سياسات عبد الملك والوليد الأول لأن الاتجاه نحو الانصهار في مجالات المصلحة والثقافة والدين والعرق كان قد أصبح ملحوظاً في زمنهما .

ولم تجرِ أي حملات في خراسان خلال الحرب الأهلية الثانية طوال ١٤ عاما . ومن الطبيعي ان يكون النازحون العرب قد بدأوا يتذوقون حياة الاستقرار ويعنون بالتجارة والزراعة في المنطقة . وهكذا بدأ الاندماج بين مصالح العرب والايرانيين . ان قتيبة بن مسلم بالذات ، وهو التلميذ المخلص للحجاج ، اسهم في تسريع هذه الحركة حين كان يقوم بخدمة اغراض الحجاج على أفضل وجه . وكان بحاجة الى جنود ، وكان شديد الرغبة في تحقيق فتوح جديدة حتى انه جند غير المسلمين ايضا . ووفر على نفسه دفع عطاء لهم بالطبع ، إلا أنهم نالوا نصيبهم من الغنائم . وكانت النتائج أبعد مما كان يحسب . فقد حصل التعارف بين الجنود العرب والايرانيين وهم يقاتلون جنبا الى جنب ثم أخذوا جميعا يوطدون مصالح جديدة مشتركة فيما بينهم . والواقع انهم تعاونوا فيما بينهم بالنتيجة لعزل قتيبة نفسه كي يعودوا الى بيوتهم من حملاته المتواصلة[١] .

وفي الجزيرة قرر الكثيرون من أبناء القبائل الذين انتقلوا اليها بعد الحرب الأهلية الثانية ان يستقروا دون مواصلة الغزوات المستمرة على أرمينيا وأذربيجان ، وأخذوا يندمجون بالسكان المحليين[٢] . وحدث الشيء ذاته مع القبائل العراقية بعد ازالة الصفة العسكرية عن الكوفة والبصرة .

كانت قبائل البربر مثلاً بارزاً جداً على الاندماج الفوري . ومع أن هذه القبائل حاولت استغلال الحرب الأهلية الثانية لطرد الفاتحين العرب ، فإن قوات عبد الملك السورية سرعان ما قضت على ثورتها . والظاهر أنها منحت شروط صلح جيدة لأن أعدادا كبيرة منها دخلت في الاسلام . وعومل هؤلاء البربر المسلمون الجدد كمعاملة

---

١) المصدر السابق، ص ٧٣ ـ ٤

٢) البلاذري، فتوح، ص ٣٣٣

العرب المسلمين بالضبط . وأهم ما في الأمر انهم جندوا في الجيش العربي ومنحوا عطاء . فلا غرابة ان يكونوا أبدوا ما أبدوه من حماس في فتح اسبانيا . على ان السلطات العربية ، ما ان حققت غاياتها ، حتى حاولت وقف هذا الاندماج . وكانت النتيجة استياء خفيا كاد أن ينفجر ثورة أخرى لولا أن تدخل عمر الثاني في الوقت المناسب[1] .

وفي مصر أيضا ، حيث امتدت ولاية عبد العزيز (٦٨٥ ـ ٧٠٥م/٦٥ ـ ٨٥هـ) والد عمر الثاني ، فترة طويلة ، نرى تقارباً ملحوظاً في المصالح ، ولو ان الاندماج في مجالات الدين والثقافة والعرق لم يكن قد تحقق بعد . وقد ذكرنا من قبل ان عبد العزيز سرح حامية الفسطاط ووزع رجالها العرب في أنحاء مختلفة من البلاد . ثم أخذت الفسطاط تنكمش بصورة ملحوظة بينما بدأت الاسكندرية تتسع باستمرار . وكان عبد العزيز نفسه مثلا يقتدى به إذ نقل مقره الى حلوان على مسافة بضعة أميال للجنوب من الفسطاط . ومنح القادة العرب البارزين أملاكاً في مناطق مستصلحة حديثاً . وبكلام موجز ، بدأ العرب يعيشون جنبا الى جنب مع السكان المحليين ثم أخذت مصالحهم تتلاقى معاً . حتى ان لدينا بعض الروايات القليلة عن مساعدة المصريين المحليين للعرب في رد غارات البيزنطيين[2] . على ان المثل الأهم على هذا التلاقي في المصالح كان في مجال البحرية المصرية . لقد كان السوريون يملكون بحرية صغيرة خاصة بهم غير أنهم كانوا في جميع المعارك البحرية الهامة يعتمدون اعتمادا كبيرا على البحرية المصرية ، وهي أكبر من بحريتهم الى حد كبير ، ولا سيما اثناء حصارات القسطنطينية . ومع ذلك فان جميع بحارتها وموجهي دفاتها ومجذفيها كانوا مصريين مسيحيين مستأجرين للعمل خلال الحملة لقاء الحصول على نصيبهم من الغنائم[3] . ان هذه البحرية هي المبرر الكلاسيكي الذي كانت المجموعة اليمنية تقدمه في دعوتها لتقديم تنازلات للشعوب المغلوبة[4] . وهي الحالة الوحيدة البارزة في هذه الفترة حين سمح لعدد كبير من غير

---

١) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٣١٣ وابن عبد الحكم، سيرة عمر، ص ٣٤ و١٥٦ وابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ١١٠

٢) الكندي، الولاة، ص ٧٠

٣)الطبري، ٢، ص ١٣٤٦ والذهبي، تاريخ، جـ٣، ص ٣٣١ وانظر ايضا الفصل الخامس.

٤)انظر الفصل العاشر.

المسلمين وغير العرب ان يقوم بعمل بالغ الأهمية دفاعا عن الامبراطورية . وقد قام به خير قيام .

وكانت لحجج اليمنية قوة كبيرة إذ ثبت ان لتقديم التنازلات للشعوب المغلوبة فوائد حتى في مواصلة سياسة التوسع . وكانت اليمنية على استعداد لدفع ثمن كسب التعاون التام من قبل هذه الشعوب ، أما القيسية فكانت ترفض بشدة اقتسام امتيازاتها مع هذه الشعوب ، وكانت في الوقت ذاته تستثمرها حين يتسنى لها ذلك . ان قتيبة القائد القيسي المعروف كان يدفع استغلاله للشعوب المحلية في خراسان والشرق الى أقصى حد . كما أنه كان في الوقت ذاته يتخذ جميع التدابير لتحقيق الفصل التام بين العرب والايرانيين لوقف عملية الاندماج . وبرغم تحقيقه فتوحات جديدة فان نتيجة تطبيقه الدقيق للسياسات القيسية كانت مفجعة . وهو نفسه لاقى مصرعه على أيدي الرجال الذين قادهم نحو النصر في المعركة . وواجهت سياسات سيده ضربة قاسية ازاء تسارع عملية الاندماج في خراسان . وأخذ أبناء القبائل العربية هناك يبدون ترددا كبيرا في الانضمام الى أي حملة ثم نشأت حركة ثورية في صفوفهم[1] .

هذا هو بالذات الخطر الذي تنبأت به اليمنية ولكن التيار كان معانداً لها ، كما ان نصائحها ظلت لا تلقى اذنا صاغية قبل فوات الوقت. لقد رأت اليمنية أن لسياسة عبد الملك والحجاج المدعومة من القيسية مساوىء كثيرة خطيرة . ومن المسلم به ان هذه السياسة سارت سيرا حسنا الى وقت ما ولكن غالبية القوى الاجتماعية كانت تبتعد عن الافتراضات الضمنية التي تقوم عليها هذه الياسة . وهنا تقدمت اليمنية بتدابير عملية لمواجهة الأحوال الاجتماعية المتغيرة بسرعة مهددة جهاز السلطة الامبراطورية نفسه . وقد أدركت ان القاعدة السياسية للنظام ليست ضيقة وحسب ولكنها كانت تتراجع بصورة مؤكدة ايضا امام قوى الاندماج . ان كل عنصر من عناصر هذه القاعدة ، أي آل مروان وأنصار الحجاج والجيش السوري والمقاتلة أقلية بحد ذاته . وهنالك عائلات هامة أخرى أبرزها فروع آل هاشم ، ذات مكانة كبيرة مثل مكانة آل مروان . يضاف الى ذلك ان التزاحم بين آل مروان للحصول على الأراضي قد لطّخ سمعتهم . فقد وسع عبد الملك وابنه الوليد مبدأ الصواقي للاستيلاء على الأراضي المستصلحة على

(١ Shbban, *The Abbasid Revolution*, P. 103

حساب الأموال العامة من الصحاري والمستنقعات والبحر ، ووزعا قسماً كبيراً منها على أفراد عائلتيهما[١] . ثم ان حصر جميع المراكز الرئيسية العالية بأبناء آل مروان وبالخاضعين لرعاية الحجاج كان ممارسة خطرة . ولئن كان الموظفون هؤلاء يتصفون بالكفاءة والولاء بوجه عام فان هذه السياسة أدت الى إقصاء الكثيرين من المسؤولين الآخرين عن المراكز الرفيعة . وكان المقاتلة باستمرار يتضاءلون عددا أمام زملائهم أبناء القبائل المسالمين . يضاف الى ذلك انهم كانوا يبرزون كطبقة ذات امتيازات ، وكانوا يحالون ان يحافظوا على امتيازاتهم بالقوة . وسنرى أن ذلك كان خطيراً بصورة خاصة في خراسان[٢] .

أما الجيش السوري ، العنصر الأقوى في قاعدة قوة آل مروان ، فكان في الواقع أشد نقاط هذه القاعدة ضعفا . لقد أيد السوريون معاوية دفاعاً عن مصالحهم ثم وقفوا الى جانب مروان لاستعادة النظام الأموي للأسباب ذاتها . غير ان استخدامهم كقوة لحماية الامبراطورية كلها كان أمراً آخر بالنسبة لهم . واذا كان صحيحا ان الجيش السوري كفء الى درجة معقولة ، وموالٍ الى حد كافٍ ، فان هنالك حداً لكفاءته وموالاته معاً . أولا : ان تقييد الهجرة الى سورية أفقد السوريين العدد الكافي للقيام بهذه المسؤولية إذ أن قبائل العراق وحدها كانت أكثر عدداً من السوريين . وليس العراق غير منطقة واحدة من مناطق الاضطراب حيث يراد من الوجود السوري ان يسهم في تثبيت سلطة الحكومة المركزية . ثانيا : ان هذا الوجود بالذات هو الذي كان يثير أعنف النقمة على السوريين والحكومة المركزية معا . كانت ثورة مطرف بن المغيرة الدليل الأول على هذه النقمة . وكان وضع قوة الاحتلال السورية في واسط بصورة دائمة إذلالا كبيرا جدا لا يطيقه العراقيون زمناً طويلاً . وسنرى ان ثورة يزيد بن المهلب في البصرة بعد سنوات خمس فقط من وفاة الحجاج كانت تعبيرا واضحاً عن هذه النقمة المريرة . ثم ان انضمام قسم من الحامية السورية في العراق الى صفوف الثورة جاء في الحقيقة أقوى دليل على العامل الثالث البالغ الأهمية في هذا الوضع[٣] .

إن النقمة التي لقيها السوريون كانت مؤسفة من ناحيتين إذ أن الكثيرين منهم كانوا

---

١) ابن عبد الحكم، سيرة عمر، ص ١٥٢ ـ ٣
٢) انظر أدناه الفصل الثامن والفصل العاشر .
٣) انظر الفصل السابع .

أبرياء من إرادة السيطرة على الولايات الأخرى . لقد كانت سورية بصورة دائمة ولاية مستقرة وقانعة الى حد بعيد . ولولا انها كانت وثيقة الارتباط بالبيت الحاكم لكانت سورية آثرت سياسة عدم التورط . والواقع ان ذلك هو ما طلبه السوريون من علي في صفين . ولكن مقتضيات سياسة بني مروان دفعتهم الى هذا الموقف المتورط . ولا ريب ان هذا الموقف كان غير مرضٍ للكثيرين منهم .

وكانت لقضية رجاء بن حيوة، أحد قادة جند الأردن صلة وثيقة بذلك بصورة خاصة[١] . وهنا نذكر ان السوريين في هذه المنطقة كانوا المجموعة الوحيدة التي وقفت صامدة بجانب مروان خلال السنوات الخطرة في الحرب الأهلية الثانية[٢] . وكانوا مسؤولين مباشرة عن بلوغه السلطة . ومما له مغزاه انّ رجاء بن حيوة بلغ مرتبة عالية في عهد عبد الملك والوليد الأول[٣] ، لكن بلوغه مرتبة اعلى في عهد خليفتيها المباشرين سليمان وعمر الثاني يشير الى انه كان غير مؤيد لسياسة الحجاج[٤] . لقد ناصر آل مروان أثناء الحرب الأهلية الثانية أملا في العودة الى النظام المسالم المتواضع نسبيا في ظل معاوية ويزيد الأول . ولم يكن رجاء ولا الذين يمثلهم يعترضون على الغارات الصيفية على البيزنطيين . لقد كانوا يرون ذلك واجبا أوليا عليهم يتصل بتأمين سلامة مواطنهم الخاصة . أما الآن فقد أخذت سياسة عبد الملك الجديدة تفرض عليهم مهمة المرابطة الدائمة في العراق والقيام بالحملات المتواصلة في أفريقيا الشمالية وفي أمكنة أخرى ، مما أحدث انقلاباً كاملاً في حياتهم وعنى إبعادا فعليا للبعض منهم . ولذلك أخذوا يعيدون النظر في الأمر . وكان بينهم بالطبع من سرّ بتقديم خدماته لقاء العطاء المقرر حديثا ، لكن آخرين كرجاء وغيره ممن انضم الى ثورة يزيد بن المهلب بصورة خاصة ، كرهوا هذه الظروف الجديدة وبذلوا جهدهم لتعديلها[٥] . ومن الواضح أن هنالك خطأً محققا حين يكون حماة النظام غير راضين بصورة خاصة عن دورهم الجديد . إن قاعدة آل

---

١) ابن عبد الحكم، سيرة عمر، ص ١٤٣
٢) انظر الفصل الخامس
٣) الطبري، ٢، ص ١٣٤١ ـ د وأحمد بن محمدبن‌عبدربه : العقد الفريد ، بيروت ، ١٩٥١ ـ ٤، جـ١٦، ص ٢٤ وجـ١٨ ص ٧٤ .
٤) الطبري، جـ٢، ص ٨٣٨ .
٥) تابع سيرة اعمال رجاء في الفصل الثاني .

مروان السياسية لم تكن ضيقة جدا وبغيضة جدا وحسب ، لكنها كانت غير مأمونة في دعامتها الأساسية الوحيدة ، أي قدرة القوات السورية وارادتها لتنفيذ سلطة أمير المؤمنين المطلقة .

وبوفاة الوليد الأول وانتقال السلطة الى رجال لديهم قبس من طريقة أخرى للحكم ، أخذت سياسة عبد الملك والحجاج تتلاشى بصورة تدريجية ، وبعد ذلك وقعت على سليمان أمير المؤمنين الجديد مسؤولية وضع سياسة بديلة ناجحة للأمبراطورية .

الفصل السابع
الاصلاح المعتدل والاصلاح الجذري
عهود سليمان وعمر الثاني ويزيد الثاني

رأينا في الفصل السابق ان النظام القيسي كانت تشوبه نقاط ضعف أسرعت المعارضة القوية المتعاظمة في استغلالها . ولم يكن امام هذه المعارضة إلا ان تنتظر قدوم أمير جديد للمؤمنين يكون أكثر ميلاً اليها للعمل على تحقيق آمالها . وبانتقال الخلافة الى سليمان تحقق لها ذلك . ولم يحكم سليمان وعمر الثاني إلا وقتا قصيراً ، أي خمس سنوات وحسب ، لكن هذه السنوات الخمس كانت من حيث كثافة النشاط والتحول السياسيين ، تضاهي في أهميتها ثلاثين عاما من عهدي عبد الملك والوليد الأول . ومما يثير الدهشة في هذه الفترة بصورة خاصة هو تسارع التغير الشديد حتى أنه تجاوز تفكير اليمنية في سنوات معارضتها الى حد بعيد . وكان تحول اعتدال سليمان الحذر الى حذرية عمر الثاني الأكيدة سريعا ، وهو مشابه الى حد ملفت للنظر بالثورات الأوروبية الكبيرة خلال القرنين الماضيين على أنه كان هنالك فارق حاسم هو أن هذه « الثورة » كانت تحدث من فوق دائما بحيث ان القوى الجذرية التي تنطلق من هذه الثورة كانت تضبط بسهولة حين تتغير السياسة الفوقية . لقد كانت ثورة لم تتجاوز المرحلة البدائية على الاطلاق .

كان سليمان يتحرك بحذر شديد بحيث يصعب تصنيف سياسته . وتدل مصادرنا على حيرتها بالنسبة له بالتأكيد على نهمه وبالتلميح الى انغماسه في الشهوات في حين تمتدحه على نقضه سياسات الحجاج وتعيينه عمر الثاني خليفة له[1] . والحقيقة هي ان هذه المصادر غير واثقة البتة من أهمية عهده القصير جدا . ومع ذلك فلا ريب ان هذا

---

١) الطبري ، ٢ ، ص ١٢٧٣ و ١٣٠٩ و ١٣٣٧

العهد كان نقضاً أكيداً لسياسات عبد الملك والحجاج . ومن المؤكد ان أول تدبير قام به لا يترك أي شك بذلك ، وهو صرف جميع أنصار الحجاج ومحاسبيه واستخدام آخرين غيرهم من مؤيدي اليمنية الأكثر تحرراً واعتدالاً[1] . فحل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة مثلا محل أحد أنصار الحجاج واليا على العراق . لقد كان يزيد رجلاً مقتدراً لكنه كان قائداً بارزاً من قادة اليمنية ولهذا السبب أنزل الحجاج الأذى به في عام ٧٠٤م/٨٤هـ حين تمكن من اقناع عبد الملك بعزله بعد مرور عامين فقط على تعيينه والياً على خراسان . ومن الواضح ان تعيين هذا الرجل الذي اشتهر بمعارضته للقيسية وبسقوطه ضحية لها ، باعتباره حجاجاً خاصاً بسليمان ، كان ذا أهمية سياسية . ورضخ جميع الولاة القيسية للعزل بدون مقاومة باستثناء والٍ واحد بارز هو قتيبة بن مسلم والي خراسان . وكان قتيبة أحد أنصار الحجاج المفضلين ، وكان منذ عام ٧٠٥م/٨٦هـ عاملا موالياً له على خراسان . وهو الذي كان في الحقيقة قد حل محل يزيد . وما إن علم بوفاة الوليد الأول حتى أدرك على الفور نهاية خدماته السياسية ولذلك حاول القيام بعصيان مع انه كان آنذاك يقوم بحملة عسكرية . لقد عبر قتيبة بذلك عن طموح لا مبرر له لأن التأييد له في خراسان أقل مما كان يتصور . وما إن اتضحت نيات قتيبة حت انقلب عليه أبناء القبائل العربية وحلفاؤهم الجدد ، أي الموالي ، وقتلوه وعادوا الى منازلهم . فقد سئموا حملاته المتواصلة ووجدوا ان لا مبرر لنصرته في وجه حكومة يتوقع منها ان تكون أشد ميلاً الى السلام[2] . وكان هذا الانقلاب على الثورة في خراسان أحد أقوى الحجج المؤيدة لسياسة اليمنية . ولا شك ان هذا كان مرضياً لسليمان في الظاهر ، غير انه حين رأى قبائل خراسان تعمد الى اختيار أحد قادتها والياً مؤقتا أصيب بذعر شديد لما يمكن أن يؤدي اليه هذا الاختيار من فوضى واضطراب . وعندها أبلغ يزيد بأن ينقل مركزه الى خراسان وبأن يعين عمالاً له في الكوفة والبصرة وواسط . ثم قرّر أيضا ان يبقي شؤون العراق المالية تحت مراقبته بتعيين مندوب شخصي عنه في الولاية يتمتع بصلاحيات خاصة بالنسبة للضرائب . ووقع اختياره لهذا المنصب الدقيق على صالح بن عبد الرحمن ، وهو مولى من تميم ذو خبرة تعود الى زمن بعيد في الادارة

---

١) ابن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ٣٢٣ ـ ٥

٢) Shaban, The Abbasid Revolution PP. 72-5

العراقية[1] .

وإذا كان أول عمل قام به سليمان يدل على رفض تام لسياسات الحجاج ، فان سياسته الخارجية التي نهجها كانت تتسم بالبطء والحذر . كما كانت تبدو في بعض النواحي ، أكثر عنفا من السياسات السابقة . ففي خراسان كان سليمان أقل مسالمة مما توقع المتمردون على قتيبة . كان يدرك انه لن يلقى دعماً من السكان ولذلك أمدّ يزيد بتعزيزات كبيرة من القوات السورية المرابطة في واسط[2] . وكان عمله هذا أشبه شيء بتوسيع سياسة الحجاج لتشمل خراسان ، على ان يزيد نهج فور وصوله اليها سياسة اختلف عن سياسة قتيبة . ومن المؤكد ان سياسته شملت القيام بحملات كثيرة لكن هذه الحملات استهدفت تعزيز المواقع اكثر مما استهدفت الفتح . وركز يزيد حملاته على ولايتي قزوين الجبليتين ، جرجان وطبرستان ، وقد كانتا من الناحية النظرية جزءا من الامبراطورية منذ زمن بعيد ، ولكنهما لم تكونا خاضعتين لها خضوعا تاما . واذا كانت الاساليب العسكرية العربية قد اتصفت بالمنعة والصمود في مناطق أخرى ، فقد ثبت دائما أنها غير ملائمة الى حد يرثى له في قتالها في الجبال . ومع ذلك فقد استطاع العرب هذه المرة ان يحققوا نجاحاً أفضل . وقد أدى الى هذا النجاح عامل رئيسي هو العدد المتفوق من القوات التي حشدها يزيد . إذ أنه جند أعداداً كبيرة من المتطوعين المحليين غير العرب[3] ، تحقيقاً للسياسة اليمنية القاضية بكسب التعاون الطوعي من الشعوب المغلوبة . حقاً إن يزيد لم يكن أوفر نجاحاً من أسلافه فوق المنحدرات العليا ، لكنه تمكن من إخضاع المنحدرات الدنيا ، كما كانت الغنائم كبيرة الى حد كافٍ أدى الى الخلاف بشأن توزيعها[4] .

ثم ان سياسة سليمان بالنسبة للجبهة البيزنطية كانت ، على شدة بساطتها ووضوحها ، غير وافية أيضا لتحديد نهجه السياسي . ومن أجل إنهاء الحملات المتواصلة على الجبهة البيزنطية ، قرر سليمان ان يسحق الامبراطورية البيزنطية نفسها

---

١) الطبري، ٢، ص ١٣٠٤ ـ ١٤

٢) المصدر السابق، ص ١٣٢٧

٣) المصدر السابق، ص ١٣١٨ و ١٣٢٧ و ١٣٢٩

٤) المصدر السابق، ص ١٣١٨ ـ ٣٥ واليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٣٥٥ والبلاذري، فتوح، ص ٣٣٥ ـ ٨

بمحاصرة القسطنطينية حصاراً ضخماً ومنظماً بدقة قصوى . وكان شقيقه مسلمة المقتدر قائد هذه القوة العظيمة المؤلفة من جيش سوري وبحرية مصرية . على ان مخططه لم يبلغ من الطموح والعنف ما قد يتبادر الى الذهن . لقد سبق ان كاد معاوية نفسه ان ينجح في الحصارين السابقين لهذ المدينة (٦٦٩م/٤٩هـ و٦٧٤ - ٦٨٠م/٥٤ - ٦٠هـ) ثم بدأ هذا الحصار الآخر في عام ٧١٦م/٩٨هـ وسرعان ما وجد البيزنطيون أنفسهم في وضع محفوف بالمخاطر الى حد أقصى . ومن حسن حظهم ان عام ٧١٧م/٩٩هـ شهد اعتلاء ليو الأيسوري العرش البيزنطي ، وهو من أصل سوري . وقد كان تكتيكيا بارعا مراوغاً ، وسرعان ما تفوق على مسلمة بمناوراته . وأدى هذا ، بالاضافة الى وفاة سليمان غير المتوقعة في السنة ذاتها ، الى إرغام العرب على رفع الحصار والانسحاب[1] .

ومن الواضح ان سليمان ظل خلال حكمه يقاوم قادة القيسية ويشجع قادة اليمانية. ويمكن القول في النهاية أنه واصل نفس السياسة الامبراطورية التي نهجها أسلافه المباشرون مكتفيا فقط بتلطيفها بمحاولة إدخال غير العرب في هذاالجهاز . لقد كان عهده قصيراً جداً وظل هو شخصية غامضة بالنسبة للمؤرخ . غير أن اختياره عمر الثاني خليفة له يحملنا بقوة على اعتباره نصيرا متحفظا لليمنية . ولا بد أنه كان يعلم ان عمراً ، أحد مستشاريه المقربين منه جداً ، أبعد جذرية من اليمنية . والواقع انه كان مؤيداً لجذريته هذه ولولا ذلك لم يكن ليختار عمرا خليفة له . إن أهمية هذا الاختيار لا يمكن ان نبالغ فيها . لقد جاء اختيار عمر تحديا للاصطلاح المتعارف المعمول به . ثم ان انتقال السلطة كان مرتباً بعناية وبراعة فائقتين . كان هنالك تفاهم عام بين آل مروان على ان منصب أمير المؤمنين يجب ان ينحصر بأبناء عبد الملك ، وهو أب لما لا يقل عن ١٦ ابنا ، بينهم ثلاثة قضوا نحبهم في طفولتهم ، وسبعة ولدوا من سراري غير عربيات . ولما كان انعدام الدم العربي الخالص يحول دون خلافة هؤلاء بمن فيهم مسلمة القوي نفسه ، فانه لم يبق بعد وفاة الوليد الأول وسليمان غير أربعة أبناء فقط صالحين لاختيار الخليفة من بينهم . وكان عبد الملك نفسه قد عين ابنيه الأكبرين فقط للخلافة المباشرة بعده ، على انه كان مفترضا انه قصد ان يتوالى على الخلافة يزيد ثم

---

١) الطبري، ٢، ص ١٣١٤ - ١٧ والذهبي، تاريخ، ج ٣، ص ٣٣١

اخوته الصغار الثلاثة بعده[1] . لذلك لم يكن سليمان يستطيع ان يزعم عدم وجود أشقاء آخرين له ، على انه ارتأى ان يتجاهل مقاصد والده الواضحة ، برغم عدم صراحتها ، بحجة ان المبايعة ليزيد لم تكن معلنة من قبل . وخرج عن دائرة أبناء عبد الملك ، واختار بدلا من ذلك ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن مروان خليفة ،وهو أشد الناس عطفاً على سياسته[2] .

من الواضح ان سليمان لم يكن يثق بعائلته لتنفيذ مقاصده . فقد وضع الوصية السرية التي عين فيها عمرا خليفة له في دابق ، وهي مركز على الحدود البيزنطية . وبرغم انه كان محاطاً بأقربائه في دابق ، فقد اختار رجاء بن حيوة الكندي منفذا لوصيته دون أي فرد آخر من أفراد عائلته . وكان لهذا الاختيار أهمية كبيرة . لقد سبق ان ذكرنا رجاء ببعض التفصيل على انه أحد أبرز المعارضين السوريين لسياسة عبد الملك والحجاج . ثم ان وجوده في هذا الوقت ، لا مع القوات السورية الرئيسة التي تهاجم بيزنطية يعني ان سليمان اختار جنده ، أي جند الأردن ، لاصطحابه في الحملات الثانوية حول دابق . هذا شيء متوقع . ومن المنطقي جداً ان يختار أمير المؤمنين أخلص القوات السورية ليحيط نفسه بها . وقد أثبتت الأحداث فيما بعد أن اختيار رجاء لتنفيذ وصية سليمان كان اختياراً موفقاً لأنه لم يكن مؤيداً لسياسات عمر تأييداً قوياً وحسب ، ولكنه كان يملك أيضا قوة عسكرية لتأمين وصول هذا الأخير الى الخلافة . إن الصفات السياسية التي كان يتصف بها الرجل الذي اختاره سليمان خليفة له ، والتي كان يملكها الرجال الذين عهد اليهم بتحقيق بلوغه منصب الخلافة ، تدل ان سليمان كان أكثر جذرية مما تدل عليه أعماله الأخرى خلال حكمه .

وعند وفاة سليمان كان رجاء في وضع قوي جداً لتأمين تنفيذ مقاصد سيده . وفي اجتماع لآل مروان أعلن رجاء نفسه منفذا لوصية أمير المؤمنين الراحل ، وحملهم جميعا على مبايعة خليفة لم يكشف عن اسمه . ثم تليت الوصية بعد ذلك . ولما احتج بعض أفراد العائلة على هذا الاستخفاف بحقوقهم عمد رجاء الى التهديد باستعمال القوة .

---

١) الذهبي، تاريخ، جـ ٤، ص ١٦٨، و « العيون والحدائق في اخبار الحقائق » مجهول، تحقيق م. ج. دي غويه، لايدن، ١٨٦٩، ص ٢٩.
٢) الطبري، ٢، ص ١٣١٧ - ٤١

وأدرك بنو مروان أهمية هذا التهديد . ثم تمّ الاتفاق في النهاية على تسوية هي ان يكون عمر الثاني خليفة بموجب وصية سليمان لقاء انتقال الخلافة الى يزيد عند وفاة عمر تحقيقاً لمقاصد عبد الملك . وقبل رجاء بذلك بدون ضجة إذ أنه لم يكن يعرف ان آماله ستخيب بوفاة عمر في شبابه . ويبدا لبعض الوقت ان رجاء حقق انقلاباً بالفعل[١] .

وفي حين كانت سياسات سليمان متحفظة وغامضة ، فان سياسات عمر الثاني كانت واضحة وجذرية . ففي حين واصل سليمان الحملات العسكرية اوقفها عمر . وما إن وطد عمر نفسه في السلطة حتى استدعى الحملة التي كانت تحاصر القسطنطينية وأمر بالانسحاب من جميع المواقع المتقدمة في داخل الأراضي البيزنطية[٢] . كذلك أمر جميع الحملات على الجبهة الشرقية بالتوقف التام حتى أنه أمر بانسحاب عام من وراء النهر[٣] . ان سياسة اليمنية الخارجية في ظل سليمان ، اذا ما قورنت بالجرأة التي قضت بهذه التحركات، تكاد تكون كسياسة الحجاج تقريبا .

غير أن أهم أعمال عمر الثاني كانت في ميدان السياسة الداخلية حيث تجاوز السياسات اليمنية الغامضة وخلفها وراءه . وفي هذا المجال ينبغي ألا نراه عباسياً ولد خطأً في سلالة أخرى . لقد كان عمر مروانيا الى حد بعيد ، لكنه كان قبل كل شيء وفوق كل شيء ، حاكما مسلما لا يرى أي تناقض بين متطلبات الاسلام وبيت مروان . وكان يرى أن على آل مروان ان يرتفعوا الى مسؤوليات مكانتهم العالية . أما فيما يتعلق به بالذات فقد عاش طوال عهده حياة مثالية في بساطتها وتزهدها برغم ما كان معروفا عنه انه سبق له ان عاش حياة مرحة مترفة[٣] . ثم عمل ايضا على التأكد من ان يكون تصرف أقربائه لائقاً ، ولذلك ألغى جميع الهبات الممنوحة لآل مروان من أراضي الصوافي ، بالاضافة الى الغاء امتيازات أخرى كالمرتبات التي كانت الدولة تدفعها لحرس آل مروان الخاص[٤] . والأهم من هذا كله انه رأى أن على آل بيته ان يحكموا حكما

---

١) المصدر السابق، ص ١٣٤٠ ـ ٥
٢) المصدر السابق، ص ١٣٤٦ والبلاذري، فتوح، ص ١٦٥
٣) الطبري، ٢، ص ١٣٦٥ واليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٥٥ ـ ٦
٤) ابن عبد الحكم، سيرة عمر، ص ٢٠ ـ ١
٥) المصدر السابق، ص ٥٠ ـ ١ و ٥٦ ـ ٧ و ١٥٢ ـ ٣

اسلاميا . لم يكن ذلك مجرد تعصب ديني لكنه كان سياسة واقعية . كان يتحلى ببعد النظر مما جعله يدرك ان اعتدال معاوية انقلب في عهد عبد الملك الى تسلط عربي ضيق ، وان النظام الذي تسلمه ضيق القاعدة الى حد كبير بحيث انه لن يدوم طويلا . لقد كان عمر الثاني مقتنعا بأن الأصول الايديولوجية لا القوات السورية هي التي يجب عليها ـ ويمكنها ـ ان تحافظ على وحدة الامبراطورية . ان مثل هذه الايديولوجية متوفرة في الاسلام، مقبولة ومعترف بها في جميع انحاء الامبراطورية ، وكل ما عليه ان يفعله هو تطبيق مبادئها بدون تمييز لانشاء مجتمع على اساس الحقوق المتساوية مقابل المسؤوليات المتساوية. لقد كان هذا يعني انصهار جميع المسلمين ، عربا وغير عرب ، في مجتمع اسلامي واحد . ومثل هذا التطور هو ما كان عمر الثاني يعمل له ويشجع على تحقيقه .

لم تكن هذه السياسة الجديدة تعني أي تنازل عن السلطة من قبل الحكومة المركزية . الواقع ان عمر الثاني كان يشرف على كل عمل من اعمال ولاته الى درجة لم تعرف من قبل . وخلافا لأسلافه المباشرين الثلاثة فانه لم يستخدم العمال الأقوياء كالحجاج ويزيد وإنما عمد ، بدلا من الاعتماد على احكام مساعديه الموثوقين ، الى الطلب من ولاته بأن ينفذوا تعليماته المفصلة . في مثل هذه الظروف كانت وجهات النظر السياسية للولاة أدنى أهمية مما كانت عليه في النظام الذي كان في الظاهر أقل مركزية في عهد سليمان . كان عمر يتطلب الكفاءة والطاعة ، وكان على استعداد لتعيين انصار الحجاج اذا ما اتصفوا بهاتين الصفتين . ومن أعماله الاولى انه عزل يزيد بن المهلب عامل سليمان الموثوق في الشرق ، ثم قسم هذه المنطقة الواسعة الى ثلاث ولايات هي الكوفة والبصرةوخراسان لتكونبذلك اكثر خضوعا لاشرافه الشخصي[1]. يضاف الى ذلك انه أمر باعتقال يزيد بحجة انه لم يرسل الى دمشق نصيبها الصحيح من الغنائم من جرجان . ولكن الأكثر احتمالا ، فيما يبدو ، هو أنه كانت لعمر الثاني أسباب أقوى لاتخاذ مثل هذا التدبير . لقد رأينا ان يزيد كان ملتزما تمام الالتزام بسياسات سليمان التي كانت دون مخططات عمر الثاني الى حد بعيد . ولئن كان يزيد قائداً معروفاً لليمنية فقد كان هنالك خطر امتناعه عن تأييد السياسات الجديدة ، وهي

---

١) الطبري، ٢، ص ١٣٤٦

اكثر جذرية . وتدل سيرته انه كان يستطيع حشد ما يكفي من التأييد لاثارة مشاكل خطيرة في وجه عمر الثاني . وهكذا فان اعتقاله كان تدبيراً احتياطياً ، كما كان اعلاناً هاماً من قبل عمر الثاني بتحوله التام عن سياسات أسلافه .

تورد مصادرنا بالنسبة لهذا العهد مقادير كبيرة لا مثيل لها من التعليمات المفصلة للولاة . ولم يكن هنالك أي شيء قليل الأهمية بحيث يفوت انتباه عمر . فقد أصدر مثلا أمراً قدره له المصريون جميعا قضى فيه بمنع زرع الأشجار على ضفتي النيل لأن ذلك من شأنه ان يعرقل جر القوارب في النهر عكس مجراه[١] . وليس هذا غير مثل واحد على اهتمامه الدقيق بالتفاصيل ، وهو يدل على معرفته وعنايته الكبيرتين بالاحوال في جميع الولايات . ان فحوى هذه التعليمات ، اذا نظر اليها بصورة عامة ، يشير الى طريقة جديدة كل الجدة في حكم الامبراطورية ، وهي طريقة كانت في وقت واحد أشد ديكتاتورية من طريقة عبد الملك ، ودونها ديكتاتورية أيضا . لقد كانت أشد ديكتاتورية بسبب ازدياد درجة السيطرة المركزية وكانت دونها ديكتاتورية لأنها لم تعد تعتمد على القوة العسكرية المجردة. لقد سحب القسم الأكبر من القوات السورية من العراق وخراسان ، وحاول تحقيق الاستقرار عن طريق اعادة ترتيب القوى السياسية في كل ولاية[٢] . ولتحقيق ذلك اعترف بوقوع الانصهار بين العرب وغير العرب وعمل على تشجيعه أكثر مما فعل سليمان . ان حلول جميع المسائل المحلية الصغيرة التي اهتم بها تدل على إصراره على مبدأ الحقوق المتساوية والمسؤوليات المتساوية بالنسبة لكل مسلم سواء كان عربيا او غير عربي . وكان الأثر التراكمي لهذه الكمية الضخمة من التعليمات المفصلة ، إحداث تغيير رئيس في سياسة الولايات الداخلية مما قضى على المخالفات الشاذة ووضع أصولا للاهتداء بها في مجتمع منصهر . ثم انه لم يقصر اهتمامه على الشؤون الثانوية في إصراره على طابع الامبراطورية الاسلامي دون الطابع العربي . ان أشهر تدابيره الرئيسة ، أي تنظيماته المالية ، هي أفضل مثل على ذلك . كانت هذه الوثيقة التي عممت على جميع الولاة معنية في الغالب بمساوىء عادية لكن إحدى فقراتها احدثت ثورة في العادات المتبعة في الامبراطورية . فقد قضت هذه الفقرة بوجوب منح

---

١) ابن عبد الحكم، سيرة عمر، ص ٦٧

٢) ابن اعثم، فتوح، جـ ٢، ص ١٦٧ ـ ٨ وشعبان The abbasid Revolution ص ٩٠ ـ ٢

عطاء لكل مسلم قبل بالتزاماته العسكرية بصرف النظر عن كونه عربيا او غير عربي[١] . وكان هذا التدبير ثوريا الى حد كافٍ ، لكن الأبعد منه أثراً كان الاصرار في الوثيقة على ان جميع الذين يعتنقون الاسلام يجب ان يدفعوا الضرائب ذاتها بالضبط كتلك التي يدفعها العرب الذين يقومون بأعمال مماثلة[٢] .

ثم ان هناك تدابير أخرى اكثر تحديداً للتشجيع على الانصهار . وقد سبق ان ذكرنا ان الانصهار بين العرب والبربر في شمال أفريقيا بدأ في وقت باكر . ومن الواضح ان ذلك كان مناقضا لنهج بني مروان غير أن هذا التدبير استمر بحكم الضرورة الى ان تم فتح اسبانيا في عهد وليد الأول . ولما قام البربر بدورهم الأساسي ، عمد الوليد الأول وولاته ذوو الاتجاهات الحجاجية الى سحب موافقتهم السابقة منعا للمزيد من الانصهار بين العرب والبربر . ولم ينظر البربر بعين الرضى الى هذا الخفض في مكانتهم ولما لم يقم سليمان بما من شأنه ان يزيل هذه الظلامات أضحوا على وشك الثورة حين اعتلى عمر الثاني عرش الخلافة . وبكل بساطة عمد عمر الثاني الى التأكيد مجددا على السياسة السابقة القاضية بعدم التمييز ، وعاد البربر مرة أخرى الى الرضى والطاعة . ولا حاجة بنا الى القول ان الوالي الجديد يزيد بن ابي مسلم عاد عند عودة القيسية الى السلطة بعد وفاة عمر ، الى سياسات مدربه الحجاج ، وكانت النتيجة اغتياله (٧٢٠م/١٠٢هـ) وتزايد الثورة في مختلف أنحاء أفريقيا الشمالية واسبانيا[١] .

وفي مصر طوّر عمر الثاني سياسات أبيه عبد العزيز وشدد عليها . وقد سبق ان علقنا على تعاون المصريين الملحوظ في البحرية . هنا كان الوضع مؤاتيا الى أقصى حد لتنفيذ سياسة عمر الثاني القائمة على الحقوق المتساوية لقاء المسؤوليات المتساوية بالنسبة لجميع المسلمين . ففي عهده أضيف ٥٠٠٠ اسم جديد الى الديوان في مصر لصرف العطاء لهم[٣] . ولما كانت الهجرة الى مصر متوقفة في هذا الوقت فان هذه العطاء لا

---

١) ابن عبد الحكم، سيرة عمر، ص ٩٥ . وكذلك H. A. R. Gibb « the fiscal Rescript of Umar II » *Arabic*, vol 11, Jan. 1955, PP 3,9

٢) Gibb, «fiscal Rescript », P. 16

٣) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر، ص ٣٤ و ١٥٦ واليعقوبي، تاريخ جـ ٢، ص ٣١٣ وابن خلدون، عمر، حـ ٦، ص ١١٠ والطبري، ٢ ، ص ١٤٣٥

٤) الكندي، الولاة، ص ٦٨

يمكن ان تكون الا للمصريين المحليين ، أي لأفراد البحرية ، في الغالب . ولا حاجة بنا الى تكرار القول ان خلفاء عمر حرموا هؤلاء الرجال من هذا العطاء[1] . وبرزت حماقة هذا العمل بصورة واضحة جدا حين عاد هؤلاء انفسهم ، الى إقرار نظام مماثل بعد انقضاء ٢٥ عاما[2] . لكن الوقت كان قد فات لاكتساب ثقة المصريين المحليين ودعمهم .

ان هذه التجربة الفريدة المبشرة بالنجاح بلغت نهايتها قبل الأوان بانتهاء حياة عمر بصورة مفجعة . وكان حكمه الذي دام سنتين فقط في منتهى القصر فلم يتوفر له الوقت الكافي لترسيخ اصلاحاته . والحقيقة هي ان الوقت كان قصيرا جدا فلم تترك هذه الاصلاحات أي تأثير رئيس . والأسوأ من هذا كله ان الوقت كان قصيراً جدا لتغيير العادات السياسية عند الرجال الذين كانوا يحيطون بالآخرين من بني مروان . وكان رجاء ، حين قبل التسوية مع بني مروان ، قد راهن على طول حياة عمر بحيث يمكن مع الوقت إبعاد يزيد الثاني . ولكن الوقت لم يتح ذلك ، وخسر رجاء الرهان . ورقي يزيد الثاني عرش الخلافة ، وعادت القيسية الى الحكم رجعية حاقدة بعد مرور خمس سنوات على تشردها . وكان الوقت الباقي أمامها أقل من ثلاثين سنة من الحكم ثم انها ستنهار بعد ذلك امام ثورة تدعو الى انتهاج سياسات شديدة الشبه بسياسات عمر الثاني . وكثيرا ما يجري التلميح ، دون القول المباشر ، بأن سياسات القيسية كانت أكثر واقعية من سياسات عمر المثالي المتعصب . ومن الصعب علينا ان نرى كيف يمكن لأي كان ان يصل الى مثل هذا الاستنتاج . واذا كان النجاح محكاً صحيحاً للواقعية فان يزيد الثاني وانصار القيسية كانوا على هذا الأساس غير واقعيين . وايا كانت المبررات الدينية لسياسات عمر فانها كانت ذات مغزى سياسي جيد الى درجة ملحوظة . لقد أدرك عمر ان القوتين الصاعدتين في الامبراطورية كانتا الانصهار والرغبة بالسلام ، فعمد الى صياغة سياساته على هذا الأساس . وكانت النتيجة ان تمكن من تحقيق شيء لم يستطع اي مرواني آخر ان يحققه، أي أنه حكم الامبراطورية حتى انه وسع سلطاته ، بدون الجهاز القمعي الذي أقامه عبد الملك والحجاج . وبكلام موجز ، انه نجح بحكم

---

١) المصدر السابق، ص ٧٠

٢) المصدر السابق، ص ٨٤

الامبراطورية بالرضى والاقتناع ، وهو أمر لم يفعله أي خليفة منذ معاوية . لقد سارت سياساته سيراً حسناً ، وكان يمكن لها ان تحقق نجاحاً أكبر مع الوقت . اما وصفها من قبل البعض بأنها غير واقعية فلا يمكن ان يعزى إلا الى سوء فهم لتاريخ هذه الفترة .

في هذه الأثناء رقي يزيد الثاني الى منصب أمير المؤمنين ، وعادت القيسية معه الى السلطة[1] . وانزوى رجاء مكتفيا بما كان يتناوله من عطاء . وكان الشعور السياسي العنيف هو السائد في هذه الفترة . لقد فقدت القيسية مرة ما تمتعت به من سلطة خلال عشرين سنة ، وهي لا تنوي فقدها مرة ثانية . وقد ازدادت مرارة حقدها بسبب ما عانته من اذلال على أيدي سليمان وعمر الثاني واليمانية . كما انها رأت ان السياسات التي أقرها عبد الملك والحجاج موضع ازدراء ورفض علنيين ، وأنها هي بالذات كانت موضع ازدراء واحتقار ايضا . كان مسلمة أحد كبار قادة القيسية قد أهمل من قبل عمر الثاني وأقصي في عزلة مهينة . وقد أدت هذه الاهانات الى ازدياد مرارة الصراع الحزبي الذي بدأ آنذاك ، إذ أن قادة اليمانية لم يكونوا كرجاء راضين بخنوع بعودة التوسعيين المتطرفين . فرغم ان يزيد بن المهلب سقط من مركزه العالي الذي كان يحتله في عهد سليمان ، ورغم ان عمر الثاني سجنه طوال عهده لكن ذلك لم يغير من ولائه لمبادىء سليمان . وما ان سمع يزيد بن المهلب برقي يزيد الثاني الى العرش حتى خرج من السجن بكل بساطة وأعلن ثورة في البصرة[2] . وخلافا لسليمان وعمر الثاني اللذين كانا في وضع يمكنهما من مواصلة معارضتهما لسياسة عبد الملك والحجاج بوسائل مشروعة ، فان يزيد بن المهلب لم يكن لديه أي بديل آخر غير اللجوء الى الثورة المسلحة . وكانت غايته المعلنة ان « سياسة الحجاج ينبغي ان لا تفرض علينا من جديد »[3] .

من الخطأ ان نفسر هذه الثورة على انها مجرد صراع قبلي بين اليمانية والقيسية . ومن المؤكد ان هذا التفسير لا تؤيده مصادرنا . فبينما انضم ابناء قبائل من جميع البطون الى يزيد بن المهلب فإن أبناء قبائل ذات صلة قربى به من أزد وقفوا في وجهه[4] . والأهم

---

١) ابن خياط، تاريخ، جـ٢، ص ٣٤٠ ـ ٤
٢) الطبري، ٢، ص ١٣٥٩ ـ ٦١
٣) المصدر السابق، ص ١٣٩٨
٤) المصدر السابق، ١٣٨١ و ١٣٩٠

من ذلك كله من حيث انه نذير بتطورات لاحقة ، هو ان بعض القوات السورية في العراق وقفت الى جانب يزيد بن المهلب برغم ان شعاره كان « منع القوات السورية من وطء أراضينا »[1] .

وكسبت الثورة زخماً جديداً بعد استيلاء يزيد بن المهلب على البصرة وأسر واليها . لكن الحكومة المركزية تحركت بسرعة ونشاط ووضعت مسلمة المشهور على رأس جيش سوري كبير ليقضي على الذين قالوا « بالحؤول دون ان يطأ السوريون أرضنا » . وتمزق جيش يزيد بن المهلب وتفرق تاركا قائده صريعاً على أرض المعركة . ثم عين مسلمة والياً على العراق والشرق ، وراح يسحق ما تبقى من مراكز المقاومة واحداً بعد الآخر ، ويخرج أفراد اليمنية جميعا من مناصبهم ويعكس كل قرار كانوا قد اتخذوه[2] . وفي الوقت الذي تمكن فيه مسلمة من تسليم العراق المغلوب المسحوق الى خلفه عمر بن هبيرة كانت الحالة تبدو وكأن سليمان وعمرا لم يحكما أبدا . ففي عهد يزيد الثاني القصير (٧٢٠ ـ ٤م/١٠١ ـ ٥هـ) عاد السوريون الى واسط ، وأهين البربر واستخف بهم . وفقد المصريون عطاءهم ، وأهمل الاصلاح المالي ، واستؤنفت حروب الفتح مجددا . لقد كان انتصار القيسية كاملا ، لكنه تحقق على حساب احتمال نجاح بني مروان في تجنب الكارثة . وبعد ذلك لم تعد السياسة القيسية هي التي تذكر ، ولكن سياسات عمر الثاني هي التي كانت تذكر ، ثم صارت في النهاية تحكم الامبراطورية . ان سياسة القيسية هي التي اعلنها كل مؤرخ عباسي سياسة رديئة وبغيضة ، في حين تكونت حول عمر الثاني أسطورة معقدة جعلت منه شخصية كانت في مماته أشد رهبة منها في حياته ، أي المرواني الوحيد الصالح .

---

١) المصدر السابق، ص ١٣٨٢ ـ ٣ و ١٣٩٨

٢) المصدر السابق، ص ١٤١٦ ـ ١٨

الفصل الثامن

هشام - الحفاظ على الامبراطورية

فور وفاة يزيد الثاني بويع شقيقه هشام أميراً للمؤمنين . وهو الابن الرابع لعبد الملك . ويدل هذا الانتقال الهادىء دلالة أكيدة على انتصار التوسعيين وعلى تصميمهم على متابعة سياسات عبد الملك والحجاج التي أعيد فرضها بنجاح خلال عهد يزيد الثاني . وهذه كانت السياسة التي سيتبعها هشام رغم أن ظروفا في عهده كانت تجبره في بعض الأحيان على الانحراف والخضوع لقوى الانصهار . على ان هذا الانحراف كان يحدث بصورة موقتة ، وكان هشام يعود الى تنفيذ السياسات التوسعية بكل رضى وارتياح فور تلاشي الخطر الداهم . ومما يدل على مقدرته ومهارته كرجل دولة انه استطاع الاستمرار في الحكم مدة طويلة (٧٢٤ ـ ٤٣م/١٠٥ ـ ١٢٥هـ) واجه خلالها أشد الأخطار على جميع حدود الامبراطورية . وفي الداخل كان يحكم شعبا متناقض المصالح ، منقسما على نفسه منذ زمن طويل . وفي حين كانت هذه الصراعات الداخلية تتفاعل برفق ، فقد كان عليه ان يستخدم جميع الموارد المتوفرة لديه لانقاذ الامبراطورية بالذات من التمزق بفعل الأعداء الخارجيين . لقد نجح في هذه المهمة لكن أي حاكم مطلق حتى ولو كان مقتدراً كهشام ، لم يكن يستطيع ان يقاوم الضغط الهائل الذي عرّضته له أقسام قوية من رعاياه بينما هو بحاجة ماسة الى تأييدها . لقد استطاع احتواء هذه الضغوط الى حد ما ، ولكن « الفيضان » كان محتوما بعد وفاته .

نشأ المشكل الأول ، أو التهديد الأشد خطورة للامبراطورية في الواقع ، على الجبهة الشرقية القصوى . لقد كان من شأن استئناف حروب التوسع في آسيا الوسطى في عهد يزيد الثاني في عام ٧٢٣م/١٠٤هـ أن واجه مقاومة عنيدة من قوة بدو الترقش المتصاعدة . وتمكنت هذه القبائل بقيادة خان سولو (٧١٦م ـ ٣٨م) من تأكيد استقلالها وتحقيق سيطرتها على الأتراك الغربيين . ثم استطاعت بمساعدة الصينيين ان توطد مملكة

جديدة في حوض ايلي . وفي عام ٧٢٤م/١٠٦هـ أنزلت بالعرب في خراسان هزيمة مفجعة عرفت بيوم الظمأ . تلك كانت المرة الأولى التي اصطدم فيها العرب بجيوش الترقش بكامل قواتها ، ثم وقفوا بعد ذلك طوال ما يقرب من ١٥ عاما موقفا دفاعيا وهم يرغمون على التراجع عبر نهر جيحون بصورة تدريجية . ووقعت على هشام مسؤولية صد هذا العدو الخطر واستعادة مكانة العرب في خراسان . فبدأ بعزل عمر بن هبيرة الوالي الذي عينه يزيد الثاني على العراق والشرق ، وعين مكانه خالد بن عبدالله القسري . ولم يكن ذلك مجرد استبدال شخص بآخر لارضاء نزوة ، وإنما كان دلالة أكيدة على تحول رئيسي في السياسة في هذا الجزء من الامبراطورية . لقد كان عمر بن هبيرة عاملاً مجرباً ومخلصاً لآل مروان ، وفي الوقت ذاته ، تلميذاً أميناً من تلامذة الحجاج وشخصية قيسية بارزة . اما خالد القسري فهو ، من ناحية اخرى ، قائد معروف لليمنية في الامبراطورية برغم انه ذو انتساب قبلي لا أهمية له . لقد كان تعيينه اوضح اعلان ممكن عن تحول عن سياسة القيسية الصارمة المتصلبة الى الخطة اليمانية المعتدلة المرنة في العراق والشرق على الأقل . لقد كان هشام يعرف انه ليس لديه العدد الكافي من السوريين المستعدين المجهزين لتوجيههم الى خراسان لمواجهة الخطر الترقشي . وكان يعلم ان القوات اللازمة لذلك لا بد من تجنيدها من المناطق الشرقية بالذات . ومن أجل تحقيق هذا الهدف كان بحاجة الى تعاون تام من سكان الولايات ، من عرب وغير عرب على السواء . وكان خالد اليمني الميول ملائما للقيام بهذه المهمة الى أبعد حد . ثم عهد عند تعيينه الى شقيقه أسد بتنسيق سياساته وتطبيقها في الشرق .

ووصل أسد الى خراسان بدون جيش ، إلا أنه كان يحمل معه مخططا أثبت نجاحه في النهاية . كان هذا المخطط يهدف الى تأمين تعاون الهياطلة في وجه الترقش ، وهم أعداؤهم التقليديون . وكان هؤلاء الهياطلة يشكلون أكثرية السكان المحليين في إمارات طخارستان للشرق من الحدود الساسانية القديمة[١] . وكان قد تم اخضاعها نهائيا خلال ولاية قتيبة (٧٠٥ - ١٥م/٨٦ - ٩٦هـ) ، ونظمت في ما يمكن وصفه بمحميات حافظت على استقلالها الذاتي في ظل امرائها[٢] . والواقع ان هؤلاء الأمراء

---

١) M. A. Shaban, « The Political Geography of Khurasan and the East at the time of the Arab Conquest », *Minorsky's Memorial* volume, ed. C. E. Bosworth and J. Aubin, London, forthcoming

٢) Shaban, *The abbasid Revolution*, PP 66-7

كانوا أسياداً عسكريين يستطيعون ، اذا اتحدوا ، ان يحشدوا جيشاً كبيراً .

وفشلت محاولات أسد الأولى لعقد تحالف مع الهياطلة في وجه الترقش . ويبدو ان العرب لم يكونوا الحليف المغري ضد الترقش وهم الذين كانوا قد أنزلوا بهم هزيمة قاسية منذ وقت قصير جدا . يضاف الى ذلك أن العرب في خراسان لم يكونوا موحدين كلياً في تصميمهم على محاربة الغزاة الترقش . فمن ناحية كان بعض المقاتلة يزدادون تردداً في الانضمام الى الحملات العسكرية لا سيما في وجه مثل هذا العدو الرهيب كالترقش الذين كانوا ، حتى ذلك الوقت ، قد قصروا هجماتهم على بلاد السغد ؛ ومن ناحية ثانية كان المستعدون للانضمام الى القتال غير متحمسين للحلف المقترح مع الهياطلة . لقد كانوا يدركون ان مثل هذا التحالف يؤدي بالنهاية الى إفقادهم قوتهم ومكانتهم . ولعل مخاوفهم تزايدت حيال اتصالات أسد مع اليمنية من سكان الشرق المحليين . وكانت محاولاته لدمج الادارات المحلية في البنية العربية تمثل تهديداً اضافياً للمقاتلة الذين رأوا في هذه التدابير تنازلات للسكان المحليين . ومع ان سياسة أسد أثبتت في النهاية جدواها في وقف خطر الترقش والمحافظة على الحكم العربي في بلاد السغد، فان قسماً كبيراً من المقاتلة كانوا يقاومونها بضراوة . وذعر هشام بسبب هذا الانقسام الخطر في منطقة قتالية ، وأمر باستدعاء أسد ، وبإرسال والٍ جديد الى الشرق عام ٧٢٧م/١٠٩هـ . على رأس قوة سورية صغيرة لتساعد في تنفيذ سلطته[1] .

ومع ذلك فإن موقف العرب حيال الترقش كان يتدهور باستمرار . ثم أدى قلب سياسة أسد الى حمل أهل السغد على الوقوف بجانب العدو علنا . وأخيرا قرر هشام ان يقوم باعادة تنظيم الجيش العربي البالغ آنذاك نحو ٣٠٠٠٠ جندي في خراسان بصورة جذرية . وفي عام ٧٣٢م/١١٣هـ أبلغ واليه بتحديد عدد المتطوعين بـ ١٥٠٠٠ جندي فقط وبشطب اسماء الباقين من الديوان ، ففقد هؤلاء حقهم بالعطاء بسبب عدم استعدادهم للقيام بواجباتهم العسكرية . ولسد النقص الناجم عن هذا التخفيض الجذري في جيش خراسان ، بعث هشام بجيش جديد من ٢٠٠٠٠ مجند جديد من أبناء القبائل في العراق . ووصل هذا الجيش الجديد الى خراسان في السنة ذاتها .

ينبغي ان ندرك هنا أن هشاما قرر الرضوخ امام حركة الانصهار في هذه المنطقة ،

---

١) المصدر السابق، ص ١٠٧ - ٩

وبذلك أفسح في المجال امام الكثيرين من العرب في خراسان ان يستقروا وينصرفوا الى حياة هادئة ومسالمة . وللحؤول دون ازدياد تناقص العرب في الجيش ، ولتحطيم سيطرة المقاتلة القدماء على المنطقة ، قرر هشام ان يبقي الجيش القادم حديثاً بقرب الوالي في مرو ليكون قوة ضاربة جاهزة ، بينما وزع المقاتلة السابقين في خراسان في حاميات ترابط بصورة دائمة في مراكز حدودية لحماية خراسان من هجمات الترقش . وفي عام ٧٣٤م/١١٦هـ عمد ٤٠٠٠ رجل من أبناء القبائل المرابطين في جوزجان في قلب بلاد الهياطلة الى اعلان ثورة بقيادة الحارث بن سريج . وكان هؤلاء المتمردين يشكلون تهديداً خطراً من الداخل لا سيما وقد رفض رفاقهم العرب ان يحاربوهم . واصطيادا في الماء العكر وقف الهياطلة بجانب المتمردين ولعلهم كانوا يأملون ان ينشئوا إمارة عربية في خراسان تخضع لسيطرتهم . وحيال عجز المفاوضات والحرب عن معالجة الوضع كان على هشام ان يعود في عام ٧٣٥م/١١٧هـ الى أسد لانقاذ الشرق .

استغل أسد علاقاته الشخصية بقادة الجنود القادمين من العراق حديثا ، وتمكن من اقناعهم بمحاربة الحارث المتمرد الذي هزم في النهاية وفرّ وانضم الى العدو الترقشي . هنا كانت قوة أسد قد زادت كثيراً ، وتمكن بالنهاية من اقناع الهياطلة بالانضمام اليه في وجه عدوهم المشترك . وفي عام ٧٣٧م/١١٩هـ أنزل الحليفان هزيمة ساحقة بالترقش . وكانت معركة خراسان هذه بداية تفكك قوة الترقش ، ونقطة تحول في مصير العرب في آسيا الوسطى .

ولما توفي أسد بعد ذلك بقليل ، في عام ٧٣٨م/١٢٠هـ كان العرب في خراسان قد تخلصوا من خطر الترقش ، لكنهم كانوا منقسمين فيما بينهم الى أربعة أحزاب متمايزة واضحة . كان هنالك ما ندعوه بلغة العصر اليمين الأقصى ، وهو أقلية يمثلها الحارث . وقد فضلت اللجوء الى الترقش على المجازفة باحتمال فقد امتيازاتها بصفتها الجماعة التي فتحت الولاية . وكان الحزب الثاني هو الجناح اليميني الممثل على أفضل وجه بنصر بن سيار ، وهو محارب قديم في خراسان سنتحدث عنه فيما بعد . ضم هذا الجناح الذي يشار اليه بالمضرية ، رجال قبائل ترعرعوا في ظل سياسة الحجاج التوسعية ، وظنوا ان قوتهم كافية لاستعادة السيطرة على الولاية لصالحهم . والى يسار هؤلاء كان أنصار اليمانية أو الحزب المعتدل ، وهم القادمون الجدد بقيادة جديع بن علي الكرماني الذي كان على وفاق تام مع سياسة أسد . اما اليسار فكان مؤلفا من

العرب الذي اندمجوا ببيئتهم وفضلوا الاستيطان والاستقرار ، وهم الذين سرعان ما تحولوا الى ثوار . وكان الشعب الايراني في هذه المنطقة الشاسعة مقسماً الى مجموعات عديدة تراوحت مواقفها بين العداء الكامل للحكام العرب ، كأصحاب الأراضي الواسعة في بلاد السغد، والتعاون الكامل ، كنبلاء واحة مرو المحليين[1] .

ومن الواضح ان خالدا نجح في العراق ، كما يتجلى من الاستقرار الملحوظ الذي استمر في الولاية طيلة عهده . لقد أنجز مشاريع ري كثيرة ، واستصلح أراضٍ واسعة للزراعة على حساب الخزينة . واذا كان قد أثرى شخصياً الى حد كبير ، فإنَّ المنطقة بوجه عام ، استفادت من هذا الانفاق المثمر . يضاف الى ذلك ان هشاما سمح باعادة توظيف القسم الأكبر من دخل الولاية في الولاية ذاتها[2] . وكان خالد بحاجة الى كل ما يتوفر من الأيدي العاملة لهذه المشاريع الزراعية ، ولذلك كان موافقاً كل الموافقة على مواصلة تسريح القوات العسكرية في العراق . ولا بد ان إرسال عشرين ألف رجل من العراق الى خراسان في عام ٧٣٢م/١١٣هـ كان استنزافاً للأيدي العاملة التي كان بحاجة ماسة اليها ، غير ان العديد من هؤلاء الرجال كانوا في الغالب من مناطق تابعة للعراق كما يمكن ان نلحظ من اسم جديع الكرماني . والواقع ان لدينا روايات في هذا الوقت عن عصاة « خوارج » في العراق تذمروا من رفض تسجيلهم في الديوان بقصد إرسالهم في حملات عسكرية[3] .

وبموجب السياسة اليمانية العامة كان خالد شديد التساهل مع سكان العراق الأصليين ، من مسلمين وغير مسلمين . وأدى موقفه هذا ، بالاضافة الى كون أمه نصرانية بقيت على دينها ولم تعتنق الاسلام ، الى المبالغة في مهاجمته من قبل خصومه . ولا بد ان خالدا كان شديد الاخلاص لوالدته حتى انه بنى لها كنيسة . وفي عام ٧٣٧م/١١٩هـ بدأت مجموعة صغيرة من جيش الجزيرة المجاورة حركة « خوارج » خاصة بها بغية قتل خالد الذي كان يعطف على غير المسلمين[4] . وفي الوقت ذاته تقريبا جرى اعتقال المغيرة بن سعيد وبيان بن سمعان وهما محرضان قاما بحركة شغب باسم

---

١) المصدر السابق، ص ٩٥ ـ ٩.
٢) الطبري ، ٢ ، ص ١٦٤٢ و ١٦٥٥ و ١٦٥٨ .
٣) المصدر السابق، ص ١٦٣٣ .
٤) المصدر السابق، ص ١٦٢٣ ؛ وابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ١٦٧ .

الشيعة المتطرفة[١] ، وأعدما في الكوفة بناء على أوامر خالد . واضح انه لم يكن وراءهما عدد كبير من المؤيدين ولكن إعدامهما الذي لم يكن ضروريا يدل على شدة تشنج السلطات حيال مثل هذا التحريض . لا بد ان السلطات أدركت مدى حراجة الحالة فشعرت انه يجب عليها ان تضرب بيد من حديد لحماية الاستقرار الحديث في العراق . وكان على هشام نفسه ان يعامل محرضين آخرين بمثل هذه الطريقة . فقد ألقي القبض على الجعد بن درهم وغيلان الدمشقي بتهمة الدعوة للبدع ، وأعدما ايضا . وقد يكون إعدام هذين الرجلين تم تنفيساً للاستياء الشعبي . ولعل تهم الهرطقة التي وجهت اليهما كانت لاثارة الرأي العام دعماً للنظام . على ان الاعدام يشير الى اتجاه جديد بالنسبة لسلطة أمير المؤمنين . لقد كان أمير المؤمنين يأخذ على عاتقه سلطة معاقبة الجرائم السياسية بالموت . أما الآن فقد عين نفسه حامياً للدين ثم بدأ يعطي نفسه بعض السلطة الدينية بالنسبة لقمع الهرطقة على الأقل[٢] .

ما إن زال خطر الترقش حتى ارتكب هشام خطأ في منتهى الخطورة بالنسبة للعراق والشرق . فقدعين نصراً بن سيار واليا على الشرق وهو توسعي متشدد من مضر اليمانية . وعين على العراق قيسيا هو يوسف بن عمر الثقفي ، ابن عم الحجاج وتلميذه بدلا من خالد اليماني الاتجاه . أظهرت هذه التعيينات تحولاً عاماً نحو اليمين وبقيت دوافعها مثارا للتكهن . ولعل هشاما بالغ في تقدير قوة المضرية في خراسان . وقد ظن بعد زوال خطر الترقش ان الاستقرار في الولاية يمكن تحقيقه على أفضل وجه بالعودة الى السياسة التوسعية[٣] . ثم انه كان بحاجة ماسة الى المال لتمويل الحملات على جبهات اخرى وقد كان يأمل ان تعود الفتوحات الجديدة بمداخيل جديدة . ان تعيين يوسف بن عمر والياً على العراق تأكيد على هذه الغاية بالذات . كان يوسف ، خلافا لخالد ، غير متساهل ابدا مع الرعية ، وكان يفرض أقصى ما يستطيعه من الضرائب . كذلك أوقف كل انفاق على المشاريع الزراعية ، وبذلك كان أكثر قدرة على تلبية طلبات الخزينة المركزية[٤] .

---

١) الطبري، جـ ٢، ١٦١٩ ـ ٢١ .

٢) المصدر السابق، ص ١٧٣٣؛ وابن الأثير، الكامل، جـ ٥، ص ١٩٧؛ والذهبي، تاريخ، جـ ٤، ص ٢٨٩ .

٣) الطبري، جـ ٢، ص ١٦٥٩ ـ ٦٣ .

٤) المصدر السابق، ص ١٧٧٨ ـ ٩ .

وفي الشرق لم تقع اضطرابات كبيرة ، حتى وفاة هشام على الأقل . اما في العراق فقد وقعت ثورة مسلحة في الكوفة . كانت هذه الثورة بقيادة زيد حفيد الحسين . وكانت بالطبع حركة شيعية إلا أنها لم تكن مدعومة من قبل جميع شيعة الكوفة الذين كانوا قد أخذوا يعقدون الآمال على وصول أحد المتحدرين من الرسول الى منصب إمام أمير للمؤمنين . والظاهر ان زيدا لم يبذل من الوعود مقدار ما بذله منافسوه من أبناء عمومته . لقد كان واقعياً في نظرته[1] ، لكن واقعيته هذه لم تجده نفعا . فقد بالغ كثيرا بمدى دعمه في الكوفة . كان عدد انصاره حين أعلن ثورته ٢١٨ رجلاً بالضبط[2] . ولما كان الوالي على معرفة سابقة بتحركاته ، فان مهمة القوات السورية كانت سهلة . فقتل زيد ، وفر ابنه يحيى الى الشرق حيث قتل بسهولة ايضا . واذا كانت هذه الثورة لم تسفر عن نتيجة خطيرة بالنسبة للحكومة فانها كانت دليلا واضحاً على الوضع القلق في العراق وعلى تشنج الرعية والحكام معاً .

كان الوضع في سورية والجزيرة وثيق الصلة بالخطر الخارجي الآخر ، أي بغزوات الخزر على حدود أذربيجان وارمينيا . وفي عام ٧٢٢م/١٠٤هـ ، مني الجيش العربي على هذه الجبهة بهزيمة شنعاء لكنه عزز بقوات من سورية على الفور فتمكن من صد غزوات الخزر[3] . وكان جيش الجزيرة الصغير نسبيا مسؤولا عن هذه الجبهة بالدرجة الأولى ، بينما كان قسم آخرمن الجيش السوري أكبر منه حجماً الى حد كبير ، مسؤولاً عن الجبهة البيزنطية . اما الآن وقد خف النشاط على الجبهة البيزنطية ، لا سيما بعد فشل الهجوم العربي على القسطنطينية عام ٧١٧م/٩٨هـ ، فقد صارت جبهة الخزر ميدان النشاط العربي الرئيسي . وقام الخزر بردة فعل عنيفة أدت الى ردة فعل عربية أشد عنفاً ، والى ارسال قوات سورية الى الجبهة . فقد وجه هشام المزيد من السوريين بقيادة أخيه مسلمة القوي لمواجهة الخزر . ولكن الوضع العربي لم يتحسن أولا لأن مسلمة الذي لم يتمتع بصحة جيدة في أي وقت من الأوقات ، لا تمكنه من القيام بمثل هذه المهمة ، وثانيا لأن السوريين لم يكونوا مصممين على القتال . ثم ان حملة رئيسة أعدت في عام

---

١) المصدر السابق، ص ١٧٠٠ .
٢) المصدر السابق، ص ١٦٩٨ ـ ٩ و ١٧٠٢ .
٣) ابن الأثير، الكامل، جـ ٥، ص ٧٩ و ٨٣ ـ ٥؛ وابن اعثم، فتوح، جـ ٢، ص ١٧٩ أ و ١٨٤ ب و ١٨٥ أ و ١٩٣أ.

٧٣٠م/١١٢هـ بقيادة قائد جديد منيت بكارثة كاملة وهدد الخزر قلب الجزيرة بالذات على مسافة غير بعيدة من الموصل . واستمرت الغزوات الخزرية طوال الشتاء والربيع التاليين من عام ٧٣٢م/١١٣هـ . وتمكن العرب من المقاومة بصعوبة[1] .

كان هشام بحاجة ماسة الى قوات جديدة لصد الخزر . وفي عام ٧٣٢م/١١٤هـ عهد بالجزيرة وأرمينيا وأذربيجان الى ابن عمه مروان بن محمد وهو مطلع على قضايا هذه المناطق ، وقائد عسكري قادر . وأطلق هشام يده في تجنيد ما أمكن من رجال الجزيرة وتسجيلهم في الديوان[2] . وكان المقصود من هذا التدبير ايضا حل مشكلة جديدة خاصة بهذه المنطقة هي مشكلة الازدحام السكاني . وقد لاحظنا من قبل ان النزوح الى الجزيرة تزايد نتيجة لاخماد الانتفاضات المتعددة ولتسريح القوات المسلحة في العراق[3] . ومع ان مصادرنا لا تعطينا شرحاً واضحاً لكيفية هذا النزوح ، فقد كانت في الجزيرة في هذا الوقت أعداد كبيرة جدا من العرب . لقد كان فيها بالطبع عرب قبل الاسلام . إن بني تغلب الذين ظلوا مسيحيين عند الفتح أخذوا يعتنقون الاسلام بسرعة ، وكانوا بالطبع جزءا من السكان العرب في منطقة صارت تعرف بديار ربيعة . وكانت الموصل مركز هذه المنطقة التي شكلت القسم الأكبر من الولاية . ان هذه المنطقة من الجزيرة هي التي كانت في السابق جزءا من الامبراطورية الساسانية كما كانت في الغالب ساحة قتال ضد البيزنطيين . اما بعد الفتح العربي فقد وفرت هذه المنطقة وأذربيجان المجاورة لها مجالات كبيرة للنازحين العرب . ان الحاميات العربية التي كانت في أردبيل في أذربيجان وفي الموصل لم تكن كبيرة الحجم في اي وقت من الأوقات . ان ارمينيا كانت تقي هذه المناطق من أي غزوات خارجية من الشمال ، لذلك لم يكن ضروريا وجود حاميات كبيرة . وهذا ما سمح للعرب الذين انتقلوا الى هذه المنطقة بالاستقرار والانصراف الى الزراعة وتربية الماشية[4] . ولم يكن هؤلاء العرب من ربيعة وحسب إذ أننا نعلم بالتأكيد انه كان بينهم عرب من الأزد أيضا[5] . وصارت هذه

---

١) الطبري، ٢، ص ١٥٠٦ و ١٥٣٠ ـ ١ و ١٥٦٠ ؛ وابن الأثير، الكامل، جـ ٥، ص ٩٤ و ١٠٠ و ١٠٢ و ١١٧ ـ ١٢٠ و ١٢٩ ـ ١٣٠ ؛ وابن خياط، تاريخ، جـ ٢، ص ٣٥٢، و ٣٥٣ و ٣٥٤ و ٣٥٧ و ٣٥٨

٢) ابن الأثير، الكامل، جـ ٥، ص ١٣٢ ؛ وابن اعثم، فتوح، جـ ٢، ص ١٩٣ ب.

٣) انظر الفصل السادس .

٤) ابن خياط، تاريخ، ٢ ، ص ٣٩٧؛ والبلاذري، فتوح، ص ٣٢٩.

اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢٧٢ ؛ وابن الأثير، الكامل، جـ ٥، ص ٥٨ ؛ وابو زكريا الأزدي ، تاريخ =

المنطقة تعرف بديار ربيعة لأن بني ربيعة كانوا يشكلون القسم الأكبر من سكانها لا سيما وبنو تغلب هم من بني ربيعة ، ولأن بطونا أخرى من ربيعة كانت تنزح اليها ايضا . ثم ان هؤلاء السكان كانوا يتزايدون بالطبع نتيجة لحياتهم السلمية وازدهارهم النسبي .

كانت الأنحاء الشمالية من هذه الولاية تعرف بديار بكر . وهي تتركز حول آمد ، وتتألف من مناطق كانت خاضعة لبيزنطية من قبل ، بالاضافة الى بقاع أخرى في جنوبي ارمينيا . وكان الحد الشمالي الغربي لهذه المنطقة بين العرب والبيزنطيين يتغير تبعاً لقوة الغزوات العربية السنوية والمقاومة البيزنطية . وكان جبناء القبائل التي استوطنت هذه المنطقة ينتسبون الى بني بكر ، وهم ايضا فرع من ربيعة غير انهم لم يكونوا في الغالب اعضاء في الديوان برغم انهم كانوا يشتركون في الحملات الصيفية أملا بالحصول على مغانم . يضاف الى ذلك ان حاميات صغيرة من الأفراد المسجلين في الديوان كانت ترابط في بعض المعاقل البيزنطية السابقة للاحتفاظ بها للحملات التالية[1] .

وتقع ديار مضر في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة ، وهي منطقة الحدود البيزنطية الشرقية سابقاً . وكان الكثير من مدن هذه المنطقة معاقل محصنة ، ثم ظلت كذلك في ظل العرب . وكانت الرقة ثم حران النقطتين المركزيتين لهذه المنطقة . وكان أبناء القبائل العربية هنا من قيس ومن قبائل مضر ذات القربى بها . وكانت غالبية هؤلاء من الفاتحين الأوائل لهذه المنطقة وتشكل القسم الأكبر من جيش الجزيرة . ولا شك ان أفراد هذا الجيش كانوا أعضاء في الديوان[2] . ثم ان نشاطاتهم العسكرية اقتصرت بالدرجة الأولى على القيام بحملات سنوية في القفقاس ليعودوا بعدها الى مدنهم الزاهرة حيث كانت التجارة تتسع بسرعة . وكانت هذه الترتيبات مرضية لهم . إلا أنهم انقلبوا أنصاراً أوفياء لبني مروان بعد معارضتهم للأمويين في البداية لفتح منطقتهم امام النزوح المتزايد . ومن المؤكد أنهم أيدوا سياستهم التوسعية . ولا ريب أنهم صاروا الممثلين الحقيقيين لطبقة المقاتلة العربية العسكرية في الولاية . ومن هؤلاء أخذ حزب قيس ومضر أسمه . ومع ذلك فقد كانت لهم مشاكل ثانوية ، كما أنهم كانوا يتذمرون من

= الموصل، جـ ٢، تحقيق أ. حبيبة، القاهرة، ١٩٦٧، ص ١٠.

١) البلاذري، فتوح، ص ١٨٣ ـ ٥ و ١٨٨ .

٢) المصدر السابق، ص ١٧٢ و ١٧٥ و ١٧٦ و ١٧٧ و ١٧٨ .

مشكلة الازدحام السكاني . ثم انضم اليهم في النهاية أبناء قبائل نسيبة لهم من الحجاز . ومما له مغزاه ان هؤلاء الجدد لم يجندوا في الجيش ، ولم يسمح لهم ان يستقروا في المدن ، فاستوطنوا الصحراء العراقية السورية المجاورة . وفي عام ٧٢٧م/١٠٩هـ أصدر هشام أمراً قضى باعادة توطين بعض هذه القبائل في مصر . وبدأ بتوطين ٤٠٠ عائلة في بلبيس شرقي دلتا النيل ومنحوا عطاء من ديوان مصر بالاضافة الى هبات من الأراضي المستصلحة والمراعي . ثم منحوا مساعدات مالية من خزينة مصر لتمكينهم من الاستيطان . وسرعان ما انضمت اليهم عائلات اخرى من قبائل ذات قربى بهم حيث ان العائلات التي أعيد توطينها في بلبيس بلغت في نهاية عهد هشام ٣٠٠٠ عائلة على الأقل . ومما هو مثير للسخرية ان هذه العائلات تحولت في النهاية الى مصدر للمشاكل الكبيرة للحكومة في مصر . إلا أن هذه العائلات حققت في هذه الأثناء ازدهارا واسعا وانصرفت الى تربية الخيل ونقل المواد الغذائية الى البحر الأحمر مما أمّن للفرد منها ، على ما يروى لنا ، دخلا شهريا كبيرا قيمته عشرة دنانير[١] . ان هذا مثل بارز على مدى ازدحام السكان في الجزيرة وعلى التدابير الجوهرية التي كانت الحكومة المركزية على استعداد لاتخاذها لتخفيف هذه الضغوط .

وواجه مروان بن محمد متاعب ضئيلة عند انشاء جيش أكبر من ذي قبل في مناطق الجزيرة كلها . وفي عام ٧٣٧/-١١٩هـ مني الخزر الأشداء بهزيمة تامة وأخرجوا من أرمينيا وأذربيجان[٢] . وكان على هشام ايضا ان يوجه اهتمامه الى البيزنطيين الذين اغتنموا فرصة الغزوات الخزرية لزيادة الضغط على حدودهم مع العرب . كان البيزنطيون قد تمكنوا في عام ٧٣١م/١١٣هـ ، في ذروة خطر الخزر ، أن ينزلوا هزيمة هامة بالعرب[٣] . ورد هشام على ذلك بتوجيه حملتين صيفيتين ، لا حملة واحدة كالمعتاد ، الى الاراضي البيزنطية . وكانت احدى الحملتين على مسؤولية القوات السورية بقيادة اثنين من أبنائه ، هما معاوية ومحمد وكان عليها ان تتقدم على شاطىء البحر الأبيض المتوسط[٤] . اما الحملة الثانية فكانت بقيادة سليمان بن هشام ، وكان

---

١) الازدي، للموصل، ص ٣١؛ والكندي، الولاة، ص ٧٦ ـ ٧.

٢) ابن الأثير، الكامل، جـ٥، ص ١٣٢ و ١٣٧ و ١٦٠ و ١٨٠؛ وابن اعثم، فتوح، جـ ٢، ص ١٩٣ ب و ١٩٧ ب.

٣) الذهبي، تاريخ، جـ ٤، ص ٢٢٧.

٤) الطبري، ٢ ص ١٥٦٠ و ١٥٦٢ و ١٥٦٤ و ١٥٧٣ و ١٥٨٨ و ١٧٢٨؛ وابن خياط، تاريخ، جـ ٢، ص=

عليها ان تزحف من الشمال الغربي من الجزيرة الى المنطقة الشرقية من الأراضي البيزنطية[1] . وكانت هذه الحملة هي الأهم بين الحملتين بسبب تركيب قواتها . ونحن نعرف ان جميع العرب الموجودين في الجزيرة كانوا قد أرسلوا لمواجهة خطر الخزر ، ولكن هذا الجيش حشد في الرقة حيث كان سليمان هو المسؤول . ومن أجل إثارة حماس الجيش بادر هشام نفسه الى الرقة مستلا سيفه[2] . كذلك نعلم من نشاطات سليمان التالية ، بعد سنوات قليلة من وفاة والده هشام ، ان اتباعه بلغوا نحو ٥٠٠٠ رجل ظلوا على ولائهم له شخصيا طوال هذه السنوات المضطربة . ويشار اليهم في مصادرنا بالذكوانية، أي أتباع ذكوان ، مولى سليمان ، ثم ان هؤلاء الانصار كانوا من الموالي أيضا[3] . والاستنتاج الواضح من هذا هو ان هشاما أجاز ، في جهوده اليائسة لمواجهة خطر الخزر والبيزنطيين ، تجنيد الذين اعتنقوا الاسلام من سكان الجزيرة المحليين لتكوين ما يمكن تسميته بالجيش الخاص . ولعل هؤلاء الجنود لم يكونوا مسجلين بهذه الصفة في الديوان ، بل كانوا يتناولون عطاء بصورة غير مباشرة من خزينة الدولة على أساس تسوية خاصة مع سليمان[4] . ومن أجل المساعدة في تجنيد هؤلاء الموالي قام هشام بخطوته المثيرة غير المألوفة في الرقة .

هنالك خطوة أخرى هامة بالنسبة للسكان غير العرب تم اتخاذها في الموصل الذي فصلت خصيصا عن ولاية مروان في أرمينيا وأذربيجان والجزيرة . هنا عيّن أحد أنسباء هشام واليا على هذا المركز المدني النامي في عام ٧٢٤م/١٠٦هـ مع أن مروان نفسه كان والياً عليه قبل سنتين . وكانت المهمة الأساسية لوالي الموصل الجديد إنشاء مشروع رئيسي لجر المياه عبر المدينة ، وهو مشروع مكون من حفر قناة متفرعة من نهر دجلة ، مارة في المدينة ، يبنى عليها ١٨ طاحونة كلفتها ثمانية ملايين درهم . وتم إنجاز المشروع بعد ١٥ سنة في عام ٧٣٩م/١٢١هـ . ومما يذكر ان عدد العاملين فيه كان نحو ٥٠٠٠

= ٣٦٤ و ٣٦٩؛ وابن الأثير، الكامل، جـ ٥، ص ١٣٧ و ١٤٥ .

١) الطبري، ٢، ص ١٥٦١ و ١٥٧٣ و ١٥٨٨ و ١٦٣٥ و ١٧٢٧؛ وابن خياط، تاريخ، جـ ٢، ص ٣٦٠ و ٣٦٤ و ٣٦٥ و ٣٦٧ و ٣٦٩.

٢) الأزدي، الموصل، ص ٤٠ و ٤٣؛ والبلاذري، فتوح، ص ١٨٦ .

٣) الأزدي، الموصل، ص ٧٠؛ الطبري، ٢، ص ١٨٧٠ و ١٨٩٢ و ١٩٠٩.

٤) جرت العادة قبل عمر الثاني ان يمنح ابناء آل مروان عطاء لحرسهم الخاص. انظر ابن عبد الحكم، سيرة عمر، ص ١٥٢.

رجل[1] . وما يؤكد الأهمية التي كانت معلقة على هذا المشروع انه نفذ في وقت كانت الخزينة فيه رازحة تحت ضغط مواجهة الأخطار الخارجية . ولا بد ان هشاما أدرك تأثيرات الازدحام السكاني في هذه المنطقة ، فحاول معالجة الموقف بمشروع انتاجي طويل المدى يحسن مجالات استخدام السكان المحليين على الأقل .

وفي سورية اقتصر عمل الجيش على القيام بالحملة الصيفية على شاطيء البحر الأبيض المتوسط وعلى تناوب الحماية في العراق . وحين طلب والي السند على الحدود الهندية دعما له في عام ٧٣٧م/١١٩هـ لم يكن هنالك غير ٦٠٠ سوري فقط لارسالهم اليه ، ولكن بعد تردد ومعارضة[2] . بالطبع كانت هنالك بعض القوات السورية في شمالي أفريقيا وفي اسبانيا ، ولكن هذه المنطقة سرعان ما تحولت الى ميدان نشاط رئيسي للجيش السوري . لنأخذ مصر أولاً : مع ان هذه الولاية كانت أكثر أنحاء الامبراطورية هدوءا فإن دلائل الاضطراب كانت قد أخذت تظهر في عهد هشام . كانت البلاد بصورة عامة كثيفة السكان كما كان هنالك طلب فعلي على الأراضي برغم ما كان فيها من جيوب صغيرة قليلة السكان مثل بلبيس . ونجم عن هذه الحاجة الى الأرض ان طلب من هشام في عام ٧٢٥م/١٠٧هـ السماح بالبناء على الأراضي المستصلحة حين ينخفض النيل عند مصب فرع الدلتا الشرقي[3] . وفي السنة عينها نسمع بأول ثورة للمصريين المحليين منذ الفتح نتيجة لزيادة ٥٪ على جميع الضرائب بناء على نصيحة من والي مصر ومدير شؤونه المالية . اعترض أقباط دمياط بصورة خاصة ، وكان لا بد من إرسال قوات اضافية لاخماد انتفاضة دامت ثلاثة أشهر[4] . وهنالك تدبير آخر لم يرق للسكان العرب وهو اعتماد مكيال جديد للحبوب أدى الى تخفيض قيمة الحبوب المخصصة للعرب الى جانب عطاءهم . ورفض هؤلاء استعمال هذه المكاييل الجديدة وحطموها . ورد هشام على ذلك بأن أمر بتخفيض مباشر لكمية الحبوب من ١٢ أردبا الى عشرة أرادب . فأدى هذا التدبير الى اعتراضات عنيفة حتى ان

---

١) الأزدي، الموصل، ص ١٨ و ٢٤ و ٢٦ و ٣٢ و ٤٣ .

٢) الطبري، ٢، ص ١٦٢٤؛ وابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ١٥٦

٣) الكندي، ، الولاة، ص ٧٤.

٤) المصدر السابق، ص ٧٣ ـ ٤

هشاما اضطر في عام ٧٤٢م/١٢٤هـ الى الأمر باعطائهم الكمية المقررة لهم سابقا بكاملها[١] .

وفي عهد هشام كانت البحرية المصرية لا تزال ناشطة ولو الى درجة أدنى مما كانت عليها من قبل . ولا إشارة لدينا إلا إلى هزيمة واحدة أنزلها البيزنطيون بها في القسم الشرقي من البحر الأبيض المتوسط في عام ٧٣٦م/١١٨هـ في الغالب[١] . من المدهش حقا ان بحرية أفريقيا الشمالية في غربي البحر الابيض المتوسط كانت آنذاك منهمكة بنشاط في غزوات متتالية (٧٣٤ ـ ٤٠م/١١٦ ـ ٢٢هـ) على صقلية وسردينيا[٢] . وبالاضافة الى ان هذه العمليات البحرية حققت نجاحاً بارزاً فإنها كانت مؤشراً الى ميدان جديد لنشاط عسكري باهظ النفقات . والمعروف جيدا ان العرب بلغوا الحد الأقصى في أوروبا في عام ٧٣٢م/١١٤هـ حين هزمهم شارل مارتيل في معركة بلاط الشهداء (بواتيه) . مرة اخرى أثبتت الجبال انها عقبة حقيقية في طريق الجيوش العربية . ولم تكن جبال البيرينيه لتشكل أي استثناء لهذه القاعدة . وهنا يجب ان نلحظ ان البربر كانوا يشكلون الغالبية الكبرى في الجيوش العربية التي اجتازت البحر الى اسبانيا عام ٧١١م/٩٤هـ وتمكنت بالفعل في حملتها الأولى من تحطيم القوات الرئيسة للقوط الغربيين . وفي السنة التالية لحق بها جيش سوري وأنجز فتح شبه الجزيرة بكاملها[٣] .

اتجهت قوات البربر نحو الاستقرار في المناطق المغلوبة والتمتع بثمار فتوحاتها . ومع أن أعداداً كبيرة من أقارب أفرادها انضمت اليهم بعد وقت قصير ، فان اثرها في الحملات اللاحقة ضئيل جدا . لقد كانت القوات السورية التي اعتبرت نفسها في حملة طويلة هي التي تقوم بهذه الحملات بالدرجة الأولى . وكانت محاولاتها المتكررة لترسيخ أقدامها عبر جبال البيرينيه ابتداء من عام ٧١٨/١٠٠ حتى هزيمة عام ٧٣٢/١١٤ غير

---

١) المصدر السابق، ص ٧٨ و ٨٢.
٢) المصدر السابق، ص ٧٩؛ والطبري، ٢، ص ١٤٩٥ و ١٥٢٦.
٣) ابن الأثير، الكامل، ص ١٣٧ و ١٤١.
٤) الطبري، ٢، ص ١٢٣٥ و ١٢٥٣ و ١٢٦٧ و ١٢٧١؛ وابن الأثير، الكامل، جـ ٤، ص ٤٤٧، وابن عبد الحكم، فتوح، مصر، ص ٢٠٤ ـ ١٠.

ناجحة . وبعد هذا المنعطف الحاسم للأحداث بدأت الحكومة المركزية تفكر على اساس توطين قوات سورية في اسبانيا . ان كثرة توالي القادة السوريين كولاة ونواب ولاة في اسبانيا تدل على تغيير متواصل للقوات السورية هناك[1] . ومن الهام ان نذكر هنا ان البربر كانوا يستقرون بشكل متزايد في المناطق المفتوحة باعتبارهم الفاتحين الاصليين لها ، كما كانوا بالطبع يستقرون في أفضل المواقع . وفي هذه الحالة كان التفكير بتوطين السوريين يواجه صعوبتين رئيستين ، أولاهما اختيار مكان التوطين ، وثانيتهما كيفية وقف تدفق البربر على اسبانيا . كانت القضية الأولى برغم صعوبتها وبرغم ما تثيره من احتكاك قوي بين السوريين والبربر ، غير خطيرة كالقضية الثانية في نتائجها المباشرة . وما إن حاول نائب الوالي في طنجة في عام ٧٣٩م/١٢٢هـ ان يمنع البربر من الانتقال الى اسبانيا حتى قامت ثورة فورية انتشرت بسرعة النيران في أفريقيا الشمالية وهددت وضع العرب فيها تهديدا خطيرا[2] . وطبيعي ان تكون هنالك أسباب عميقة للاستياء في صفوف البربر لكي تمتد هذه الثورة بمثل هذه السرعة . وهنا ينبغي ان نذكر ان البربر كانوا قد منحوا منذ الفتح ، خلافا لجميع الشعوب الأخرى المغلوبة ، منزلة مساوية للعرب بمجرد اعتناقهم الاسلام وانخراطهم في الجيوش العربية . ثم كانت محاولات حرمانهم من بعض الامتيازات الممنوحة لهم قد فرضت على عمر الثاني ان يتدخل لمصلحتهم كما أدت بالنتيجة الى اغتيال الوالي العربي في عهد الوليد الثاني[3] . يضاف الى ذلك ان النفقات الكبيرة على العمليات البحرية من افريقيا الشمالية أدت الى فرض ضرائب جديدة على البربر المحليين لتخفيف الضغط على الخزينة . واخيرا جاءت هذه المحاولة لتجريدهم من ثمار فتوحاتهم لمصلحة مسلمين أمثالهم ، هم السوريون في اسبانيا . وبلغت ثورتهم مدى واسعا حتى ان هشاما اضطر في عام ٧٤٠م/١٢٣هـ الى ارسال جميع القوات السورية المتوفرة لديه لانقاذ المنطقة بكاملها[4] .

كانت هذه الفترة في أفريقيا الشمالية واسبانيا فترة فوضى تقريبا . وتطورت ثورة البربر الى حركة انفصالية تحت لواء الخوارج حتى ان البربر بايعوا أميرا للمؤمنين

---

١) ابن الأثير، الكامل، جـ ٥، ص ٣٧٣ ـ ٤ .
٢) المصدر السابق، ص ١٢٢ ؛ وابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٢١٧ ـ ١٨ .
٣) انظر الفصل السابع
٤) ابن خلدون، العبر، جـ ٦، ص ١١٠ ـ ١١

منهم[1] . وكانت حركة الخوارج هذه في صفوف البربر وحدهم ، غير عربية على الاطلاق ، كما كانت الاولى من نوعها في الامبراطورية . ومع انها أعطيت اسم الأباضية فانها لا علاقة لها البتة بحركة الخوارج التي تحمل الاسم ذاته في شرقي شبه الجزيرة العربية . ان كل محاولة للربط بين الحركتين لا تقوم على أي أساس ، ولا تؤيدها مصادرنا . ان الدلائل المتوفرة في ما يسمى بالمصادر الأباضية في عصور لاحقة يجب ان لا تؤخذ بجدية لأن هذه المصادر هي ، على ما هو واضح ، تصوير رومانطيقي مبالغ فيه لتاريخ فئة ضئيلة الأهمية[2] . الواقع ان ضآلة أهميتها هي السبب الوحيد لاستمرار وجودها حتى الآن في مناطق معزولة . ان أباضية شرقي الجزيرة العربية هم من بقايا الخوارج الجدد الذين تمردوا اثناء الحرب الأهلية الثانية . وليس من الغريب انهم بعد إخماد ثورة الخوارج الجدد وجدوا ان الحكمة تقضي بأن يكونوا قعدة أي أنهم أعلنوا التوقف عن الثورة باختيارهم . وعلى هذا الأساس تساهلت الحكومة المركزية ببقائهم في تلك الزاوية النائية من شبه الجزيرة من غير ان تتكلف عناء سحقهم كلياً[3] . والظاهر انهم نجحوا فيما بعد بإحياء تجارتهم القديمة عبر المحيط الهندي . ومن المرجح ان هذا هو ما يفسر صلاتهم بالبصرة . على انه من السخف الأكيد ان يصار الى الربط بينهم وبين البربر في هذه المرحلة .

وإزاء هذا الواقع لا بد لنا من ايجاد تفسير لتسمية هذه الحركة الخاصة بالبربر بالحركة الأباضية . ومن المفهوم ان هؤلاء البربر بصفتهم مسلمين متمردين على الحكومة المركزية لا بد ان ينظر اليهم من قبل معاصريهم كخوارج ، وهم أنفسهم قابلون بذلك ، حتى أنهم شجعوا عليه لأنه يعني مساواتهم بإخوانهم العرب المسلمين . وهذه هي الغاية الرئيسة من ثورتهم . في ذلك الوقت كانت الأباضية في شرقي شبه الجزيرة العربية هي حركة الخوارج الوحيدة التي استطاعت ان تتجنب الخضوع الكامل للحكومة المركزية . وليس من الصعب ان نرى ان كلمتي الخوارج والأباضية صارتا مترادفتين ، من وجهة نظر البربر على الأقل . ولذلك كان البربر المتمردون ، بتسميتهم أنفسهم

---

١) ابن الأثير، الكامل، جـ ٥، ص ١٤٢؛ وابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٢١٨ .

٢) لرأي آخر مناقض انظر: T. Lewick, « al-Ibadiyya », *Enc. of Islam*, new edition, Leiden 1954.

٣) انظر الفصل السادس

بالأباضية ، يساوون في الواقع بين قضيتهم وقضية سواهم من العرب المسلمين المتمردين .

وإذا كان أباضية شرقي الجزيرة العربية قعدة هادئين فإن أباضية أفريقيا الشمالية كانوا ثائرين بصورة نشطة لا لبس فيها . وقد تمكنوا عمليا من إخراج جميع العرب من شمالي أفريقيا ، وانسحب بعض العرب الى اسبانيا حيث كانت الحاجة اليهم ماسة لدعم اخوانهم العرب في وجه البربر هناك[١] . ولما تم احتواء الثورة انقسم العرب في اسبانيا ، كالعادة ، الى فئتي المضرية واليمانية. وكان بعضهم يحبذ الاستقرار في اسبانيا وإيجاد حالة تعايش مع البربر . وهؤلاء هم اليمنية بالطبع . أما القيسية فكانوا من ناحية أخرى يطالبون بالعودة الى سوريا ويرفضون أي دور في تحقيق الاستيطان او التعاون مع البربر . وأخيراً ، وبعد إخماد موقت لثورة البربر ، توصل العرب الى تفاهم موقت فيما بينهم للاستقرار في اسبانيا . والطريقة التي تم بها استقرارهم تعكس بصورة واضحة كيفية تركيب الجيش السوري في اسبانيا في ذلك الوقت . فقد استقرت الفصيلة الدمشقية في منطقة الفيرا ، وفصيلة قنسرين في منطقة جيّان ، وفصيلة حمص في أشبيلية ، وفصيلة فلسطين في مادينا سيدونيا والجزيرة الخضراء[٢] .

وفي نهاية عهد هشام في عام ٧٤٣م/١٢٥هـ كان الوضع في أفريقيا الشمالية وفي اسبانيا ، وفي جميع أنحاء الامبراطورية أيضاً ، وضعا يوصف بالسلام الداخلي القلق . على ان نجاح هشام في التغلب على جميع الأخطار الخارجية الرهيبة ، هو في الواقع إنجاز كبير .

---

١) ابن الأثير، الكامل، جـ ٥، ص ١٤٣ ـ ٤٤؛ وابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٢١٨ ـ ٢٥ .
٢) ابن الأثير، الكامل، جـ ٥، ص ٣٧٤ ـ ٦ وابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٢٢٣

الفصل التاسع
انهيار المروانيين

بعد وفاة هشام أعقبه على الخلافة ابن شقيقه الوليد الثاني . وتعطينا مصادرنا انطباعا بأن خلافة الوليد كانت مهيأة منذ عشرين سنة من قبل ابيه يزيد الثاني الذي سبق هشاما . قد يكون هذا محتملا . لكن دراسة أدق للوضع تدل ان الأمر لم يكن بهذه البساطة . لا ريب ان هشاماً نفسه لم يكن راضياً كل الرضى عن هذا التدبير ، ففي اوساطه المقربة رفع عالم بارز كالزهري[1] صوت المعارضة لخلافة الوليد . وفي هذه المصادر ايضا ان هشاماً حاول تعديل انتقال الخلافة لصالح أحد أبنائه مسلمة . ومن الغريب ان مسلمة لم يكن نشيطاً او بارزاً كإخوته في عهد أبيه الطويل[2] . لذلك يبدو ان هشاماً كان يحاول ان يقترح مرشح تسوية . وتدل الأحداث اللاحقة بوضوح ان أفراد عائلة مروان كانوا منقسمين انقساماً عميقاً بشأن خلافة الوليد . ومن الطبيعي ان تكون الخلافات قد نشأت في العائلة من قبل ، ولكن هذ الخلاف كان خطيراً هذه المرة ، وكان نذير تفسخ في إحدى دعائم النظام ، أي في وحدة عائلة مروان بالذات .

إن أفراد العائلة الذين أيدوا خلافة الوليد كانوا يدعون الى مواصلة تنفيذ السياسات التوسعية التي تجدد تطبيقها بقوة في عهد والده يزيد الثاني . وتدل الأحداث التي تلت ان المعارضين للوليد كانوا يطالبون بنقض هذه السياسات . ولا بد ان هشاماً كان يدرك وجود هذا الانقسام في عائلته ، ومن هنا كانت محاولته تقديم مرشح تسوية . ومع فشل هذه المحاولة واتجاه هشام المتزايد نحو السياسات التوسعية كان النصر لمؤيدي الوليد من أفراد العائلة بحيث أصبحت خلافته مضمونة .

---

١) الطبري، ٢، ص ١٨١١
٢) المصدر السابق، ص ١٧٤١ ـ ٣

تصور مصادرنا الوليد الثاني على انه رجل منغمس في متعه ، غير عابىء إلا بملذاته وشهواته[١] . ان هذه التهم هي بكل بساطة مثل على مبالغة هذه المصادر في وصف وجوه عجزه وفشله . والحقيقة ان هذا الاتهام قد لا يكون أكثر من شائعات روجها خصومه الكثر وسجلتها هذه المصادر . ان عجز الوليد الأكبر هو انه لم يقدر اثر الاعباء الثقيلة المفروضة على القوة المحدودة للجيش السوري . ثم انه لم يدرك أيضاً ان تجنيد جيش جديد من الجزيرة قد أوجد قاعدة قوة بديلة لنظام جديد في الامبراطورية . لقد كانت وجهة نظر الوليد الثاني بالطبع ان مثل هذا الجيش يخدم مصالح الامبراطورية اذا ما وجه في حروب توسعية جديدة .

ويظهر ان الوليد الثاني كان في عهده القصير اكثر من هشام تحبيذا للسياسات العسكرية القيسية التوسعية . وخير دليل على ذلك موقفه من خالد القسري زعيم اليمانية وكان خالد بعد عزله من منصبه كوالٍ على العراق والشرق قد عمد الى الاقامة في دمشق . ويروى عنه انه اشترك في حملات صيفية على الأراضي البيزنطية . وظل طوال ست سنوات تقريبا يحاول البقاء خارج الصراع السياسي ، ولكنه ظل برغم ذلك متهما بالمعارضة المتواصلة وبالتآمر على السياسات القيسية . وأمر الوليد الثاني بالقبض عليه وبتسليمه الى ألد أعدائه يوسف بن عمر والي العراق وزعيم القيسية . وأمر يوسف بدوره بتعذيبه . وبالنتيجة قضى خالد نحبه في السجن في عام ٧٤٣م/١٢٦هـ[٢] . ان هذا الاجراء بحق زعيم اليمانية المعروف دليل واضح على التزام الوليد الثاني الكامل بالقيسية . ثم انه اتخذ تدبيراً آخر شديد القسوة وفي منتهى الغرابة بحق عضو بارز من أفراد عائلة مروان اذ أمر بضرب سليمان بن هشام ونفيه الى عمان حيث زج في السجن[٣] . ونحن نعلم ان سليمان كان نشطاً جداً في عهد والده وقد قاد عددا من الحملات الصيفية في وجه البيزنطيين . والأهم من هذا هو ان سليمان كان قد جنّد جيشه الخاص من سكان الجزيرة غير العرب[٤] . ويمثل هذا الجيش وحيال الانقسام في صفوف آل مروان كان سليمان يمثل تهديداً كبيراً للوليد الثاني فلا عجب ان يتخذ هذا

---

١) المصدر السابق، ص ١٧٤١ و ١٧٧٥

٢) المصدر السابق، ص ١٨١٢ ـ ٢٢

٣) المصدر السابق، ص ١٧٧٦

٤) انظر الفصل العاشر

الأخير يحق ابن عمه مثل هذا التدبير الذي لا سابقة له .

أما بالنسبة للجيش السوري فقد كان الوليد الثاني يعلم انه لا يستطيع استدعاء القوات التي وجهت الى افريقيا الشمالية للسيطرة على البربر . فاتجه بنظره الى جزيرة قبرص المنسية التي كانت قد انتزعت من البيزنطيين في عام ٦٤٩م/٢٤هـ اثناء ولاية معاوية على سوريا ، ونزح العرب اليها من سوريا واستقروا فيها[1] . وجه الوليد الثاني اليها قوة بحرية في عام ٧٤٣م/١٢٥هـ لاعادة اولئك النازحين وارغامهم على الاشتراك في الحملات على بيزنطية[2] . وبالنسبة للقوات الباقية في سورية ، حاول تعزيز ولائها بزيادة عطائها . وحيال وجود فائض كبير في الخزينة المركزية اعلن استئناف عادة منح المساعدات وتوزيع الرقيق على العميان والمصابين بأمراض مزمنة[3] . وكانت الغاية من هذه العادة ، كما ألمحنا من قبل ، منح إعانة مالية للعرب السوريين . والظاهر ان هشاما كان قد أبطلها[4] . لكن جميع هذه الاغراءات لم تكن لتجدي نفعاً . قد نقم السوريون على سياسات كانت تستتبع قيامهم بحملات متواصلة في جميع أنحاء الامبراطورية ، وانقلبوا على الوليد الثاني . ودبر قادة الجيش السوري بمعاونة بعض أفراد آل مروان انقلابا ناجحا أنهى عهد الوليد الثاني بعد مرور ما يقرب من سنة واحدة[5] . واغتيل الوليد على أيدي الجند السوري وهو من أشد الرعايا اخلاصا لبني أمية . وتشير مصادرنا الى هؤلاء على انهم يمانية لسببين[6] أولا : انهم بصرف النظر عن انتماءاتهم القبلية الاسمية كانوا متمردين على سياسات الوليد الثاني القيسية الواضحة . ثانيا : أن عبارة اليمنية مناقضة للقيسية التي كانت في ذلك الوقت تعني جيش الجزيرة . ومما له مغزاه ان هذا الجيش الأخير بقي خارج هذه الانتفاضة في سورية على انه سرعان ما سيستخدم ، كما سنرى ، للسيطرة على سورية نفسها[7] . والحقيقة ان هذا الانقلاب على الوليد الثاني عنى من ناحية عملية القضاء على نظام آل مروان . ان أساس هذا الحكم بالذات

---

١) البلاذري، فتوح، ص ١٥٣
٢) الطبري، ٢، ص ١٧٦٩ وابن الأثير، الكامل، جـ٥، ص ٢٠٦
٣) الطبري، ٢، ص ١٧٥٤ واليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٣٣٦
٤) انظر الفصل السادس
٥) الطبري، ٢، ص ١٧٥٥ و ١٧٧٧ - ٨١٠
٦) المصدر السابق، ص ١٧٥٥ و ١٧٧٨ و ١٧٨٤
٧) المصدر السابق، ص ١٧٨٥ و ١٨٥٠ و ١٨٧٠ - ٣

قد تسف حين فقد دعم الجيش السوري .

ووقع اختيار القادة السوريين على يزيد الثالث لخلافة ابن عمه الوليد الثاني في عام ٧٤٤م/١٢٦هـ والغريب ان تدبيره الأول كان الغاء زيادة العطاء الممنوحة للقوات السورية من قبل سلفه[١] . ولم يكن هذا التدبير دلالة على جحوده بفضل الذين أوصلوه الى السلطة لكنه كان الدلالة الاولى عى ان السوريين لن يطلب منهم في ظل النظام الجديد ان يقوموا بأي مهمات غير تلك التي تطلب من بقية المقاتلة في الامبراطورية . والواقع ان يزيد الثالث كان يعد بإبقاء القوات السورية في سورية ، وبحكم الامبراطورية من دون الاعتماد عليها لحراسة الولايات الأخرى . وكان عمله هذا خطوة من خطوات كثيرة أخرى استهدفت نقض السياسات التوسعية القيسية نقضا تاماً . وفي خطاب افتتاحي معمم بصورة واسعة ومذكور في مصادرنا كافة ، اعطى يزيد الثالث موجزاً لما يمكن وصفه ببيان لليمانية . وقد وعد فيه : (أ) بوضع حد لبناء أي أنصبة ضخمة لا لزوم لها ، (ب) بعدم القيام بأي مشاريع زراعية على حساب الخزينة العامة لاستصلاح أراض تمنح لأفراد العائلة ، (ج) بإنفاق مداخيل كل منطقة على حاجات سكانها واستعمال الفائض منها فقط لسد حاجات مناطق مجاورة ، (د) بالامتناع عن القيام بحملات توجب بقاء الجنود بعيدين عن منازلهم وقتا طويلا ، (هـ) بمعاملة الشعوب المغلوبة معاملة منصفة في شؤون الضرائب بحيث لا يضطر الأهالي لترك أراضيهم او للتعرض لتدابير الحجز والمصادرة ، (و) بمنح جميع المسلمين ، عربا وغير عرب ، في جميع أنحاء الامبراطورية عطاء متساوياً ، (ز) ووعد أخيرا بالتخلي عن كل ادعاء بسلطة مطلقة وبالقبول بعزله من السلطة اذا لم يحقق هذه الوعود[٢] .

لهذه النقطة الأخيرة أهمية خاصة إذ يرجح انها تلقي بعض الضوء عى الموقف السياسي لفئة اسلامية قديمة غير معروفة جيدا هي القدرية . وإذا كنا غير واثقين من الأصول الفقهية لهذه الفئة ، لا سيما في مرحلتها التكوينية ، فإن آراءها السياسية هامة بسبب علاقاتها الظاهرة بمعارضة نظام آل مروان . اننا نذكر ان غيلان الدمشقي أعدم

---

١) المصدر السابق، ص ١٨٢٥

٢) المصدر السابق، ص ١٨٣٤ ـ ٥ وابن خياط، تاريخ، جـ ٢، ص ٣٨٢ ـ ٣ والأزدي الموصل، ص ٥٠ ـ ١ والذهبي، تاريخ، جـ ٥، ص ١٨٩

بناء على أمر هشام بسبب « هرطقات » غير محددة وصفت بأنها قدرية[1] . ويروى ان يزيد الثالث كان قدرياً وغيلانياً في الوقت ذاته[2] . ولذلك يمكننا ان نفترض ان لكليهما وجهات نظر واحدة ، أو أن كلا الاسمين كان يطلق على الفئتين ذاتهما . ويبدو ان مبدأ غيلان الذي كلفه حياته على الأرجح ، كان دعوة لفرض قيود معينة على سلطة أمير المؤمنين[3] . ومن الطبيعي انه لا يستطيع ان يكون واضحاً كيزيد الثالث بالنسبة لهذه القضية . ولا شك ان القائلين بالقدرية كانوا يرون ان أمير المؤمنين ينبغي ان لا يتمتع بسلطة مطلقة ، وان سلطته الزمنية يجب ان تخضع لموافقة المجتمع الذي يحق له ان يخلعه اذا أساء استعمال صلاحيات منصبه . ولا مجال بالطبع لمنحه أي سلطة دينية . إن غيلان والقائلين بالقدرية ويزيد الثالث لم يكونوا ضد آل مروان وإنما كانوا ضد مفهوم آل مروان للمنصب الذي يتبوأونه .

ومع أن الأكثرية الساحقة من الجيش السوري كانت تؤيد يزيد الثالث فان بعض جند حمص وفلسطين الذين يرجح انهم لم يشتركوا بالانقلاب ، اعترضوا على اغتيال حاكمهم الشرعي . إلا ان اعتراضاتهم كانت غير خطيرة بحيث قضي عليها بسهولة . وفي هذا المجال نجد ان سليمان بن هشام الذي كان قد زج في السجن بناء على أوامر الوليد الثاني ثم افرج عنه من قبل يزيد الثالث ، لعب دوراً هاماً . فقد استطاع بجيشه الخاص ، أي الذكوانية ان يقنع المعارضين بوجهة نظر الحكم الجديد[4] واسترضى مروان بن محمد والي أرمينيا وأذربيجان والجزيرة وقائد جيش الجزيرة القيسي الكبير بضم منطقة الموصل الغنية المزدحمة بالسكان الى ولايته [5] . وواضح ان يزيد الثالث كان يتحرك بحذر مجاملا هذه المجموعة القوية ريثما يتمكن من إقناعها بعدم جدوى سياسات أسلافه التي مر عليها الزمن .

وفي مصر كان الوضع ملائما لتنفيذ سياسات يزيد الجديدة تنفيذا كاملاً . هنا كان

---

١) الذهبي ، تاريخ ، جـ ٤ ، ص ٢٨٩
٢) الطبري ، ٢ ، ص ١٨٢٨ و ١٨٣٧ و ١٨٦٩ و ١٨٧٤ و ١٨٩١
٣) الحسن بن موسى النوبختي ، فرق الشيعة ، تحقيق هـ . ريتر ، لايبزيغ ، ١٩٣١ ، ص ٩
٤) الطبري ، ٢ ، ص ١٨٢٦ - ٣٣
٥) المصدر السابق ، ص ١٨٧٣

قد حدث بعض الاضطراب المحدود في عهد هشام لكنه أخذ بسهولة . لقد كان الشعب المصري في الأساس متعاونا مع العرب كما يتضح من إسهامه الراسخ في عمليات البحرية المصرية العربية[1] . وكان واضحا ان تنازلات ضئيلة من شأنها ان تستميل المصريين وتحملهم على خدمة المصالح العربية بصورة أفضل . فوجهت تعليمات الى والي مصر تقضي بمنح عطاء لثلاثين الف مصري بمعدل ٢٠ ـ ٢٥ دينارا في السنة . وفي مصادرنا يشار الى هؤلاء المسجلين الجدد في ديوان مصر بصورة محددة بأنهم مقامصة وموالي[2]. وكان المقامصة مصريين يعملون في البحرية كبحارة ومجذفين ومديري دفة الخ . . وكانوا يعطون أجورا طوال الحملات السنوية . وهنا يجب ان نلاحظ ان البحرية العربية كانت على غرار النموذج البيزنطي . وكانت الوحدة القتالية سفينة شراعية كبيرة عليها ١٠٠ مجذف على الأقل بالاضافة الى اختصاصيين آخرين . ومع أن هؤلاء جميعا كانوا مسلحين ، فقد كانت على كل سفينة قوة مقاتلة تتخذ مواقعها على ظهرها الأعلى . ولعل هذه القوة كانت عربية مع ان القوة الرئيسية على كل سفينة كانت من المصريين . ولا بد ان عدد المصريين المشتركين في العمليات البحرية كان كبيرا جدا لأننا نعلم ان عدد الوحدات القتالية كان يقرب من الف وحدة[3] . ولما كانت هذه البحرية شديدة الشبه بالنموذج البيزنطي فلا عجب ان يكون العرب استعملوا الكلمة اليونانية Machimos ، أي المقاتل ، في صورة الجمع المحرفة ، أي مقامصة ، للدلالة على المصريين العاملين في البحرية العربية[4] . لقد كان يزيد الثالث يعرض على هؤلاء الرجال مجال التطوع على أساس دائم شريطة ان يعتنقوا الاسلام . ان الاشارة الخاصة الى الموالي بالاضافة الى المقامصة تؤكد هذا الاشتراط . ثم ان هذا قد يعني ايضا ان يزيدا الثالث كان يخطط لانشاء قوة مصرية لاستخدامها الى جانب البحرية لتخفيف الضغط على السوريين في أفريقيا الشمالية واسبانيا .

كان الوضع في هذه المناطق يتجه الى الخروج كليا عن إمكانية السيطرة عليه نتيجة الخلافات المتواصلة بين العرب في اسبانيا في مواقفهم من البربر . ومع ان ثورة البربر

---

١) انظر الفصل السادس
٢) الكندي، الولاة، ص ٨٤
٣) في عام ٦٤٨م/ ٢٧هـ كان عدد المراكب يفوق المئتين. ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٩٠
٤) ان الكلمة اليونانية nautés استعملت بشكلها العربي « نوتي » بمعنى بحار في نهر النيل. ابن عبد الحكم، سيرة عمر، ص ٦٧

كانت قد أخمدت على أيدي القوات السورية النشطة التي أرسلت الى شمالي أفريقيا في عهد هشام ، فان الخلافات بين العرب في أفريقيا الشمالية واسبانيا اصبحت تشكل الخطر الأكبر على الاستقرار القلق في هذه المناطق . وفي عام ٧٤٣م/١٢٥هـ أرسل القائد السوري والوالي حنظلة بن صفوان فريقا من قواته لاعادة الأمن في اسبانيا . وأدى ذلك الى الفوضى لا في اسبانيا وحسب ، ولكن في أفريقيا الشمالية نفسها ايضا . وانتقل بعض العرب من اسبانيا الى افريقيا الشمالية وتسلموا زمام الأمور بأنفسهم . وفي عام ٧٤٥م/١٢٧هـ اضطر حنظلة للانسحاب بقواته الى سورية وترك افريقيا الشمالية بأيدي المتمردين العرب بقيادة عبد الرحمن بن حبيب ، حفيد عقبة بن نافع القائد الشهير للفتوح العربية الأولى في هذه المنطقة ، وبينما بقيت الفوضى سائدة في اسبانيا حتى قيام العهد الأموي هناك سنة ٧٥٦م/١٣٨هـ فقد ظلت أفريقيا الشمالية خاضعة لسيطرة المتمردين الذين كانوا يواجهون ثورة البربر المستأنفة الى ان تمكن العباسيون من إعادة فتح المنطقة عام ٧٦٣م/١٤٦هـ[١] .

أما بالنسبة للعراق فقد عزل يزيد الثالث الوالي القيسي يوسف بن عمر واستبدله بمنصور بن جمهور الكلبي وهو كبير متآمري اليمانية الذين دبروا الانقلاب[٢] . وكانت مهمته الأساسية في عهد يزيد الثالث القصير ، هي إعادة بناء الجيش العراقي ، على ان تسهم الخزينة المركزية بدفع عطاء المجندين الجدد[٣] . وكان من المتوقع ان يرحب العراقيون بمثل هذه الخطوة ، ولكن موقف منصور لم يكن مرضياً لهم . والظاهر انه فضل السوريين المرابطين في العراق ، أو لعله اعترض على دمجهم الكامل بالجيش الجديد . وبعد ثلاثة اشهر فقط ، اتضح انه كقائد سوري لا يستطيع ان يحظى بثقة العراقيين التامة بصرف النظر عن دوره بالانقلاب الناجح[٤] فاستبدل بوالٍ جديد لم يكن قائداً سورياً وكان يتميز باسم هو عبدالله بن عمر الثاني . وكانت أهمية اسمه بالنسبة للعراقيين انه يمثل إحياء لسياسة والده ، أي إنهاء السيطرة السورية على العراق . وراح الوالي الجديد يعيد بناء الجيش العراقي مقترحا ان يدمج فيه القوات

---

١) ابن الأثير، الكامل، جـ٥، ص ٢٠٤ ـ ٥ و٢٣٥ ـ ٦ و٣٧٥ ـ ٦.
٢) الطبري، ٢، ص ١٧٧٨ و١٧٩٤ و١٨٠٣ ـ ٤ و١٨٣٦ ـ ٧
٣) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٣٣٦.
٤) الطبري، ٢، ص ١٨٣٦ ـ ٧.

السورية الموجودة في العراق . وكان منصور ، الوالي السابق والقائد السوري ، أحد قادة هذا الجيش الجديد[١] .

وكان منصور بن جمهور قد عمد خلال ولايته القصيرة على العراق والشرق الى تعيين شقيقه منظور عاملا له في الشرق . ومع ان منظورا لم يصل الى خراسان ، فان خبر تعيينه أثار حماساً هناك ولا سيما بين اليمانية . لقد كان هذا التعيين يعني لهم نهاية سلطة الوالي المضري اليماني نصر بن سيار واحتمال تطبيق سياسة يمانية أكثر اعتدالا على يدي منظور . على ان نصراً رفض الاذعان لهذا التعيين وواصل اتخاذ التدابير بحق قادة اليمنية في خراسان لتثبيت مركزه[٢] . وأدت هذه التدابير في النهاية الى اتحاد معارضيه جميعا . وكان هذا الاتحاد عاملاً رئيساً في نجاح الثورة العباسية في خراسان .

ومن المؤسف ان يزيد الثالث توفي فجأة في نهاية عام ١٢٦/٧٤٤ بعد حكم لم يطل أكثر من ستة أشهر . لكن أخاه ابراهيم الذي خلفه مدة أربعة أشهر فقط لم يبايع أميراً للمؤمنين من قبل جميع الفئات . فقد كانت الانقسامات الحزبية قد انتشرت في صفوف الجيش السوري في سورية نفسها ، كما كان الموقف قد تدهور الى فوضى كاملة في أنحاء الامبراطورية كلها تقريبا[٣] .

وفي هذه الأثناء كان مروان بن محمد مطمئناً في الجزيرة على رأس القوة الكبرى في الامبراطورية . ثم انتقل بنفسه من حدود أرمينيا الى حران وعزز جيشه بتجنيد قوات جديدة وباستمالة حرس الجزيرة القديم[٤] . وهددت البقية الباقية من القوات السورية في جيشه ، أي مجموعة من جند فلسطين بالتمرد عليه اذا لم يسمح لأفرادها بالعودة الى منازلهم . وكان مروان مرغماً على التسليم بطلبهم[٥] . والى جانبه في الجزيرة كانت هنالك مجموعة أخرى من المنشقين مؤلفة بالدرجة الأولى من عرب مستوطنين في ديار ربيعة رفضوا الانخراط في جيش مروان رفضا كليا وطلبوا تسريحهم من الجيش والبقاء في

---

١) المصدر السابق، صفض ١٨٥٤ ـ ٥
٢) المصدر السابق، ص ١٨٤٥ و١٨٤٧ و ١٨٥٩
٣) المصدر السابق، ص ١٨٧٥
٤) المصدر السابق، ص ١٨٧٣ و ١٨٧٦ والازدي، الموصل، ص ٦١
٥) الطبري، ٢، ص ١٨٧١ ـ ٣ والازدري، الموصل، ص ٦٦.

بيوتهم[1] . ومما له مغزاه انهم كانوا مدعومين من قبل مجموعة من بني تغلب ممن اعتنقوا الاسلام حديثاً واستوطنوا أذربيجان[2] . وكان الضحاك بن قيس الشيباني من ربيعة أبرز قادتهم . ويعرف هؤلاء في مصادرنا بالخوارج ويوسمون بالصفرية[3] . وهم في الأساس مجموعة من العرب الذين اندمجوا في بيئاتهم الجديدة ورفضوا مواصلة دعم النظام الأموي بأي شكل . ثم انهم لم يروا سببا للتورط في الانتفاضات الشيعية التي كانت حتى الآن تمنى بالفشل الدائم . إن عقائدهم الأساسية لا يمكن ان تحدد بشكل واضح ، وهم موصوفون بالقعدة ، معارضون أشد المعارضة لأي سياسة تقوم على المغامرة . ولئن كان الحارث بن سريج يمثل اقصى الجناح اليميني في خراسان ، فان الضحاك بن قيس يمثل أقصى الجناح اليساري في قلب الامبراطورية . وقد أدرك هؤلاء الخوارج القعدة انهم فريسة سهلة لمروان في الجزيرة فاقتحموا الكوفة بسرعة[4] . هنا كان عبدالله بن عمر لا يزال منهمكا في اعادة بناء جيش العراق لكنه استطاع بعد معارضة القوات السورية المرابطة في العراق في البداية ان يجند قوة كبيرة ، ويؤمن لها العطاء بواسطة إعانات من خزينة الكوفة[5] .

وفي هذه الأثناء دخل مروان دمشق حيث اعلن نفسه أميرا للمؤمنين في عام ١٢٧/٧٤٤هـ[6] . فقامت بوجهه معارضة من جند حمص وفلسطين لكنه سرعان ما قضى عليها[7] . وعارضته ايضا مجموعة اخرى كانت ملتفة حول سليمان بن هشام وجيشه الخاص من الموالي ، أي الذكوانية ، لكنها غلبت أيضا ، وفر سليمان بجيشه ، وانضم الى الخوارج الزاحفين على الكوفة[8] . وما إن صار مروان الثاني سيد الموقف في سورية حتى أرسل واليه الجديد النضر بن سعيد الى العراق على رأس قسم من جيش

---

١) الطبري، ٢، ص ١٨٩٧ ـ ٩ والازدي، الموصل، ص ٦٠
٢) ابن خياط، تاريخ، جـ ٢، ص ٣٩٥
٣) الطبري، ٢، ص ١٩٠٠
٤) المصدر السابق، ص ١٨٨٩ ـ ٩٠، وابن خياط، تاريخ، جـ ٢، ص ٣٩٦
٥) الطبري، ٢، ص ١٨٥٤ ـ ٥
٦) المصدر السابق، ص ١٨٩٠ ـ ٢ .
٧) المصدر السابق، ص ١٨٩٢ ـ ٣ و ١٩١٢
٨) المصدر السابق، ص ١٨٧٧ ـ ٨ و ١٨٩٧ و ١٩٠٨ ـ ١٢ والازدي، الموصل، ص ٦١

الجزيرة[١] . ومع ان عبدالله بن عمر كان مقبولاً عند قسم من سكان العراق ، فانه كان لا يزال موظفا مروانيا كما أنه هو نفسه من آل مروان . وإذا كان قد رفض الاعتراف بمروان الثاني ، فإنه لم يرفض حكم آل مروان . ثم ان القوى المعادية لبني أمية في الكوفة لا يتوقع منها ان تقبل بهذا الوضع بدون استغلال غياب سلطة بني مروان . وفي هذه الحال نشأت هناك حركة شيعية أخرى زائفة . والسبب الوحيد لتسميتها بالشيعية هي أنها كانت بقيادة عبدالله بن معاوية احد أحفاد شقيق علي . هذه هي المرة الأولى التي تعلن فيها مثل هذه الحركة باسم رجل لا ينتسب الى علي مباشرة . وهي لا تدل إلا على ان فكرة حق أبناء بيت الرسول بالحكم كانت تحظى بقبول أكبر وصارت تطبق بصورة واسعة لتشمل جميع أعمام النبي . ولا عجب في أن أعمامه الآخرين ، أي العباسيين ، كانوا في ذلك الوقت أيضا يعملون بنشاط لتحقيق مطالبتهم بالمنصب الأعلى . على ان عبدالله بن معاوية لم يستطع ان يحشد دعماً كافياً في الكوفة لمقاومة الجيش الجديد بقيادة عبدالله بن عمر[٢] . ثم توجه بعد إخراجه من الكوفة ، نحو المدائن حيث وطد سلطته في غربي ايران . ومع أن نجاحه لم يدم طويلا فان تأييد الموالي له كان كبيراً على ما يبدو[٣] . هنا ينبغي ان نلحظ انها المرة الأولى التي يشترك فيها الموالي على نطاق واسع في الانتفاضات المزمنة في الامبراطورية ، وهذا يدل على ان الاسلام أخذ يترسخ في غربي ايران ، كما ان معتنقيه الجدد كانوا يتأثرون بصورة متزايدة بحركة الانصهار والدمج . ولما كان النظام المرواني الذي يعتبر معارضاً لهذه الحركة كل المعارضة يظهر دلائل أكيدة على انهياره الوشيك ، فان هؤلاء الموالي لم يترددوا في دعم ثورة عبدالله بن معاوية . غير ان تأييدهم لن ينبغي ألا يبالغ فيه لأنه تلاشى عند مرأى قوات مروان الثاني .

في هذه الأثناء كان يجري في الكوفة صراع في منتهى التعقيد بين ثلاث مجموعات . الأولى هي جيش العراق الجديد بما فيه الحامية السورية وجميع التابعين لقيادة عبدالله بن عمر الوالي السابق في العراق في عهد يزيد الثالث . وتشير مصادرنا الى هذ المجموعة على انها اليمنية[٤] . والمجموعة الثانية المشار اليها بالمضرية هي قسم من جيش الجزيرة

---

١) الطبري، ٢، ص ١٨٩٩

٢) المصدر السابق، ص ١٨٧٩ ـ ٨٧

٣) المصدر السابق، ص ١٨٨٠ ـ ١ و١٩٧٦ ـ ٧

٤) المصدر السابق، ص ١٨٩٨ و ١٨٩٩ و ١٩٠٠ و ١٩٠٥

بقيادة النضر بن سعيد والي العراق الجديد المعين من قبل مروان الثاني[٢] . واتحدت هاتان المجموعتان بصورة موقتة لمحاربة المجموعة الثالثة ، أي الخوارج ، بقيادة الضحاك الذي كان يهاجم الكوفة[٢] . واستولت هذه المجموعة الأخيرة على الكوفة وانضم اليها السوريون الذين كانوا قبل ذلك يقفون الى جانب الوالي السابق عبدالله بن عمر[٣] . وانسحب ما تبقى من القوات اليمنية المضرية الموحدة الى واسط حيث راح بعضها يحارب بعضها الآخر ، لتعود فتتحد ثانية عندما هاجم الخوارج مدينتهم[٤] . وبرغم ذلك فان هذا التحالف بين المضرية واليمنية سرعان ما انتهى . وبانسحاب المضرية والنضر بن سعيد الى سورية ، انضم اليمنية وعبدالله بن عمر الى الخوارج[٥] وسرعان ما كسبت هذه القوات المتمردة دعماً جديداً حين انضم اليها عضو بارز من آل مروان هو سليمان بن هشام وجيشه الخاص «الذكوانية»[٦]. وقامت هذه القوات الموحدة بهجوم على الموصل واحتلتها . غير ان مروان الثاني الذي كان قد ثبّت قدميه في سورية لم يضع أي وقت بل سرعان ما زحف على الموصل وتمكن في المعركة التالية (٧٤٦م / ١٢٨ هـ) من سحق القوات المتمردة على قائدها الضحاك[٧]. ثم واصل مطاردة المتمردين الذين لجأوا الى العراق. وسرعان ما صارت هذه الولاية، بالاضافة الى الجزيرة وسورية خاضعة لسيطرة مروان الثاني الكاملة.

عند هذا الحد كان مروان الثاني ، فيما يبدو ، غير قلق بصورة خاصة على الوضع في خراسان . فقد عمد على الفور الى تثبيت نصر بن سيار الذي تحدى يزيد الثالث في ولايته[٨] . وبالنسبة لمروان الثاني كان هذا التحدي العلني الناجح اثباتا كافياً بان نصراً يستطيع ان يحشد دعماً كافياً للسيطرة على الولاية . واذا كان صحيحاً ان هنالك روايات عن صراعات بين العرب في خراسان ، وشائعات قوية عن انتفاضة محلية وشيكة ، فان

---

١) راجع ما قبله
٢) الطبري، ٢، ص ١٨٩٨ - ١٩٠٠
٣) ابن الأثير، الكامل، جـ ٥، ص ٢٥٥ والطبري، ٢، ص ١٨٩٩
٤) الطبري، ٢، ص ١٩٠٢ و ١٩٠٥
٥) المصدر السابق، ص ١٩١٣ - ١٤
٦) المصدر السابق، ص ١٩١٤ و ١٩٣٩ - ٤١ والازدي، الموصل، ص ٧٠
٧) الطبري، ٢، ص ١٩٤٠ - ١
٨) المصدر السابق، ص ١٩١٧

مروان الثاني لم يكن يستطيع ان يستبق النتيجة التي لا يمكن تصورها لهذ الوضع . يضاف الى ذلك انه كانت لديه قضايا اخرى أكثر إلحاحا . لقد كانت ثورة عبدالله بن معاوية تنتشر في غربي ايران ، وتجمع زخماً ودعماً من بقايا المتمردين في العراق والجزيرة . وقد فرّ سليمان بن هشام ومواليه ، ومنصور بن جمهور وأنصاره السوريون ، للانضمام الى قواته[1] . ومما له مغزاه الأهم من ذلك ، برغم قلة أهميته العددية انه انضم الى ابن معاوية ثلاثة بارزون من بني العباس أحدهم هو ابو جعفر المعروف بالمنصور[2] .

لقد انقلبت هذه الحركة الشيعية الزائفة بقيادة عبدالله بن معاوية الى حركة يشترك فيها شيعيون وخوارج ومروانيون وعباسيون . وكل محاولة لايجاد أساس ايديولوجي لهذا الخليط تشكل تحديا للمنطق . والواقع ان انعدام الايديولوجية كان نقطة الضعف الأساسية في هذه الثورة يضاف الى ذلك انعدام التنظيم فيها على الاطلاق . ان المشتركين من السوريين او العراقيين او من أهل الجزيرة ، من العرب وغير العرب ، كانوا بالطبع غير راضين عن الحكم المرواني ، ولكن هذا وحده لم يكن كافياً لتوحيدهم في وجه قوات مروان الثاني المخيفة . ولم تدم هذه الثورة سنتين إلا لأن مروان الثاني كان منشغلا في مكان آخر . وما إن حوّل جهده لمواجهتها حتى وجد المتمردون أن لا أمل لهم بالنجاح . ففي الاصطدام الأول تفرق المتمردون في كل جهة ، وراحوا ينتظرون الانتفاضة التالية المحتمة للاشتراك فيها ، بينما فر قادتهم الى أنحاء نائية في الامبراطورية : فقد لجأ منصور بن جمهور الى الهند ، وعبدالله بن معاوية فر الى خراسان حيث اغتيل عام ٧٤٦م/١٢٩هـ بتحريض من متمرد شيعي رفيق له هو ابو مسلم[3] ، وعاد ابو جعفر وعماه العباسيون بهدوء الى منازلهم في فلسطين ، ثم سرعان ما قصدوا الكوفة لقيادة ثورة أخرى أفضل تنظيما .

وفي مصر ألغى الوالي المعين من قبل مروان الثاني العطاء الذي كان يزيد الثالث قد أمر بمنحه للمجندين الجدد في الجيش والبحرية . فأعلن هؤلاء العصيان ، وأعادوا تنصيب الوالي الذي كان معينا من قبل يزيد الثالث آملين منه على الأرجح ان يعيد لهم

---

١) المصدر السابق، ص ١٩٤٧
٢) المصدر السابق، ص ١٩٧٧
٣) المصدر السابق، ص ١٩٧٩ ـ ٨٠

دفع عطائهم[1] . فوجه مروان الثاني جيشا تمكن من إعادة الأمن الى الولاية ، ولكن الانتفاضات انفجرت مجددا فور سحب هذا الجيش[2] . لقد عاد المجندون الذين كانوا قد تحصنوا في الاسكندرية والمدن الساحلية الأخرى الى العصيان[3]. وانتشرت الثورات الثانوية المتعددة في جميع المناطق . ونشبت ثورة قبطية محلية بين الفلاحين في قلب الدلتا ، وقامت ثورتان أخريان في مصر العليا[4] . وفي هذه الحال تمكن العرب في مصر من المحافظة عى سيطرتهم على الولاية بصعوبة . ومما زاد الوضع تعقيدا ان عصياناً انفجر بين العرب أنفسهم ، وقد قام به أبناء القبائل الذين جيء بهم من الجزيرة للاستيطان في بلبيس في عهد هشام . وقد كان المطلوب منهم ان يرابطوا على حدود مصر في سيناء للحؤول دون غزوات محتملة من متمردين من الخارج . ومع انه كان مفروضا عليهم بصفتهم مسجلين في الديوان ، ان يسهموا في القيام بالواجبات العسكرية ، فإنهم اعترضوا على ذلك . ثم أدى عصيانهم الى المزيد من الاضطراب العام في الولاية. ولما كانت الحكومة المركزية شديدة الانشغال بالتطورات الجارية في الشرق ، فانها لم تستطع ان ترسل جيشاً آخر للاسهام في استعادة السيطرة على مصر[5] .

في ولاية أخرى هي اليمن ، كانت الثورة تختمر منذ زمن بعيد نتيجة لمحاولات الخزينة المركزية فرض المزيد من الضرائب[6] . وانتشرت في المنطقة ثورة أخرى قام بها الخوارج ، وكان المرجح ان تترك وشأنها لولا ان المتمردين زحفوا الى الحجاز واحتلوا المدينة نفسها عام ٧٤٨م/ ١٣٠هـ بعد معركة قديد الدامية حيث صرع العديد من القرشيين . وكان على مروان الثاني ان يتخذ إجراء قاسياً ، ولو من اجل الحفاظ على سمعته . فأرسل جيشاً أخرج المتمردين من المدينة وطاردهم الى اليمن . ثم أخمدت الثورة وقتل قادتها[7] .

في هذه الظروف قررت مجموعة أخرى من الثوار في خراسان ان الوقت قد حان لتنفيذ مخططها المنظم تنظيما حسنا للقضاء على الحكم الأموي .

---

١) الكندي، الولاة، ص ٨٥ - ٧
٢) المصدر السابق، ص ٨٨ - ٩٢
٣) المصدر السابق، ص ٩٦
٤) المصدر السابق، ص ٩٤ - ٩٥
٥) المصدر السابق، ص ٩٠ و ٩٤ و ٩٥
٦) ابن عبد الحكم، سيرة عمر، ص ٦٥ وابن خياط، تاريخ، جـ ٢، ص ٤٠٨
٧) الطبري، ٢، ص ٢٠٠٦ - ١٥

الفصل العاشر

نهاية عهد

إذا كانت القدرة العسكرية والقوة هما ما كان يلزم لانقاذ آل مروان واعادة الأمن الى الامبراطورية، فان مروان الثاني كان بلا ريب يملك الاثنتين معاً. لقد انفق القسم الأكبر من حياته في قيادة الحملات العسكرية على حدود ارمينيا حيث كسب لنفسه شهرة عسكرية كان اهلاً لها. يضاف الى ذلك انه جمع جيشاً قوياً مكّنه من دحر الخز الأشداء. ثم أخذ، كما رأينا من قبل، يواصل العمل على استعادة الامبراطورية مجددا. لكن جهوده، كانت محتومة الفشل برغم نجاحه في سورية والعراق وغربي ايران. لقد كان لا بد لحكمه ان يؤدي الى اشتداد المعارضة في كافة انحاء الامبراطورية لانه كان حكما اكثر ميلا الى القيسية من حكم اسلافه. ومن المؤكد انه كان داعية قويا للسياسات التوسعية. لقد كان اسلافه يحظون بدعم من الجيش السوري، ولو انه دعم كان يتناقص مع الوقت. اما مروان الثاني فكان بالمقارنة معهم حاصلا على تأييد صلب وطوعي من جيش الجزيرة الذي اعده بنفسه. والواقع ان جيش الجزيرة هذا كان النواة الصلبة للقيسية، ثم تحول بعد بعث الحياة فيه واعادة تنظيمه من قبل مروان الثاني، الى قوة صارت على استعداد للقيام بصورة افضل بدور السوريين في الحكم السابق. على ان هذه المجموعة المنظمة تنظيما جيداً لا تستطيع، وهي اقلية بطبيعتها، ان تبعث الحياة في سياسات فاشلة. وما محاولتها العنيدة لاعادة فرض ارادتها على بقية انحاء الامبراطورية غير وقفة اخيرة. والحقيقة ان هذه المحاولة حملت خصومها على اتخاذ اجراء اكثر حسما ادى الى القضاء على حكم المروانيين.

لقد فشل العرب حتى الآن بحل المشاكل الاجتماعية والسياسية في الامبراطورية التي انشأوها بسهولة كبيرة. وكان حكم المدينة غير مهيأ الى حد ميئوس منه لمعالجة هذه

المشاكل فانقلب سريعا الى حرب اهلية لم يكن احد في الحقيقة يريدها. وهنا كانت مصالح المجموعات العربية المتعددة، باستثناء القراء، غير متباعدة الى حد يحول دون الوصول الى تسوية. وتجسدت هذه التسوية بمعاوية. وجاءت تدابيره البالغة اقصى حد من الحكمة، العاملة على حفظ التوازن، ناجحة وهو على قيد الحياة. وفي خلال عهده الطويل الذي استمر عشرين عاما، لم يضع معاوية حلولا عميقة للمشاكل القائمة، كما انه لم يكن قادراً على مثل ذلك. وكل ما فعله انه اتاح للجماعات المتخاصمة فرصة للتعايش آملا ان تضيق الهوة الفاصلة بين مصالحهم المتناقضة مع الوقت. ولكن هذا الهدوء نفسه اتاح للجماعات المتخاصمة مجال تعزيز قواها واحتمال تزايد تباعدها ايضا. وما ان توفي معاوية حتى استوؤ نفت الحرب الأهلية على نطاق مدمر.

وادى فشل ابن الزبير، امير المؤمنين المنافس في مكة، في تقديم نظام بديل قابل للحياة الى التهديد بتقسيم الامبراطورية. وفي سبيل المحافظة على الامبراطورية كان عبد الملك مضطرا لاستخدام الجيش السوري. لكن ثمن نجاحه كان كبيرا جدا بالنسبة للسياسة الاسلامية في المستقبل، اذ ان استخدام القوة العسكرية صار قاعدة اساسية للحكومة، كما صارت الثورة المسلحة الوسيلة الوحيدة للمعارضة. فقد عجز العرب عن تطوير مؤسساتهم السياسية استجابة للظروف الجديدة.

تم انتخاب ابي بكر على اساس تقليد عربي معدل بعض التعديل لمواجهة قضايا عربية بحتة. ومع انه منح لقب الخليفة الغامض فان صلاحيات منصبه كانت محددة كتلك التي كانت للقائد العربي، لكن نجاحه كان هاما. اما بعد الفتوحات فان العرب كانوا بالدرجة الأولى بحاجة الى قائد عربي يترأس اتحادا بين الولايات المفتوحة. لقد كان ينظر الى هذه البلدان كولايات تتمتع باستقلال ذاتي مملوكة ومحكومة عمليا من قبل فاتحيها. وكان هؤلاء بموجب التقاليد العربية الراسخة، على استعداد للتنازل لقائدهم، امير المؤمنين في المدينة، عن حصة صغيرة من مكاسبهم، لكنه لم يكن معقولا ان يعطوه سلطة عليهم او على المناطق التي افتتحوها. وتعززت استقلالية الولايات بسبب احتفاظ العرب بالبنيات الاجتماعية والادارية السابقة في المناطق المغلوبة. وفي هذه الظروف، وبسبب الانعدام التام لأي جهاز اداري في المدينة، لم يكن لأمير المؤمنين اي سيطرة على التطورات الجارية في الولايات. ففي كل ولاية كان القادة يتخذون مقررات هامة عند الحاجة. ومن الواضح ان مثل هذه التدابير لا يمكن تنفيذها الا اذا كانت متلائمة مع

مصلحة فاتحي الولاية. وكان يكتفي بتبليغ امير المؤمنين بهذه المقررات، علة كان يستطيع ان يقوم بدور الحكم اذا ما رفع اليه خلاف معين. ولم يكن بوسع التقاليد العربية ولا الاسلام نفسه ان يقدم للعرب اي توجيه حول موضوع الصلاحيات الملائمة التي يجب ان تعطى لقائد امبراطوريتهم. ولعل اكثر ما يدعو الى الأسف في هذه الحال هو سرعة حدوث التطورات، مما كان في الحقيقة يحول دون تطوير العرب لمؤسساتهم السياسية المحدودة لمواجهة وضع جديد غير منتظر على الاطلاق. ولا حاجة بنا الى القول ان العرب لم يكونوا يقدرون ان يقلدوا البناء الامبراطوري البيزنطي او الساساني في هذه المرحلة المبكرة، حتى ولو انهم ارادوا ذلك.

ولم يمض وقت طويل حتى ادرك العرب انهم لن يستطيعوا المحافظة على امبراطوريتهم اذا لم يتمكنوا من ان يحكموها. وعند ذلك صارت مسألة توسيع صلاحيات امير المؤمنين ملحة بكل تأكيد. وبرزت مع الوقت وجهتا نظر يمكن وصفهما بانهما وجهة نظر عربية واخرى اسلامية. وكان عثمان اول من عبر عن وجهة النظر العربية، ووضعها موضع التنفيذ. وهو الذي حاول في عهده توسيع الصلاحيات الزمنية لمنصبه، اي انه كان، بكلام آخر، يدعو الى تعزيز صلاحيات امير المؤمنين بصفته زعيماً عربياً. اما وجهة النظر الاسلامية فكان علي اول من دعا اليها، وهو الذي اشترط، لقبول منصب امير المؤنين بعد اغتيال عمر، ان يعطى صلاحيات امير المؤمنين. ان وجهتي نظرهما ظلتا تمثلان الاتجاهين الرئيسين داخل المجتمع الاسلامي بالنسبة لصلاحيات هذا المنصب. وبعد قرنين نجد مثقفاً عميق التفكير كالجاحظ يدعو الى وجهة النظر العثمانية، بينما نجد من ناحية اخرى ان شيعة علي صارت اكثر قدرة على نشر دعوتها لمنح صلاحيات دينية اكثر اتساعا لأمير المؤمنين الامام.

ومما له مغزاه ان الخوارج الذين كانوا اشد المعارضين لعثمان وعلي معاً اعتبروا ان امير المؤمنين ليس اكثر من زعيم عربي، اي انه قائد لا يملك اي سلطة زمنية او دينية وفي الوقت ذاته كانت التسوية التي حققها معاوية لا تشمل منحه سلطة دينية مع انها كانت تجيز ضمنيا توسيع سلطاته الزمنية. ومع ذلك فقد كان معاوية لبقا وحاذقا الى حد كاف اذ اعترف بسلطة القادة العرب المتزايدة في الولايات، واتاح لهم مجال المشاركة في حكم ولاياتهم. ثم ان ذلك كان خطوة حكيمة باتجاه دمج البناء القبلي الجديد داخل الولايات بحكومة الامبراطورية الناشئة. لقد كان ذلك في الأساس حلا عربيا

للمشكلة، وليس من الغريب ان يكون وجها آخر للحل الذي ارتآه عثمان. ومن الواضح انه اصاب بعض النجاح. والحقيقة انه كان يمكن له ان يكون الحل الأفضل لأنه كان من شأنه ان يتيح للمؤسسات السياسية العربية ان تتكيف مع المشاكل السياسية الناشئة عن الفتوح. الا انه كانت هنالك في الامبراطورية مشاكل اجتماعية اخرى تتطلب حلولاً مباشرة. ومما يؤسف له ان معاوية لم يوجه اليها الاهتمام الكافي، او لعله كان عاجزاً عن وضع تسوية اخرى حكيمة بسبب تناقض المصالح بين المجموعات المتعددة في الولايات. وكان حله الوحيد هو المزيد من التوسع. ولكن هذا الحل لم يكن اكثر من تدبير مؤقت ادى في المدى البعيد الى زيادة المشاكل الاجتماعية لا الى ايجاد الحلول لها. والحقيقة ان عجز العرب عن ايجاد علاج للامراض الاجتماعية في الامبراطورية كان سبب اضطرار عبد الملك لاستخدام القوة العسكرية المجردة للمحافظة على حكمه. الا ان القمع المتواصل للمساوىء الاجتماعية او التخفيف المؤقت من حدة هذه المساوىء بواسطة حروب التوسع لم يكن لهما ان يحققا الاستقرار الاجتماعي الداخلي. ان هذا الاستقرار الذي هو الهدف الأساسي لأي نظام حكم فات ادراكه على آل مروان. اما محاولات الاصلاح القصيرة المدى التي قام بها عمر الثاني ويزيد الثالث فلم يكن لها اي تأثير سوى زيادة النقمة في صفوف المستائين. وكان على آل مروان ان يعتمدوا على القوة المجردة اكثر فأكثر لدعم حكمهم الذي صار يعتبر طغياناً مطلقاً من قبل خصومهم. يضاف الى ذلك ان هذا الطغيان كان مدعوما من قبل المجموعات ذات الامتيازات مما ادى بالطبع الى زيادة المرارة والعنف في صفوف المعارضة. ثم ان ثورة الجيش السوري على آل مروان افسحت في المجال لاسقاط نظامهم. ومع ذلك فان مروان الثاني كان يعمل على اعادة توطيد هذا النظام المكروه على نفس الأسس بالضبط. ولكن النقمة الاجتماعية اثبتت انها اقوى من جيشه الحسن التنظيم.

ان هذا الاستياء الاجتماعي كان له سبب آخر هو فشل الفاتحين العرب في الافساح في المجال امام قابلية الحركة داخل المجتمع في الامبراطورية التي افتتحوها واستوطنوها بعد ذلك. لقد كان باستطاعة الاسلام ان يوفر الاطار لبناء اجتماعي جديد في الامبراطورية، لكن فشل ذلك يعود الى التقاليد العربية والى العرب انفسهم. وقبل ان

يدرك العرب ان فتوحاتهم تشكل منجزات دائمة كانوا على استعداد للترحيب بين صفوفهم بكل من يعتنق الاسلام من الشعوب المغلوبة، حتى انهم كانوا مستعدين للقبول بالتعاون مع الذين تمسكوا بدينهم في محاربة اعدائهم المخيفين، اي البيزنطيين والساسانيين. لكنهم ما كادوا يدركون قوتهم ومنجزاتهم الرائعة حتى بدأ العمل على وقف عملية الانصهار العفوية. وعمد العرب الى البقاء منفصلين عن الشعوب المغلوبة، وحاولوا حصر استيطانهم في مدن الحاميات المبنية خصيصا لهذه الغاية، الا في سورية حيث كان قسم كبير من السكان المحليين عربا قد اعتنقوا الاسلام. وكان هذا الانفصال الاجتماعي قوة جامعة وحدت الفاتحين وعززت تمسكهم بما كانوا يعتبرونه ملكاً خاصا بهم بحق الفتح وقامت مصلحتهم المشتركة القوية على استغلالهم التام للبلدان التي افتتحوها والتي عزموا على استيطانها بصورة دائمة. وبصفتهم جيش احتلال لم يواجهوا اي ضغط للانصهار في البنية الاجتماعية في المناطق المغلوبة، ولكن الوضع كان يختلف اختلافاً جذرياً بصفتهم مستوطنين. فاذا ما اندمجوا، تم انصهار اعدادهم القليلة نسبيا مع الشعوب المغلوبة الكبيرة الأعداد، وادى ذلك بالتالي الى ضياع هويتهم والى فقدهم ثمار فتوحاتهم. فلا عجب اذا ان يكونوا قرروا فصل انفسهم والبقاء خارج البنية الاجتماعية للسكان المغلوبين. وكان هذا التدبير ملائما للفاتحين وللمغلوبين على السواء. الا ان الضغوط سرعان ما اخذت تتراكم من الجانبين مبددة النجاح الذي حققه هذا التدبير في البداية.

ومن ناحية اولى كان النازحون الجدد يتدفقون على مدن الحاميات، وكان قدومهم مؤشرا لبداية صراع طويل بين العرب انفسهم. واذا كانت مطالبة القادمين الجدد بحصة تكون اقرب الى العدل في مغانم الفتوح تحولت بسرعة الى تحقيق فتوح جديدة، فان ذلك ادى الى تكاثر مشاكل مدن الحاميات. لقد كانت هذه المدن تفقد طابعها العسكري وتتحول الى مراكز حضرية مزدهرة. ثم ان تراكم ثروات سكانها فتح آفاقا مدهشة للباعة لتأمين مواد الاستهلاك، وللتجار للاشتغال بعمليات القطع والصيرفة الواسعة المرافقة بالضرورة لتوزيع العطاء وتحويل خمس الغنائم الى الخزينة المركزية. ومع ان اهل مكة كانوا اول من استغل هذه الفرص فان سواهم من العرب سرعان ما اقتفوا آثارهم واكتشفوا ان النشاطات التجارية اكثر اغراء من عطائهم او من حصصهم من المغانم. ونشأ بالتالي بين عرب مدن الحاميات تردد متزايد في الاشتراك في الحملات

العسكرية. ثم ان هنالك بالطبع آخرين لم يتمكنوا من تدوين اسمائهم في الديوان او امتنعوا عن ذلك حرصا على الاحتفاظ بحرية التصرف. وباختصار كانت هنالك بين عرب مدن الحاميات عناصر اخذت تفقد حماسها للنشاطات العسكرية ثم تحولت بصورة تدريجية الى حياة مدنية. ومن المتوقع ان يكون لهذه العناصر موقف نحو الشعوب المغلوبة يختلف عن موقف العرب الآخرين الذين لم ينظروا الى انفسهم الا كفاتحين.

ولم يكن تدفق الناس على مدن الحاميات يقتصر على النازحين الجدد من العرب وحسب، اذ ان الكثيرين من غير العرب من المناطق المجاورة كانوا يتقاطرون الى هذه المراكز المدنية النامية بسرعة لاستغلال الفرص الاقتصادية الجديدة. وسواء كانوا حرفيين، او عمالا ماهرين او غير ماهرين، فان خدماتهم كانت مطلوبة. ولعل الأجور المدفوعة لهم من العرب الأثرياء كانت عالية. ثم ان التجارة المزدهرة في هذه المراكز كانت تجذب اليها الكثيرين من التجار المحليين من مراكز تجارية اخرى. يضاف الى ذلك ان الخراب الذي نجم عن الحروب الأهلية العربية والانتفاضات العديدة دفع الكثيرين من الفلاحين الى ترك الأراضي والانتقال الى المدن النامية بحثاً عن الأمن والعمل. وقد اسهم هؤلاء السكان المدنيين من غير العرب اسهاما كبيرا في تغيير طابع مدن الحاميات. كما ان سكناهم على مقربة شديدة من العرب ساعدت على تحطيم الحواجز بينهم وبين العرب، مع ان هذه الحواجز كانت الغاية الرئيسة من بناء مدن الحاميات. لقد بدأت عملية الانصهار والاختلاط في هذه القلاع العازلة. وفي مدى زمن لا يزيد عن جيلين كان الحجاج نفسه مرغما على التسليم بنجاح هذه العملية واعلان الكوفة والبصرة مدينتين غير عسكريتين.

لا تقوم اهمية حركة الانصهار على وقعها على السكان غير العرب بمقدار ما تقوم على ما لها من تأثير على العرب انفسهم. ولئن كانت هذه العملية حركة اجتماعية حية فانها كانت ايضا عملية بطيئة. وبذلك كان تأثيرها مقتصراً على أقلية من غير العرب. وقد بقيت هذه الأقلية بوجه عام خارج الصراع السياسي القائم بين العرب. ومن الهام ان نؤكد ان اشتراك غير العرب في الانتفاضات المتعددة في هذه الفترة ظل محصوراً بأدنى حد، وقليلاً ما كان يحدث فعلاً. والصورة التي ترسم في احيان كثيرة عن وجود صراع متأصل بين العرب وغير العرب في الامبراطورية غير صحيحة. لقد كان الصراع قائما بين العرب انفسهم حول الموقف الذي ينبغي اتخاذه من الرعايا غير العرب ومن قضية

الانصهار والدمج. فالقيسية، وهي مجموعة قوية متماسكة، رأت في هذه الحركة تهديداً لوضع الفاتحين العرب وقاومت بعناد كل نهج يؤدي الى المزيد من الانصهار والدمج. اما اليمنية فرأت انه من الأفضل استغلال هذه الحركة وتوجيه طاقاتها لصالح الامبراطورية وشعوبها كلها. ولذلك رضيت بالخطوات المتخذة في هذا الاتجاه، لا بل شجعتها في بعض الأحيان. ولما كان الانصهار يشجع في الواقع على دخول غير العرب في الاسلام فانه يمكننا ان نستنتج ان مؤيدي الانصهار كانوا في الأساس يعملون في سبيل حل اسلامي للمشاكل الاجتماعية في الامبراطورية بالمقارنة مع الحل القيسي العربي بالدرجة الأولى. مرة اخرى هنا، كما في قضية صلاحيات امير المؤمنين المثيرة للجدل، كان هنالك موقفان مختلفان يمكن تمييزهما، احدهما عربي بصورة واضحة وثانيهما اسلامي في الأساس. وقد أدى هذا الانقسام في الرأي حول قضيتين اساسيتين الى استقطاب موقفين سياسيين اجماليين هما الموقف العربي المحافظ بالمقارنة مع الموقف الاسلامي التقدمي. ولا حاجة بنا الى القول ان عمر الثاني كان يمثل الموقف الأخير.

ومع ان حركة الانصهار كانت قد مدت جذورها في جميع انحاء الامبراطورية فان تقدمها ومقاومتها كانا يختلفان بين منطقة واخرى. وفي هذا المجال، ولا سيما بالنسبة للثورة العباسية بصورة خاصة، كان لخراسان وضع خاص في تاريخ هذه الفترة. وقد شرحت تفاصيل الوضع في هذه المنطقة في مكان آخر. ويكفينا هنا لأغراض هذا الكتاب ان نشير الى خصائصه البارزة[١]. واول ما نتناوله منها هنا هو الجغرافية السياسية لخراسان والمشرق عند حدوث الفتح العربي. كان نهر مرغاب يشكل الحد الشرقي الأقصى للامبراطورية الساسانية، وهكذا فان خراسان كانت ولاية صغيرة لا تضم غير منطقة نيشابور وما جاورها مباشرة من مدينتي مرو ومرو الروذ. وللشرق من خراسان تقع اراض شاسعة تتوطنها شعوب كثيرة منها امارات طخارستان الممتدة على حوض نهر جيحون الى المنحدرات الشمالية من هندوكوش، وهي امارات عديدة يحكم كلا منها سيد عسكري، وتخضع كلهاللسلطة الاسمية للجبغو او لحاكم امارات طخارستان. وكان سكان هذه الامارات منقسمين الى بدو وانصاف بدو ومجتمعات مستقرة. وكان معظمهم هياطلة اصلا. ويختلف الباحثون حول ما اذا كان هذا الشعب تركيا او ايرانيا

---

١) Shabban: *The Abbasid Revolution* وكذلك شعبان، الدولة العباسية / الفاطميون، الأهلية للنشر التوزيع، بيروت، ١٩٨١.

في اصله. وحيال انعدام الاتفاق او وجود اي دليل حاسم يؤيد احد القولين، وفي ضوء عدائهم التقليدي لأتراك آسيا الوسطى، نميل الى اعتبارهم ايرانيين اصلا. وربما كان الأهم من هذا هو انهم كانوا بوذيين في غالبيتهم الساحقة. وعلى المنحدرات الجنوبية من هندوكوش فرع اخر من الهياطلة يعرف بالزابليين. كانت منطقتهم تدعى مملكة زابلستان وكان يحكمها ملك يدعى زنبيل. مرة اخرى كانت البوذية هي الديانة السائدة في هذه المنطقة الجبلية. والى الشمال من امارات طخارستان تقع بلاد السغد، وسكانها ايرانيو الأصل بكل تأكيد. وفي وادي زرفشان الغنية كان السغد منقسمين الى مدن دويلات يحكم كل منها امير. وبالاضافة الى ان هذه المدن الدويلات، ولا سيما سمرقند وكيش وبيكند، كانت مراكز زراعية فانها كانت ايضا مراكز للتجارة الصينية بين الشرق والغرب. وكانت الزرادشتية منتشرة بين السغد جنبا الى جنب مع المسيحية والمانوية. ثم ان الميزة المشتركة لجميع هذه الشعوب الواقعة الى الشرق من الامبراطورية الساسانية هي انها كانت، برغم احتمال تأثرها بالثقافة الساسانية، ذات مؤسسات اقتصادية وسياسية واجتماعية مختلفة.

بعد انهيار الحكومة المركزية الساسانية في الغرب كان احتلال العرب لخراسان امراً سهلاً نسبياً. فقد وصلت الحملة العربية الخاطفة عام ٦٥١م/ ٣١هـ الى الحدود الساسانية الشرقية، وكان استسلام قلعة مرو المكافأة الكبرى لهذا الجهد. وحيال زوال دعم الحكومة المركزية وجد القادة المحليون العاجزون في مقاطعات خراسان ومدنها، انه من المناسب ان يعقدوا معاهدات صلح منفردة مع الفاتحين. وعلى هذا الأساس كان العرب يأخذون ضريبة سنوية، وعهدوا بالمقابل بأن لا يتدخلوا بأي شكل من الأشكال بالبنية الادارية والاجتماعية والاقتصادية القائمة في المنطقة. وكان هذا يعني الاحتفاظ في خراسان بالنظام الساساني الذي كان الدهاقون، او النبلاء المحليون، يجنون منه أعظم الفوائد. وكان الدهاقون يملكون القسم الأكبر من الأراضي، وكانت مهمتهم الرئيسة فرض الضرائب وجمعها. وبالاضافة الى الموظفين ورجال الدين كان الدهاقون من اجزية التي يدفعها الفلاحون والحرفيون. والواقع ان عبء الضرائب كان ثقيلا على الفلاحين لصالح الدهاقين. وهكذا قام منذ البداية تحالف ضمني بين الفاتحين العرب والطبقات ذات الامتيازات التي ظلت تحكم هذه « المحميات » المنشأة حديثا بدعم من العرب.

وبالمقارنة مع كرمان حيث توافق استيطان العرب فيها مع الفتح من حيث الزمن، لم

يكن في خراسان في هذا الوقت اي استيطان عربي. وبعد احتلال الامبراطورية الساسانية كلها تقريبا قرر العرب، فيما يبدو، ان يتريثوا قبل الاقدام على مغامرات جديدة في بلدان جديدة. وكانت خطتهم ان يتركوا وراءهم حامية من ٤٠٠٠ جندي بعد كل حملة للمحافظة على المنطقة حتى موعد وصول الحملة التالية من البصرة. ومما له اهميته في هذا المجال ان معاهدة مرو كانت تنص على اسكان رجال الحامية في بيوت سكان القرى المحيطة بمدينة مرو.

وفي السنتين التاليتين (٦٥٢ ـ ٣م/ ٣٢ ـ ٣٣هـ) انجزت الحملات العربية احتلال الممتلكات الساسانية كلها، واغارت على اراضي الهياطلة تاركة هنا ايضا حامية وراءها تضمن السيطرة على الولاية حتى العودة. غير ان الحملات العربية على خراسان توقفت في السنوات الأخيرة المضطربة من عهد عثمان وخلال الحرب الأهلية الأولى، مع ان الحامية هناك كانت تستبدل بانتظام بجيوش جديدة من البصرة. ووقعت في هذه الفترة ثورات صغيرة. لكن حامية مرو كانت تتمكن من الاحتفاظ بالولاية. ولم تستأنف الحملات النشطة في خرسان قبل عام ٦٦٧ م/٤٧هـ بقصد تخفيف ضغط الهجرة الى البصرة بالدرجة الأولى. وبالنتيجة نجح العرب في السنوات الأربع اللاحقة بان يقوموا بغارات واسعة على اراضي الهياطلة وبضم بعض الامارات الى محمياتهم. على انه لم يستوطن اي عربي في اي مكان من خراسان قبل ان انهى زياد بن ابي سفيان اعادة تنظيم الكوفة والبصرة. وفي عام ٦٧١م/ ٥١هـ نظم زياد اكبر حركة هجرة جماعية في ذلك الوقت واعادة توطين ٥٠٠٠٠ عائلة من هاتين المدينتين العسكريتين في واحة مرو. ثم ان اشتراط معاهدة مرو على سكان القرى المجاورة وجوب تأمين السكن للعرب، شمل تأمين الاسكان القادمين الجدد، بصورة موقتة على الأقل، ريثما يتمكن هؤلاء من بناء منازل لهم. وكان لهذا التدبير ابعد الأثر على تطوير المجتمع الاسلامي. ولم تبن مدن حاميات لهذا الجيش الجديد في خرسان، ولعل ذلك يرجع الى انه تبين ان مدن الحاميات مشكلة من وجهة نظر الحكومة المركزية. وقد كان ذلك تجربة جديدة فريدة، ولم يكن للذين اشتركوا فيها ان يدركوا نتائجها او ان يتوقعوها. ومن المؤكد ان الحكومة كانت تهدف الى حماية الفتوحات التي تمت، والى توفير القوات للمزيد من التوسع. وكان على عرب خراسان، بصفتهم اعضاء في الديوان يتناولون العطاء، ان يشتركوا في الحملات السنوية خلال القسم الأكبر من السنة على ان يعودوا الى منازلهم في اشهر الشتاء الا انهم كانوا في بعض الأحيان يقضون اشهر الشتاء ايضا في الحملات. واسفرت هذه الحملات

المنتظمة عن فتح معظم امارات طخارستان وعن التوغل عميقا في بلاد السغد محققة بذلك مغانم كبيرة للعرب. على انه لم يستوطن فيها اي عربي برغم اقامة محميات عربية جديدة في الأراضي المفتوحة.

قطعت الحرب الأهلية الثانية هذه العملية، وتوقفت الحملات طيلة ١٤ عاما (٦٨٤ - ٦٩٦م/ ٦٤ - ٧٧هـ). وكانت للصراع في قلب الامبراطورية مضاعفات في خراسان ادت الى اقتتال داخلي بين انصار ابن الزبير وانصار عبد الملك. ومن المثير للسخرية ان عملية الانصهار مدت جذورها في واحة مرو بين العرب والسكان المحليين في هذه الفترة من عدم الاستقرار، اذ فضل قسم من العرب في خراسان ان يبقى خرج الاقتتال غير المجدي الذي لن يؤدي الا الى تهديد وضع العرب في هذه المنطقة الحدودية. وفي هذه الفترة الطويلة من انعدام النشاط العسكري على الحدود، لم يبق هؤلاء المحايدون بلا عمل، وانما توجهوا نحو النشاطات السلمية. وكانت مرو مركزا تجاريا هاما توفر لبعض هؤلاء فرصا مثمرة متلائمة مع ثرواتهم المتراكمة واتصالاتهم الواسعة ببقية انحاء الامبراطورية. وادرك التجار المحليون في مدينة مرو التجارية جدوى استغلال المجالات الايجابية، وبذلك توجه العرب لأول مرة نحو الحياة في المدينة نفسها. وعمد العرب الآخرون الذين ظلوا في القرى الى العمل في الأراضي الزراعية. والظاهر انهم كانوا شديدي الحرص على الحصول على هذه الأراضي حتى انهم قبلوا بدفع الضرائب المفروضة عليها، وهي ضرائب كان مفروضا ان تدفع من قبل اصحابها الأصليين، وكان الدهاقيون مسؤولين عن تحديد الضرائب وجمعها بموجب معاهدة مرو. وقد عنى هذا في الواقع ان بعض العرب الفاتحين صاروا خاضعين لسلطة النبلاء المحليين في شؤون الضرائب على الأقل. وكان هذا الوضع غير العادي دليلا ملحوظا على مدى الانصهار الذي كان يجري في مرو في هذا الوقت.

من المفيد ان نلحظ هنا ان بذور الانصهار اخذت تمد جذورها في فترة الغياب الكامل لسيطرة الحكومة المركزية وتوجيهها. وما ان اعيدت هذه السيطرة في ظل عبد الملك حتى استوؤنفت سياسة الحملات المتواصلة، وتوقف موقتا اندماج العرب بسكان مرو المحليين. وعوضا عن ذلك، وفي محاولة ربما كانت لصد هذه العملية، سمحت الحكومة في عام ٧٠٤م/٩٥هـ بتدوين اسماء جميع الأيرانيين من سكان مرو الذين اعتنقوا الاسلام في الديوان، وعرض عليهم العطاء شريطة ان ينضموا الى المقاتلة، اي

الجيش العربي في خراسان. وقد يبدو ان هذا التدبير من جانب الحكومة كان يستهدف صهر الايرانيين بالسكان العرب. ولكن هذا التدبير المنفذ تحت امرة الحجاج لا يمكن ان يكون هادفا الى مثل ذلك. لقد كانت الغاية منه وضع حد لاستمرار الانصهار. وليس سرا ان يكون دخول الايرانيين في الاسلام قد ظل محدودا، وان عدد الذين دانوا بالاسلام لم يكن ليزيد كثيراً عن ٧٠٠٠ رجل، هم الذين نجدهم بعد عشر سنوات في جيش قتيبة بعد ان كان هذا التدبير قد طبق في المنطقة بكاملها.

والحقيقة ان تدابير مشددة اتخذت في عهد ولاية قتيبة (٧٠٥ ـ ١٥م/٨٦ ـ ٩٦هـ) لوقف عملية الانصهار والدمج وقفا كاملا. لقد كانت لهذه الفترة ميزتها من الناحيتين العسكرية والتنظيمية معا. فقد امتدت فتوحات قتيبة الى قلب آسيا، وكان لاعادة تنظيم جيش خراسان على يديه تأثير عميق على حياة جميع المعنيين. واخذ قتيبة تنظيم البصرة نموذجا يحتذى به، فقسم العرب في خراسان الى خمس مجموعات على أسس قبلية. ثم عزل الموالي، او المسلمين غير العرب، في قسم خاص في جيشه بدلا من السماح لهم بالانضمام الى القبائل او البطون التي يفترض ان يكون هؤلاء الموالي تابعين لها. وكانت غايته اعطاء الوالي الحد الأقصى من السيطرة على العرب والموالي. ثم كان بوسع الوالي ان يوقف اي انصهار بين الفئتين بمواصلة اشغالهم بالمعارك. وفي سبيل تأمين نجاح هذه التدابير ومتابعة سياسته القائمة على التوسع الذي لا حد له، طلب بالاضافة الى هؤلاء، مجندين من غير المسلمين من سكان خراسان والمناطق المجاورة. وكان هؤلاء المجندون يشتركون في الحملات العسكرية في الربيع ويعودون الى منازلهم في الشتاء. وبصفتهم غير مسجلين في الديوان وفروا على قتيبة منحهم أي عطاء. ومثل هذه الخطوة كان يتعذر تنفيذها في خراسان على الأقل لولا التعاون الكامل من قبل الدهاقين الذين كانت مصالحهم مرتبطة بذلك بصورة مباشرة. وهنا يجب ان نتذكر دائما ان العرب ابقوا على البنية الاجتماعية الساسانية التي بموجبها تمتع الدهاقيون بامتيازاتهم. ان كل تغيير في هذا البناء الاجتماعي كان يمثل تهديداً قوياً لأوضاعهم المميزة. اما انصهار بضعة آلاف من الموالي في الجيش العربي فلا يمثل مثل هذا الخطر، ولعل الدهاقين كانوا يشجعون على مثل هذا الانصهار للتدليل على تعاونهم مع الحكام العرب. غير ان انصهار العرب بالسكان المحليين من شأنه ان يؤدي، اذا استمر، الى تغيير اساسي في بنية المجتمع اذ ان هؤلاء العرب المدموجين بالسكان المحليين لا يمكن ان يظلوا خارج البنية الاجتماعية الى ما لا نهاية له، ولا بد عندئذ من ايجاد مكان ملائم

لهم في داخل البنية. ومن شأن ذلك ان يؤدي في النهاية الى الغاء سلطة الدهاقين على رعيتهم وان يضع حدا لامتيازاتهم. لذلك كانت مصلحتهم تقضي بالتعاون مع قتيبة وبتشجيع سياسة التوسع املاً بابقاء العرب الذين لم ينصهروا في المجتمع الجديد كقوة مقاتلة منهمكة بالحروب باستمرار. ثم ان التعاون كان يتم على حساب الرعايا الايرانيين الذين لا مبرر لديهم للاسهام في المجد العسكري العربي ازاء اهمال مصالحهم الحقيقية اهمالا تاما. ان غيابهم عن منازلهم وانقطاعهم بالتالي عن عملهم المنتج طوال القسم الأكبر من السنة ينزلان الضرر البالغ بحالتهم الاقتصادية دون ان ينالوا اي فائدة ظاهرة بالمقابل. واذا كانت حروب قتيبة قد عادت على خراسان بكمية كبيرة من الغنائم فانها ادت مع ذلك الى حرمان الريف من الأيدي العاملة اللازمة، وبالنتيجة قيام اقتصاد حربي واحداث تضخم اديا بدورهما الى ارتفاع سعر القمح. وكان المجندون من خراسان اول من تضرر بهذا الوضع كما كانوا ايضا اول من شكا منه. واخيراً سئم العرب والموالي جميعاً الحملات المتتابعة وتعاونوا معا عندما سنحت الفرصة الأولى وهم في حملة فرغانة فأقدموا على خلع قتيبة وقتله ليرجعوا الى بيوتهم. كان ذلك نقطة تحول في تاريخ العرب في خراسان.

ارتدت مواصلة السياسات التوسعية المفرطة على مؤيديها الداعين لها. ونتج عنها المزيد من التعاون بين العرب والايرانيين، وكان اغتيال قتيبة بالتالي نذيرا للدهاقين بما في صفوف رعاياهم من حقد ومن قوة كامنة. لقد برزت قضية الانصهار برمتها امام العرب بروزا واضحة، كما ازداد وضوح المسائل المتصلة بها للمعنيين جميعا. وكان من المحتم حيال ذلك ان تسارعت حركة الانصهار والاندماج.

وحين جاء عمر الثاني الى الحكم في عام ٧١٧ م / ٩٩ هـ كانت، خراسان توفر له ظروفاً مثالية لتنفيذ مشاريعه لاعادة بناء امبراطورية اسلامية. وهنالك في مرو وقراها المجاورة كانت مجموعة عربية كبيرة نسبيا تعيش منذ نحو نصف قرن على مقربة شديدة من سكان ايران الأصليين. ولم يكن بوسعه ان يتجاهل هذا الاتجاه الآخذ بالترسخ بين العرب نحو الانصهار والاندماج. يضاف اليه ان الايرانيين كانوا يتعاونون مع العرب، كما ان الاسلام كان قد مد جذوره في اوساطهم. وبقليل من التشجيع كان يمكن تحقيق الانصهار التام بين المجتمعين، وكان يمكن لذلك ان يكون نموذجاً صالحاً للامبراطورية كلها. وكان قرار عمر بوقف الحملات العسكرية على هذه الجبهة تنازلاً واضحاً امام العناصر المعادية للتوسع. ثم ذهب الى ابعد من ذلك واعلن سحب الحاميات العربية

التي كانت ترابط في بخارى وسمرقند اثناء ولاية قتيبة والظاهر انه كانت بين أهل السغد مقاومة قوية للحكم العربي فجاء عمر الثاني، ادراكا منه لهذا الواقع، يعمل على اعادة توطيد العلاقات السلمية معهم. طبعا ان مثل هذه العلاقات ذات منفعة كبيرة لجميع المهتمين بالتجارة من الطرفين، فكأن عمر الثاني كان، بكلام آخر، يمهد السبيل امام عرب خراسان للتحول كليا عن النشاطات العسكرية الى النشاطات السلمية. ولتشجيع انصهار الأرانيين بالعرب الذين يعيشون بين ظهرانيهم منح عمر الثاني المسلمين الايرانيين المساواة الكاملة باخوانهم المسلمين العرب في شؤون الضرائب والعطاء. ولم يكن مقدرا لمثل هذه التدابير ان تأخذ مداها في عهده القصير لكن الشيء الهام هو انها اعطت حركة الانصهار دفعا عظيما الى الأمام، ووضعت الخطوط العامة لمشروع قابل للحياة يؤدي الى نجاحه في النهاية. وليس من الغريب ان تذكر لنا مصادرنا بصورة عدائية ولو ملطفة، ان حركة ثورية بدأت في مرو في عام ١٧١٨م / ١٠٠هـ.

ان الحركات الثورية على كل حال تنطلق عادة من قبل اقلية صغيرة في وجه ارادة الأكثرية العنيدة. ولم تكن هذه الثورة الخاصة في مرو لتشكل اي استثناء. فقد كانت اقلية من العرب فقط على استعداد للتنازل عن امتيازاتها في سبيل الانصهار والاندماج. اما الأكثرية فقد واصلت التمسك بامتيازات الفاتح وبديمومة ظروف الفتح غير الطبيعية. ومع ان هذه الأكثرية كانت تتمتع بتأييد كامل من الدهاقين فان الفئتين معا كانتا تخوضان معركة خاسرة في وجه قوى الانصهار التقدمية. واذا كانت الحملات العسكرية قد استؤنفت بعد وفاة عمر الثاني، فقد كان هنالك تردد ملحوظ من قبل بعض العرب في الاسهام بها، حتى ان ظهور خطر الترقش في بلاد السغد لم يقنع المقاتلين المترددين بضرورة الاشتراك في بذلك الجهود لصد العدو. كان لا بد من استعمال القوة لاقناعهم. وسرعان ما تبين انه لا جدوى من محاولة وضع حد لهذا الاتجاه، فقرر هشام الرضوخ لحركة الانصهار، وسمح لعدد كبير من العرب، بلغ نحو ١٥٠٠٠، بالانسحاب من جيش خراسان والاستقرار في الحياة السلمية التي يريدها. على انه في الوقت ذاته استبدل هذا العدد، كما شرحنا من قبل، بعشرين الف مجند جديد من العراق في عام ٧٣٢م/ ١١٣هـ. ومع ان هذه الخطوة ساعدت على مواجهة خطر الترقش فانها لم تحل قضية خراسان الخاصة، اي وجود مجموعتين عربيتين متناقضتين كليا في مرو. وتتألف المجموعة الأولى، او المضرية، من قدماء المقاتلة الذين كانوا يتراجعون باستمرار امام قوى الاختلاط والانصهار ويزدادون تخوفاً على وضعهم في

الولاية. وكانوا يفضلون الابقاء على الوضع القائم باي ثمن كان، كما كانوا مدعومين من قبل الدهاقين الذين كانوا يشاركونهم قناعتهم. وتتألف المجموعة الثانية من العرب الذين اندمجوا بالسكان. وسندعو هؤلاء بالمستوطنين. كانت اعدادهم تتزايد باستمرار ولا سيما بعد اعتراف هشام بوجودهم. ولم يفقد هؤلاء امتيازاتهم كأعضاء في الطبقة العربية الحاكمة وحسب، ولكنهم اضطروا ايضا للقبول بسلطة الارستقراطية غير الاسلامية في مرو وهي التي شكلت الادارة المحلية وتمتعت في ظل الحكم العربي بوضعها السابق للاسلام. وكان الوضع الاجتماعي لهؤلاء المستوطنين في الواقع كوضع الفلاحين في اسفل البناء الاجتماعي في العهد الساساني. ان هذا الحل الساساني في طبيعته لقضية عربية كان مناقضا بصورة فاضحة للحل الاسلامي الذي بدأه عمر الثاني، ولم يفقد تأثيره على المستوطنين بعد وفاته. وبين المضرية والمستوطنين كان المقاتلة اليمانية وهم آخر النازحين الى مرو. وفي ظل ترتيبات الوالي اسد القسري، وهو من اليمانية، تعاون هؤلاء مع الهياطلة بنجاح للتغلب على الترقش. وفي حين كان هؤلاء يشكلون خطرا على وضع المضرية في الولاية فانهم لم يعترضوا على المزيد من التعاون مع الرعايا غير العرب. لقد كانوا بذلك اقرب الى وجهة نظر المستوطنين.

وحيال الاضطراب الذي ساد قلب الامبراطورية بعد وفاة هشام، اصيب مقاتلة المضرية بقيادة المحارب القديم نصر بن سيار، بالذعر فاستولوا على مقاليد الأمور متحدين الحكومة المركزية خلال عهد يزيد الثالث (٧٤٤م /١٢٦هـ) القصير. وادى فشل جميع الانتفاضات في وجه المروانيين وتوطيدهم حكمهم في عهد مروان الثاني، الى اقناع المستوطنين بان ثورة مسلحة منظمة تنظيما جيداً هي السبيل الوحيدة لخلع نير ظالميهم. وفي هذه الأثناء كانت طبيعة هذا الوضع المتفجر في مرو والطاقات الكامنة التي يمكن له ان يطلقها، قد برزت الى حيز الوجود بواسطة مجموعة صغيرة من الثوار في الكوفة، تسمى الهاشمية. وظلت هذه المجموعة طوال ما يزيد عن ربع قرن تدعو الى قضيتها بين المستوطنين في مرو حتى نجحت اخيرا في تحويل ثورتها المحلية الى ثورة شاملة قضت على حكم المروانيين.

الهاشمية هي احدى الحركات الشيعية الكثيرة التي نشأت في الكوفة في أواخر العهد الأموي. ومع ان اهل الكوفة كانوا قد اثبتوا معارضتهم القوية للحكم الأموي فان دعمهم للانتفاضات الشيعية كان غير موثوق به على الاطلاق. ان فشل ثورة زيد بن علي في الكوفة عام ٧٤٠م / ١٢٢هـ برهان كاف على هذه الحقيقة وعلى تمكن الحكومة من

السيطرة على المدينة. ومع ذلك فقد كان هنالك ما يكفي من الامتياء والشعور المعادي لبني امية مما يتيح للنشاطات الشيعية ان تقوم فيها. طبعاً ان مثل هذه النشاطات السرية كانت محدودة جداً وغير مؤثرة بوجه عام ولكنها ادت الى نشوء فرق شيعية صغيرة. وليس من الواقعية في شيء ان نحاول تحديد الأصول الدينية لهذه الفرق المتعددة في هذه المرحلة التكوينية، كما انه ليس من الحكمة ان نسمح لأنفسنا بالانجراف وراء الشروح المتعددة التي وضعها مؤرخو البدع المسلمون فيما بعد. والأجدى من ذلك بكثير هو ان نحلل اي معلومات خاصة يمكن ان نحصل عليها من مصادر تاريخية موثوقة لشرح نشاطات هذه الفرق.

تجمع الفرق الشيعية كلها على ضرورة وجود امام في منصب امير المؤمنين، اي انها تريد للامة الاسلامية قائداً يملك صلاحيات زمنية ودينية معاً. ثم انها تتفق أيضا على ان هذا الامام يجب ان يكون احد ابناء بيت الرسول اي من آل البيت. اما خلافاتهم فتتركز حول الاختيار الفعلي للامام، وطريقة تنصيبه في مركز امير المؤمنين، وطبيعة ومدى الصلاحيات الزمنية والدينية الممنوحة له. وكان وجود شخص من بيت الرسول على استعداد لقيادة الحركة او لاعارتها اسمه على الأقل، هو العامل الذي يحدد مدى قربه أو بعده في انتسابه لهذا البيت. وهكذا فان بعض الفرق كانت تدعو الى المتحدرين من الرسول مباشرة بينما اكتفت فرق اخرى بالدعوة لأبناء عمومته على درجات القرابة المختلفة. الا انه ينبغي ان نلحظ ان بعض الفرق لم تكن تجد صعوبة في نقل ولائها من عضو الى آخر في بيت الرسول. اما الوسيلة التي تنتهجها كل فرقة لتحقيق قضيتها فكانت تفرضها عليها ظروفها. وكان بعضها يفضل الثورة المسلحة، حتى الارهاب ايضاً، بينما كان البعض الآخر يدعو الى استخدام وسائل سلمية. وكان علي بالنسبة للشيعة جميعا امير المؤمنين والامام المثالي الذي يستخدم معرفته او «علمه» لحل مشاكل المجتمع الاسلامي. ثم صار هذا العلم حجر الزاوية في الفكر الشيعي. وكان المعتقد السائد ان هذا العلم متأصل في ابناء علي، ملازم لهم، او منتقل فيهم على الأقل من جيل الى جيل. وحيال وجود الكثيرين من المتحدرين منه ومن اعمامه ممن يدعون مثل هذا العلم الخاص، فقد اختلفت وسيلة اكتساب العلم بين فرقة واخرى. الوراثة، والحدس، والوحي، او الانتقال العادي، كلها وسائل لنقل هذا العلم من الامام الى خليفته المختار. وطبيعي ان يؤدي مثل هذا التفريق الى تضييق الصلاحيات الدينية عند الامام المعني أو توسيعها، وان يكون له بالتالي تأثير مواز على صلاحياته الزمنية عند تنصيبه اميراً

للمؤمنين. غير ان قضية الصلاحيات الزمنية هذه كانت بوجه عام تؤجل حتى نجاح الحركة المعنية، ولو انه كان هنالك فيما يرجح تفاهم عام على ان الصلاحيات ينبغي ان تكون اضيق من صلاحيات آل مروان الاستبدادية الى حد بعيد.

في هذا الاطار العام من التفكير الشيعي تأسست فرقة الهاشمية في الكوفة بين عامي ٧٠٠م / ٨١هـ و ٧١٦م/ ٩٨هـ. واخذت اسمها من امامها المعترف به ابي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، الابن الثالث لعلي. وكان محمد بن الحنفية هذا (المتوفي عام ٧٠٠م /٨١هـ) قد اعلن مهديا من قبل المختار في ثورته في الكوفة (٦٨٤ ـ ٧م / ٦٤ ـ ٧هـ). كما كان قد وافق بصورة غامضة فقط على اعارة اسمه للثورة من غير ان يكون له بها اي علاقة اخرى. ان معلوماتنا عن نشاطات ابي هاشم قليلة جداً، وهي لا تمكننا من معرفة ما اذا كان قد واصل ادعاءات والده، أياً كانت حقيقتها، ام انه اكتفى كوالده بالموافقة بشيء من الغموض على اعارة اسمه للمجموعات الشيعية في الكوفة. والحقيقة ان اكثر من مجموعة واحدة من هذه المجموعات اعلنت ابا هاشم اماماً حقاً بعد وفاة والده. والظاهر ان الهاشمية كانت الفرقة الشيعية الكوفية الوحيدة التي ظلت تدعو له بينما نقلت الفرق الأخرى ولاءها الى اعضاء آخرين من بيت الرسول. ولعله ينبغي ان نلحظ ان الهاشمية حافظت على سريتها التامة بينما اكتشفت السلطات الفرق الشيعية الأخرى في الكوفة واعدمت قادتها.

وفي عام ٧١٦م / ٩٨هـ قام ابو هاشم الذي لم يعش في الكوفة ابدا، بزيارة الى سورية. وفي طريق عودته الى موطنه في الحجاز، توفي في فلسطين في منزل علي بن عبد الله بن عباس، وهو ابن العم الثالث لأبيه، وحفيد العباس عم الرسول. ومن هذه المصادفة غير المتوقعة الى اقصى حد نشأت قيادة جديدة للهاشمية لأنه يروى ان ابا هاشم اوصى قبل مماته بالامامة لابن مضيفه محمد بن علي. وسواء صحت هذه الرواية ام لم تصح فان ذلك ليس بالأمر البالغ الأهمية. ان الامر الهام هو ان محمداً بن علي ورث امامة ابي هاشم وتسلم معها منظمة الهاشمية السرية في الكوفة. ولم يجد انصار هذه الفرقة صعوبة في نقل ولائهم من فرع الى آخر من بيت النبي. وكان ابناء العباس الذين يتمتعون بسمعة طيبة، قد امتنعوا حتى الآن عن التورط بالدعوة الشيعية مع انهم لم يكونوا على علاقة ممتازة بآل مروان. وكان علي بن عبد الله بن عباس، باتخاذه مقره بالحميمة في فلسطين بعد الحرب الأهلية الثانية، يعبر في الواقع عن استعداده للعيش بسلام مع النظام الجديد. ولعله لم يكن مقتنعاً بان لعائلته حقاً باعتبار افرادها من

اعضاء آل البيت، او بان مثل هذا الإدعاء يمكن ان يلقى اي دعم. على انه من الواضح ان ابنه محمداً كان ذا رأي آخر، وهذا يفسر استعداده لقبول وصية ابي هاشم له في حياة والده.

عمد امام الهاشمية الجديد، محمد بن علي، الى تحويل هذه المنظمة السرية الصغيرة الى اداة للحزب العباسي. وابقيت عضويتها في الكوفة محدودة جداً، اذ لم تزد ابداً عن ثلاثين رجلا من عرب وموال. وكان العديد من هؤلاء يعملون في التجارة بين العراق وسورية والحجاز وخراسان، مما كان يتيح لهم مجال التحرك بسرية قصوى، ويساعدهم على جمع المعلومات القيمة عن الحالة في جميع انحاء الامبراطورية. وعرفوا من اتصالاتهم هذه في مرو حقيقة الحالة فيها وقرروا بالتالي ان مرو هي الميدان الأفضل لنشاطاتهم. وما ان اتخذ هذا القرار حتى وضعت الترتيبات لتنظيم قاعدة ثورية في مرو بالذات. ومنذ نحو ٧١٨م/١٠٠هـ صار دعاة الهاشمية يبعثون اليها من الكوفة لمباشرة حملة دعائية مكثفة. وبرغم افتضاح امر عدد من العملاء واعدامهم في مرو في عام ٧٣٦م/ ١١٨هـ، فان قادة الحركة لم يقنطوا بل تابعوا في الواقع تكثيف جهودهم.

وبعد وقت قليل، ارسل قائد المنظمة في الكوفة، بكير بن ماهان الى مرو للاشراف على انشاء منظمة سرية مماثلة فيها. وانتخبت هيئة من ١٢ نقيباً او داعية بارزين من العرب المستوطنين فيها. ولعل واحداً منهم كان من الموالي. واختير سليمان بن كثير الخزاعي لرئاسة هذه المنظمة الجديدة. وفي الوقت ذاته تم تعيين ٥٨ داعية، منهم ٤٠ للعمل في مرو نفسها و١٨ للعمل في مواقع مختلفة في خراسان. وكان جميع هؤلاء الدعاة من العرب المستوطنين في مرو. ومن الواضح ان جميع الجهود كانت تتركز فيها. اما الاتصال بالامام في الحميمة فكان يتم عبر الكوفة فقط. وكان اسم الامام مكتوما، واتيح فقط للقليل من قادة منظمة مرو ان يجتمعوا به في موسم الحج لتقديم تبرعات انصارهم. وظل بكير داعية الامام في مرو حتى وفاته عام ٧٤٣م / ١٢٥هـ. واستلم ابنه ابراهيم قيادة الحركة من بعده.

جاء تسلم الامام الجديد ابراهيم للقيادة متفقا من حيث الزمن مع انهيار النظام المرواني بعد موت هشام. فدعا انصار الامام في مرو الى العمل الفوري لاستغلال هذا الوضع، لكن القيادة في الكوفة اشارت بالتريث. وفي عام ٧٤٤م / ١٢٦هـ قدم ابو سلمة الخلال، القائد الجديد في الكوفة بعد وفاة بكير بن ماهان، الى مرو للاشراف على

الموقف فيها. وكان بصحبته شاب من المؤيدين يدعى ابا مسلم. وبعد ان قضيا اربعة اشهر في مرو عادا معا الى الكوفة وتركا سليمان بن كثير مسؤولاً عن المنظمة في مرو. الا ان الاحداث في قلب الامبراطورية كانت تجري بسرعة. وهنا قررت قيادة الحركة ان الوقت قد حان للقيام بثورة علنية. وفي عام ٧٤٦م/ ١٢٨هـ وصل ابو مسلم الى مرو ثانية بصفته مندوباً شخصياً للامام ليكون مسؤولاً عن الثورة المنوي اعلانها. واعترض سليمان بن كثير على ذلك لكن رفاقه وقفوا في وجهه مناصرين ابا مسلم.

ولعله يجدر بنا، قبل الانتقال الى البحث في مرحلة الثورة المكشوفة، ان نتوقف هنا للتأكيد على حملة الدعاية المحكمة التي نظمت بدقة متناهية لاستغلال كل ناحية من نواحي الوضع. ومما يحمل على تقدير كفاءات قادة الحركة، لا سيما ابي سلمة، ان المسرح هيء تهيئة كاملة لنجاح الثورة، لا في مرو وحسب ولكن في بقية انحاء الامبراطورية ايضا. فقد استخدمت بمهارة كل اشارة ممكنة الى الغيبيات الاخروية في ذلك الوقت لاعلان اقتراب الثورة المرتقبة. وكانت الرايات السوداء قد رفعت من قبل المتمردين السابقين، واكتسبت معنى دينياً ايحائياً. اما الآن فقد تبنتها الثورة شعاراً خاصاً بها. وانتشرت على نطاق واسع اساطير ونبؤات حول معنى ظهور الرايات السوداء في الشرق، ودلالة على نهاية العهد الأموي. وصيغت شعارات للدعوة للقضية، ولاجتذاب كل الفئات في الامبراطورية. ثم ان التأكيد المتواصل من قبل الفرق الشيعية على حقوق افراد آل البيت، واستشهاد عدد منهم على ايدي بني امية، ربطا بين قضيتهم وقضية العدالة في اذهان الكثيرين من المسلمين. واستغلالاً لهذا الشعور العام قامت الدعوة للثورة الوشيكة باسم « الرضى من آل محمد »اي باسم فرد من آل بيت الرسول يكون مقبولا من الجميع. وكان هذا الشعار دعوة لتوحيد الشيعة في الامبراطورية للقتال من اجل القضية، ودليلا على ان الاتفاق على امام امير للمؤمنين لن يكون صعبا عند نجاح الثورة. ثم ان ما يتضمنه هذا الشعار من انكار للذات من قبل الامام العباسي احدث تأثيراً مرضياً بين المسلمين بصورة عامة.

غير ان الخطوة التي بلغت الحد الأقصى من الروعة والاهمية بقصد كسب تأييد المسلمين، من عرب وغير عرب، كانت اختيار ابي مسلم لقيادة الثورة في هذه المرحلة الحركة العلنية. لا شك انه كان في مرو رجال آخرون مؤهلين للقيام بهذه المهمة، كما انه كانت هنالك مجازفة في هذه الدعوة للخضوع لرجل غريب كليا. ومع ذلك فقد اتخذت

هذه المجازفة. ان اصل هذا الرجل الغريب، حتى اسمه الحقيقي، كانا مكتومين عن قصد، الى حد ان مصادرنا لا تتفق على اي تفاصيل بشأن حياته الأولى. وقد بذلت جهود اكيدة لابرازه بصورة جديدة. وكان المفتاح الاسم المتحل الذي عرف به، اي ابو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني. ويمثل هذا الاسم رجلا مسلما هو ابن لمسلم واب لمسلم. ولم ينسب هذا الرجل نفسه الا الى خراسان فقط، لا الى قبيلة او بطن من قبيلة، كفرد منها او كمولى لها،على ما جرت العادة عليه آنذاك. وكان هذا الاسم الموضوع افضل شعار ممكن للثورة التي كلف ابو مسلم بقيادتها. لقد كان برهانا حيا على ان كل عضو في المجتمع الجديد سينظر اليه كمسلم بصرف النظر عن اصوله العرقية او صلته القبلية. وبكلام آخر كان قادة الثورة يقدمون اوضح اثبات ممكن على التزامهم التام بالاختلاط والانصهار.

ولما نشر ابو مسلم الرايات السوداء بصورة علنية في عام ٧٤٧م /١٢٩هـ في قرية من قرى مرو، انضم اليه على الفور نحو الفي رجل من « اهل التقادم »، اي العرب المستوطنين في القرى المحيطة بمرو. وفي خلال مدة تزيد قليلا عن شهر ارتفع عدد الجيش الثوري بقيادة ابي مسلم الى سبعة آلاف رجل، فامر بتسجيلهم في ديوان جديد على اساس اسمائهم واسماء آبائهم وقراهم. وبذلك تحقق الانصهار التام لأول مرة في هذا الجيش الذي دعي بالخراسانية.

وجاء توقيت اعلان الثورة عاملاً هاماً في نجاحها، اذ انه تم في وقت كان الصراع الداخلي على السلطة بين مقاتلة خراسان قد ادى الى انهاك جميع فئاتهم. ولما تم تثبيت نصر بن سيار واليا من قبل مروان الثاني في عام ٧٤٥م/ ١٢٧هـ قام اليمنية على الفور بعصيان بقيادة جديع بن علي الكرماني معتبرين التثبيت تحديا لسياساتهم الناجحة هناك. وكانت آمالهم قد ارتفعت بتعيين منظور بن جمهور، وهو من اليمانية،واليا في عهد يزيد الثالث القصير(٧٤٤م /١٢٦هـ). لكنها صدمت حيال تحدي نصر واغتصابه السلطة. وكانت لدى نصر، على كل حال، قوة كافية لاحتواء ثورتهم، موقتا على الأقل. ثم عمد نصر بن سيار في سبيل زيادة حماس انصاره الى تعيين قادتهم عمالاً له في المناطق المختلفة في الولاية. على ان هذه الخطوة كانت ذات تأثير عكسي اذ انها اضعفت قوته العسكرية لأن هؤلاء العمال اصطحبوا معهم الى مناطقهم قسما من انصارهم. ثم قام بخطوة اخرى ولعله قصد بها تعزيز مكانته بين انصاره المضرية، ولكنها كانت خطأ خطيرا. فقد تذكر

نصر بن سيار رجلاً منسياً منذ زمن، هو الحارث بن سريج الذي كان قد لجأ الى الترقش منذ اكثر من عشرة اعوام، ودعا هذا المضري المتطرف الى العودة الى مرو في عام ١٢٧/٧٤٥ آملا ان يعمد الحارث الى دعم جهوده. ولكن الحارث خيّب امل نصر بن سيار اذ انه راح يعمل على استغلال الوضع في مرو لصالحه. وسرعان ما اندلع القتال بين الاثنين. وازداد الوضع تعقيدا حين اشترك اليمنية في القتال. ومع ان الحارث صرع في المعركة عام ٧٤٦م/١٢٨هـ فان القتال استمر في مرو بين المضرية واليمنية. وقد كانت هذه الفئة الأخيرة تعززت بانضمام بعض المستوطنين العرب اليها قبل اعلان الثورة. ونجح ابو مسلم، وهو على رأس جيش منظم قبل زمن قصير، بتوجيه الصراع في مرو لصالح الثورة بصورة حاسمة. وبعدقتالمتقطع انتقلت فيه مرو من جانب الى جانب اكثر من مرة، برز ابو مسلم المتحالف مع اليمنية، سيد الموقف في عام ٧٤٨م/ ١٣٠هـ. وفرّ نصر بن سيار برغم سنه المتقدمة الى نيشابور حيث راح يخطط لمواصلة القتالَ ضد الثورة. وفر حلفاؤه دهاقين مرو وبعض مواليهم الى بلخ حيث انضموا الى عمال نصر في هذه المدينة والمناطق المجاورة لها في محاولة لوقفة اخيرة في وجه ابي مسلم وقواته.

بعد دخول مرو دعا ابو مسلم انصاره لاعلان ولائهم للرضى، اي لعضو مقبول من بيت الرسول. ومما له مغزاه انه لم يكن احد اليمنية بين اولئك الذين ادوا يمين الولاء هذه. مع ذلك فقد كان لا بد من المحافظة على التحالف بين جيش الثورة واليمنية في خضم الاخطار كلها. والواقع ان وجود مثل هؤلاء الحفاء الأقوياء الى جانب ابي مسلم مكنه من ارسال جيش الثورة في مهمته الأساسية في السيطرة على الانحاء الأخرى في الامبراطورية. وسرعان ما بدأ جيش الخراسانية بقيادة قحطبة بن شبيب، احد القادة البارزين بين العرب المستوطنين، بزحف ظافر نحو الغرب في عام ٧٤٨م/ ١٣٠هـ وراح يكسب المزيد من الدعم في زحفه. وفي اقل من سنتين، اي في اوائل عام ٧٥٠م/ ١٣٢هـ دخل الكوفة وقد هزم ما لا يقل عن ثلاثة جيوش مروانية واستولى على جميع الأراضي في طريقه. وفي هذه الأثناء، تمكن ابو مسلم بعد مواجهة عدة مصاعب، من ان يتخلص بمساعة اليمنية من جيوب المقاومة كلها، وان يثبت نفسه سيدا وحيدا في الشرق.وعند هذا الحد لم يعد يصعب عليه ان يتخلص من قادة اليمنيةوانيدمج قواتهم في جيشه. ثم اتخذ لنفسه لقب امير آل محمد، وهدفه من ذلك ان تكون له صلاحيات

واسعة في شؤون الامبراطورية كلها لا ان يكون واليا على الشرق وحسب. والحقيقة انه ظل على اتصال وثيق بالتطورات الجارية في الكوفة بواسطة عميله ابي الجهم بن عطية، وهو الذي عينه ابو مسلم « مفوضا سياسيا » في جيش الثورة الزاحف، ثم ظل يحتل هذا المنصب بعد الاستيلاء على الكوفة.

ودخول الكوفة استقبل الجيش الظافر من قبل ابي سلمة الذي نصب في الحال وزيراً لآل محمد. ثم تسلم الجيش مقاليد الأمور على الفور. ولم يكن هنالك بالطبع اي ذكر لامام كما لم يكن هنالك اي مجال لاستلام السلطة من قبل ابي سلمة. ان اقصى ما بلغته مسؤوليات ابي سلمة هو اعطاؤه مسؤوليات رئيس موقت للدولة في مرحلة ثورية. ومع ذلك فان الجيش لم يكن تحت سيطرته الكلية اذ ان السيطرة الحقيقية بقيت لأبي الجهم عميل ابي مسلم. وبكلام آخر، كان هذا الأخير يمثل قوة الثورة العسكرية بينما كان ابو سلمة يوجه منظمة الهاشمية المدنية من الكوفة. وكان الطرفان متعاونين حتى الآن تعاونا كاملا. ولكن القضية الملحة كانت بالطبع اختيار رجل من آل البيت يكون مقبولاً لدى الجميع لتنصيبه اميراً للمؤنين. ومع ان اسم ابراهيم، امام الهاشمية، كان يتردد بين الثوار في هذا الوقت، فالراجح ان اسمه كان يتردد كمرشح محتمل فقط لهذا المنصب الأعلى. ومن المؤسف ان سلطات بني مروان اكتشفت العلاقة بين ابراهيم والثورة بعد فوات الأوان. واعتقل ابراهيم على الفور في الحميمة واغتيل في سجن حران في عام ٧٤٩م /١٣٢هـ. وسرعان ما هرع بقية العباسيين الى الكوفة بعد دخول الخراسانية اليها لكن ابا سلمة امرهم بالبقاء متخفين حتى انه رفض ان يصرف لهم نفقات كانوا باشد الحاجة اليها. وفي الوقت ذاته لم يعلم ابا الجهم بوجودهم في الكوفة مع ان ابا العباس عبد الله بن محمد، شقيق الامام ابراهيم القتيل كان موجودا بينهم، وهو المعين من قبل شقيقه القتيل، على ما قيل، ووريثا له قبل مقتله. وهكذا يبدو انه كان هنالك خلاف مكتوم بين الثوار حول قضية امير المؤمنين الجديد. ففي رأي ابي سلمة كانت كلمة « الرضى » تعني ان المسألة بكاملها مفتوحة وخاضعة لموافقة جميع الأطراف المعنية. اما بالنسبة للخراسانية فالقضية ليست بالضرورة مفتوحة الى هذا الحد لأنهم كانوا ميالين الى عباسي من بيت الرسول. ثم ان لرأيهم وزنا كبيرا.

ولا ريب ان ابا سلمة، وهو رجل الدولة المسؤول، كان ادرى بالاتجاهات المختلفة بين الشيعة، وبمضامينها العملية بالنسبة لصلاحيات امام امير المؤمنين، ولا سيما في

مكان كالكوفة. كذلك كان عالما برغبات الخراسانية بالنسبة للموضوع. وكانت مشكلته ان يوفق بين هذه الآراء جميعاً وان يقدم للثوار مرشحاً من بيت الرسول يحظى بأوسع ولاء ممكن. ولعله كان مقتنعاً ان اختيار احد العباسيين لن يكون الاختيار المرغوب. وعمد بالتالي الى الاتصال باعضاء آخرين بارزين من آل البيت، اي بجعفر الصادق، وعبد الله بن الحسن، وعمر بن علي بن الحسن، وهم جميعاً متحدرون من الرسول مباشرة قاطنون في الحجاز. ولا ريب ان ابا سلمة عرض عليهم المنصب العالي على اساس شروط معينة اذ انهم رفضوا العرض جميعا. وبعد اكثر من شهرين تسلم الخراسانية زمام الأمور وفرضوا رجلا اختاروه على اساس شروطهم. ولما كان ذلك قد تم بتدبير من ابي الجهم فلا بد ايضا انه تم بموافقة ابي مسلم. ولم يكن امام ابي سلمة الا ان يقبل بالأمر الواقع.

وكان امير المؤمنين الجديد هو ابو العباس عبد الله بن محمد الذي قبل المنصب على اساس شروط الخراسانية. كذلك قبل ان يظل ابو سلمة في منصب الوزير وقد عنى ذلك تضييقا شديدا على سلطته الزمنية. ولم يتخذ لقب امام، مما يدل انه لن يكون له ذلك النوع من الصلاحيات الدينية التي كان الشيعة يطالبون بها لأمير المؤمنين الامام. وبكلام آخر يكون الخراسانية الذين قبلوا بدن جدال باحداث منصب وزير يتمتع بالصلاحيات الزمنية، قد تصوروا اميراً للمؤمنين محدود الصلاحيات الدينية الى حد كبير، وبغير صلاحيات زمنية. ويمكن ان يقال بالطبع انهم كانوا يحاولون كسب تأييد المسلمين الآخرين الذين لم يؤمنوا بالمفهوم الشيعي لأمير المؤمنين الامام. لكن الخراسانية، وقد رفضوا هذا المفهوم، لا يمكن ان يقبلوا باعطاء امير المؤمنين الجديد صلاحيات زمنية ايضا، لأن هذا يعني استمرار التقليد المرواني مع تغيير شخص صاحب المنصب. وقد حل هذا المأزق الصعب بتقرير استمرار منصب الوزير. وكان ذلك في الواقع احداث منصب جديد مكمل لمنصب امير المؤمنين.

هنا نذكر ان المختار كان في ثورته السابقة في الكوفة قد اعلن نفسه وزيرا للمهدي الذي دعا اليه، اي محمد بن الحنفية. على ان تردد هذا الأخير في الموافقة على هذا الترتيب وفشل الثورة لم يتيحا في المجال امام هذين المنصبين ان يكتسبا واقعاً حقيقياً في ذلك الوقت. اما الآن فان الثورة طرحت جانباً فكرة المهدي واستبقت فكرة الوزير واعطتها المضمون. ثم طورت هذه الفكرة الغامضة التي فكر بها المختار في ظروف مختلفة

كل الاختلاف، الى وظيفة محددة بوضوح ذات صلاحيات محددة في ظل بنية سياسية جديدة. وكان مبدأ توزيع السلطة بين امير المؤمنين والوزير شيئاً جديداً اتت به الثورة، وحلاً وضعته لقضية المؤسسات السياسية في الامبراطورية. ومع ان هذا الحل لم يكن مبنيا على تطوير مؤسسات قائمة، عربية او اسلامية فانه كان يمكن له ان يؤمن اطاراً لتطويرمؤسسات حكم قابلة للحياة لو ان الخراسانية انفسهم ارادوا التخلي عن السلطة. لكنهم باحتفاظهم بالسلطة العسكرية افرغوا هذه المؤسسات من سلطة ادبية او مادية. وبحرمان الوزير من السيطرة على الجيش اوجدوا في الواقع موظفاً ادارياً لا يستطيع ان يتصرف الا بموافقتهم. ولما وجد ابو سلمة صعوبة في الاستمرار في ظل هذا التدبير كان لا بد له ان يرحل. ثم اعدم بعد ذلك بقليل في عام ٧٥٠م / ١٣٢هـ بموافقة الثوار وامير المؤمنين الذي لا سلطة له. ومما له مغزاه ان ابا الجهم تسلم مسؤولياته. لكن ذلك لم يكن يعني نهاية منصب الوزير. وقد ظل الجدال حول وجود المنصب وصلاحياته قضية رئيسة طوال بضعة قرون تالية.

ثم ان اختيار ابي العباس لمنصب امير المؤمنين دليل آخر على نية الخراسانية بان لا تترك اي سلطة حقيقية بيدي صاحب المنصب. لا شك ان ابا العباس لم يكن خليفة قويا بصورة خاصة خلال عهده الذي دام اربع سنوات (٧٤٩ ـ ٥٤م/١٣٢ ـ ٦هـ). ويعزى اختياره لهذا المنصب بوجه عام الى كون امه عربية بينها كانت والدة اخيه الأكبر ابي جعفر عبد الله بن محمد من البربر. على انه ليس من المنطق في شيء ان نصدق ان الثوار سلكوا هذا المسلك في هذه الحالة النموذجية الشهيرة بعد ان خاطروا بارواحهم لتحقيق الانصهار الكامل. والمحتمل فيما يبدو ان تجاوز ابي جعفر يعود الى انه كان الشخصية الأقوى بين الأخوين ثم ان سيرته تدل انه كان يؤمن بضرورة منح امير المؤمنين سلطات اوسع. وبعد خمس سنوات، اي في عام ٧٥٤م/١٣٧هـ، كان على ابي جعفر ان يقوم بثورة مضادة ليرسخ سلطاته بصفته امير المؤمنين الجديد، المنصور، على اسس شديدة الشبه بما كان يفعله اي خليفة من آل مروان. وادى اعدامه لأبي مسلم الى وضع سلطة الخراسانة العسكرية تحت سيطرته الخاصة بحيث تمكن بعد ذلك من ممارسة كاملة للصلاحيات الزمنية من غير ان يدعي اي صلاحيات دينية للامام.

لقد اتضح الآن ان الثوار الناجحين العباسيين افترقوا عن الشيعة منذ البداية بانحرافهم عن الفكرة الشيعية الأساسية، اي فكرة امير المؤمنين الامام، اذ ان الثورات

الشيعية، ولا سيما ما وقع منها في عهد ابي جعفر، تشير بوضوح الى خيبة امل الشيعة بالثورة الهاشمية العباسية. لقد حققت هذه الثورة بصورة حاسمة احد اهدافها الرئيسة وهو صهر جميع اعضاء الأمة الاسلامية. كما ساعد الحل الاسلامي لمشاكل الامبراطورية الاجتماعية الى حد كبير على نشر الاسلام بين الرعايا غير العرب، واوجد ما يمكن وصفه حقاً بالمجتمع الاسلامي النامي. على ان الثورة فشلت في انشاء مؤسسة سياسية ملائمة تحكم المجتمع الجديد، الأمر الذي حال دون استقراره.

شهد عام ٧٥٠م/ ١٣٢هـ الدمار النهائي لما تبقى من قوات مروان الثاني. وبعد دخول جيش الثورة الى الكوفة بخمسة اشهر، اي في اوائل السنة ذاتها، راح هذا الجيش يتابع انجاز مهمته الرئيسة. ومني الجيش الرئيس لموان الثاني المرابط في الجزيرة بهزية ساحقة في معركة الزاب التي وقعت على ضفة فرع من نهر دجلة يعرف بهذا الاسم. وفر مروان الثاني نفسه الى سورية ثم الى فلسطين حيث عجز لاسباب مفهومة عن الحصول على اي دعم. ووصل بعد ذلك الى مصر حيث اعتقل وقتل بعد سبعة اشهر فقط من معركة الزاب. وهكذا وبعد ثلاث سنوات من قيام الثورة في مرو، انتهى حكم بني مروان.

المصادر والمراجع

المصادر العربية

ابن الأثير ، عز الدين ، **الكامل في التاريخ** ، بعناية تورنبرغ ، لايدن ١٨٦٦ ـ ٧١ ، ١٤ جزءاً .

ابن أعثم الكوفي ، أبو محمد أحمد ، **كتاب الفتوح** ، مخطوط استانبول ، مكتبة أحمد الثالث ، رقم ٢٩٥٦ ، مجلدان .

ابن تغري بردى ، **النجوم الزاهرة** ، بعناية ، ث. جـ. جونبول، و. ب. ف ماث ، لايدن ، ١٨٥١،

ابن حزم ، علي بن محمد ، **جمهرة أنساب العرب** .

ابن خلدون ، **كتاب العبر** ، القاهرة ، ١٢٨٤ هـ. بعناية ع. م. هارون، القاهرة ١٩٦٢

ابن خياط ، خليفة ، **تاريخ** ، بعناية اكرم ضياء العمري ، النجف ، ١٩٦٧ ، جزءان .

ابن عبد الحكم ، ابو محمد عبدالله ، **فتوح مصر** ، بعناية ف. ف. توري ، نيوهافن ، ١٩٢٢ .

ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد ، **العقد الفريد** ، بيروت ، ١٩٥١ ـ ٤ ، ٣١ جزءاً .

ابن عساكر ، **تاريخ دمشق** ، جـ١ بعناية صلاح الدين المنجد ، دمشق ، ١٩٥١ .

ابن سعد ، محمد ، **الطبقات الكبير** ، بعناية سخاو ، لايدن ، ١٩٠٥ ـ ٢١ ، ٨ أجزاء .

ابن سلام ، أبو عبيد القاسم ، **الأموال** ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ .

أبو يوسف ، يعقوب ، **كتاب الخراج** ، القاهرة، ١٣٠٢هـ .

البلاذري، أحمد بن يحيى، **انساب الأشراف** ، مخطوط استانبول ، مكتبة السليمانية ، رئيس الكتاب رقم ٥٩٧ ـ ٨ ، جزءان ، الجزء الأول ، بعناية م. حميد الله ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، الجزء الرابع

القسم الثاني ، بعناية م. شلوسنجر ، القدس ، ١٩٣٨ ، الجزء الخامس ، بعناية س. د غويتن ، القدس ، ١٩٣٦ ، الجزء الحادي عشر (مجهول التاريخ العربي) بعناية و. اهلوارت عريفسوالد ، ١٨٨٣ .

الذهبي ، محمد بن أحمد ، تاريخ الاسلام ، القاهرة ، ١٣٦٧ ـ ٩هـ ، ٥ أجزاء .

السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، القاهرة ، دون تاريخ .

فتوح البلدان ، م. ج دي غوية ، لايدن ، ١٨٦٦ .

الفرزدق ، ديوان ، بعناية ر. بوشيه ، باريس ، ١٨٧٠ ، جزءان .

الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، بعناية دي غوية ، ولايدن ١٨٧٩ ـ ١٩٠١ .

سيرة عمر بن عبد العزيز ، القاهرة ، ١٩٢٧ .

الكندي ، الولاة والقضاة (ولاة مصر وقضاتها) ، بعناية ر. غست ، سلسلة تذكار جب ، الجزء ١٩ لندن ، ١٩١٢ .

نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ، بعناية ع. م. هارون ، القاهرة ، ١٩٤٦ .

النوبختي ، الحسن بن موسى ، فرق الشيعة ، بعناية هـ. رتير ، ليبزغ ، ١٩٣١ .

لمبرد ، ابو العباس محمد ، الكامل ، بعناية ، و. رايت ، ليبزغ ، ١٨٧٤ ـ ٨٢

المقريزي، أحمد بن علي ، الخطط ، بعناية غ. فييت ، القاهرة ، ١٩١١ ـ ٢٢ .

المسعودي ، علي بن الحسين ، مروج الذهب ، بعناية ، ك. باربييه دومايناد ، و ب. دو كورتيي ، باريس ، ١٨٦١ ـ ٧٧ ، ٩ أجزاء .

الميني ، أحمد ، شرح المنيني على تاريخ العتبي ، القاهرة ، ١٢٨٦هـ .

مؤلف مجهول ، أخبار العباس وولده . مخطوط في مكتبة معهد الدراسات الاسلامية العليا ، بغداد .

مؤلف مجهول ، تاريخ الخلفاء ، بعناية غرياز نيفتش ، موسكو ، ١٩٦٧ .

مؤلف مجهول ، العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، بعناية م. ج. دي غويه ، لايدن ، ١٨٦٩ .

الأزدي ، أبو زكريا ، تاريخ الموصل ، الجزء الثاني ، بعناية حبية ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

الأصفهاني ، أبوالفرج ، الأغاني ، الأجزاء ١ ـ ٢٠ ، القاهرة ١٢٨٥هـ ، الجزء ٢١ بعناية ر. برونو ، لايدن ، ١٨٨٨

اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب ، تاريخ ، بيروت ، ١٩٦٢ ، جزءان .

الدراسات والكتب

العلي ، صالح أحمد ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، بغداد ، ١٩٥٣ .

المصادر الأجنبية

1) Belayaev, E.A. *Arabs, Islam and the Arab Calip hate* tr. Adolphe Gourevitch, London, 1969

2) Cahen, Cl. «Djiza», *Enc. of Islam*, new edition, Leiden, 1954.

3) Christensen, A. L'Iran Sous *les Sassanides*, Copenhagen, 1936.

4) Dennet, D.C. *Conversion and the Poll-tax in Early Islam*, cambridge, mass, 1950.

5) Eickelman, Dale F. «Musaylima», *Journal of Economic and social History of the Orient*, 1967, pp 17-52.

6) Gibb, H.A.R. «An Interpretation of Islamic History» *Studies on the Civilization of Islam* London, 1962, pp. 3-33.

«The Fiscal Rescript of Umar II», *Arabica*, vol. II, January 1955, P. P. 3-16.

Studies on the Civilization of Islam, London, 1962.

7) Kister M.J., «Mecca and Tamim», *Journal of Economic and Social History of the Orient*, 1965, pp. 113-63.

«The Market of the Prophet», *Journal of Economic and Social History of the Orient*, 1965, pp. 272-6.

«Al Hira», *Arabica*, Vol. XV, 1968, pp. 143-69.

8) Lewick, T., «al-Ibadiyya», *Enc. of Islam*, new edition, Leiden, 1954.

9) Lokkegaard, F. *Islamic Taxation in the classic Period*, Copenhagen, 1950.

10) Serjeant, R.B. «*Haram and Hawtah*, The Sacred Enclave in Arabia», *Mélanges Taha Hussein* Cairo, 1962, pp. 41-58.

«The Constitution of Medina», *Islamic Quarterly* , vol. VIII, 1964, pp. 3-16.

11) Shaban, M. A. *The Abbasid Revolution*, Cambridge, 1970.

«The Political Geography of Khurasan and the East at the time of the Arab Conquest», *Minorsky's Memorial Volume*, ed. C.E. Bosworth and J. Aubin, London.

12) Watt, W. Montgomery, *Muhammad at Mecca*, Oxford, 1953.

Muhammad at Medina, Oxford 1956

Muhammad, Prophet and Statesman, London, 1961, *Islamic Political Thought*, Edinburgh, 1968.

13) Wellhausen, J., *The Arab Kingdom and its Fall*, tr. M. G. Weir, Calcutta, 1927.

تفسير جديد للتاريخ الإسلامي في أوائل عهده اعتمد فيه المؤلف الدكتور محمد عبد الحي محمد شعبان على مصدرين حديث كشف حديثاً وقديم أعيد النظر فيه. يتناول المؤلف في هذا الكتاب الفترة الممتدة بين قيام الدعوة حتى سنة ١٣٢هـ.